زيد الشهيد

السفر والأسفار

رواية

أمل الجديدة
طباعة، نشر، توزيع

السِّفر والأَسفار

الكتاب: السِّفِر والأَسفار

المؤلف: زيد الشهيد

الطبعة: الأولى ٢٠١٧

ISBN: 978-9933-581-14-5

الإخراج الفني: دار أمل الجديدة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد١٢٨٩ لعام٢٠١٦

سورية - دمشق

جوال ٠٠٩٣٩٣٢٤٧٢٠٩٦ - ٠٩٣٩٣٢٠٠٢١٢٦-

هاتف: ٠٠٩٣١١٢٧٧٢٤٢٩٢

E-mail:ammarkordia@yahoo.co

حقوق الطبع محفوظة: لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت (الكترونية) أو (ميكانيكية) أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من المؤلف أو الناشر.

All rights reserved, Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, Electronics, mechanical photocopying, recording of otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

زيد الشهيد

السِّفر والأَسفار

رواية

غداً حالَ بزوغِ الفجرِ
ساعةَ ينشرُ الضوءُ بياضَه على الريفِ
سأرحلُ.. أتعلمين!!.. على يقينِ أنا بأنكِ في انتظاري
سأسلك ذاكَ الطريق عبر الغابةِ وسأجتاز الطريقَ المحاذيَ للجبلِ
لم أعُد أستطيع العيشَ بعيداً عنكِ أكثر
سأخطو وعيناي مثبتةٌ على أفكاري
دون أنْ ألحظَ ما يدورُ في الخارجِ ودونَ أن أستمع لأيّةِ ضجّةٍ
هكذا وحيداً وغريباً بظهرٍ منحنٍ وأيدٍ مكتَّفة
حزين.. والنهارُ لديَّ أحسبه كالليل
لن أدع نظري يعلق لا بذهبِ الليلِ الذي يكاد يتساقط
ولا بتلك الأشرعة في البعيد المنحدرة باتجاه قرية "أغ فلوه غ"
وعندما أصلُ سأضعُ على قبركِ
باقةً من نبتة الإيلكس الخضراء والزهورِ البريةِ.

فيكتور هيجو-

١٨٤٧

(١)

هاتف غازي

على مدى أسبوعين كنا نلتقي..

لديَّ معهُ مشروعٌ مُهم تساورني فيه خشية أن لا أتمّه فأسقط في قرارِ بحرٍ من الأسف ومدٍّ من الألم، مصحوباً بتقريع النفس على تأخر ما كانَ سيحصل لو كنتُ برمجتُ الزمن وجعلته يميل لكفتي.

الزمن لا يرحمك إنْ تجاهلته؛ لكنك آنْ تلاحقُه وتلازمه وتلوي عنقَه سيغدق عليكَ بما تريد.

شكرت السماء لأنها وقفت إلى جانبي. ذلك أني ما أن أكملت المشروع ومر يومان حتى نقل لي هاتف صديق له يجاوره في سكنه خبر وفاته.

لقد شهدتُ في آخر لقاء معه وتسجيل حديثه أنَّ الرجلَ منهكٌ وغير قادر على مواصلة صراع الزمن والبقاء حيّاً سنة أخرى، أو حتى شهر آخر؛ هو الذي صارع، وقاتل، وسخر، وانتصر فما عاد للقدر بطاقة صفراء أو حمراء يشهرها بوجهه. مبارياته مع الحياة أغلبها انتهت بفوزه، وأظهرته، بناء على ما كتبَ، وما سمعت عنه، وما رواه مسكوباً من

فمه، لاعباً متميزاً. تمكّن بفعل مهارات عقلية، ولياقة نفسية، وروح دعابة من الفوز في كل مباراة دخلها مع الأقدار الحاصلة والمواقف المُستَجدّة.. لم تثنه خسارة، ولم يستسلم لهزيمة. ولا تراجع حتى عن قرار أو تصميم عزم على تنفيذه إلى نهايته، ولا شعر يوماً بأنه لم ينهل من عسل الدنيا بما يكفي. كثيرا ما يشبّه نفسه بعروة ابن الورد أيام كان شاباً؛ وآخر أيامه كان يقول: أنا مالك بن الريب، ويروح يتمتم بشيء من الجزع والمرارة:

أَجَبْــتُ الْهَــوَى لَمّــا دَعَــانِيْ بِزَفْــرَةٍ
تِقَنّــعَتِ مِنْهَــا أَنّ أُلَــامَ رِدَائِيَــا

أَقُــوْلُ لِأَصْــحَابِيْ ارْفَعُــوْنِيْ لَــأَنّنِي
يَقَــرّ بِعَيْنَــيْ أَنْ سُــهَيْلٌ بَــدَا لِيَــا

خُــذَانِيْ فَجُرّانِــيٌّ بِبُــرْدِيَ إِلَيْكُمَــا
فَقَدْ كُنْتَ قَبْلَ الْيَوْمَ صَعْبَا قِيَادِيْا

كنت في أيامه الأخيرة عندما أنوي تقوية شكيمته بكلمات تؤكد أنه ما زال قوياً وله من مشوار المطاردة ما قد يهزم أشد الأفراس قوةً وجموحاً يرفع كفاً مرتعشة سبَّبها شلل داهمه جراء جلطة مرت به قبل أشهر جواباً على

قرب نهايته. لذلك لم أفاجأ بموته.

وخبرُ الوفاة أعلمني بانتصار مشروعي المُكمِّل لانتصاراته في الحياة.

الذي فاجئني، وآلمني بعدما عرفت عنه الكثير، ووضعته بالكفة الراجحة من التقدير هو عدم إعلان موته في صحيفة؛ ووفاته مرّت مرور خبر شفاهي تناقلته ألسن قليلة وتبارى عدد ضئيل بالشعور بألم فراقه وفقده؛ فقط السماء كانت رحيمة معه اذ كانت صافية والشمس نقية وجوق حمام ابيض يطير مجاميع خاطفة فوق البنايات وقريباً من المقبرة التي ضمته.

أول عهد لي بمشاهدته كان في خريف عام١٩٧٨ يوم أظهره الباب الزجاجي للمقهى البرازيلية صحبة رجل سبعيني يقاربه العمر سمه مجيد البابلي. مسح بعينيه جغرافية المقهى، ودارت أنظاره على الروّاد يطالع وجوههم كأنه يبحث عن ضالةٍ.. كان رفيقه مجيد البابلي رجلاً متوسط الطول ببدلة سوداء وقميص أبيض وربطة عنق خضراء بهيئة قرتيلة؛ يطوي تحت أبطه صحيفة لا ادري إن كانت "الثورة" أم "الجمهورية" أم "العراق". أمّا هو فكان يرتدي سترة رمادية بمربعات سوداء داكنة، وقميص سمائي وبنطلون أسود يخال لمن ينظر لهيئته الفارعة الخروج بأنه صاحب ذوق

فني وإن بدت الملابس أقرب إلى البُلى. يحمل حقيبة جلدية بلون الحنّة، عتيقة وممتلئة بما عرفته بعد وقت بنسخ من كتاب حمل اسمه كمؤلِّف كان يروِّج لبيعه. وكانت رائحة القهوة وهي تشيع في فضاء المقهى المحاط بجدران بنيّة داكنة والهدوء الذي يعم المكان وحركة العامل كرّومي أربعيني العمر ذي المريلة البيضاء (العامل دؤوب يتنقل من منضدة لأخرى حاملاً صينية صغيرة عليها أكواب قهوة وأقداح ماء ممتلئة أو فارغة) يعيد لمن يقرأ الروايات ويعشقها إلى أجواء القرن التاسع عشر في واقع أوربي، فرنسي أو انكليزي على وجه التحديد. فالمكان يحمل طابع مقاهي ذلك العصر.

بعض الجلاس يعتمرون القبعات، وآخرون بسدارات سوداء محاكاة لمن عاصر الملك فيصل الأول مؤسس الدولة العراقية عندما ارتدى السدارة لأول مرة؛ كواحدة من طرازات كان الملك يترجل بها على أرض البلاط وفي جولاته المتعددة داخل بغداد) لقد كان الملك يتفنن بارتداء الألبسة. فمرة يشاهد ببزة عسكرية، ومرةً بثياب بدوية: العقال المقصب أو التقليدي المدوّر والكوفية البيضاء، وأخرى ببدلة إفرنجية حاسر الرأس.

كانت المرايا المستطيلة المؤطرة بالصاج المصقول تحتل

مساحات من جدران المقهى. أما الثريات النمساوية فتتدلى من السقف المرتفع وقد حافظت على هيئتها الفاتنة رغم يقين أنها لم تضاء منذ وقت طويل أو أن مصابيحها معطوبة ولم يبذل مالك المقهى جهدا في تبديلها. لعل الكثيرين يشاطرونه الرأي انطلاقاً من أن المقهى لا يستمر مُشرع الأبواب مساءً. فخدمة الزبائن تتوقف مع بدء غلق محلات شارع الرشيد ومغيب الشمس وحضور لحظات الغروب، فالرشيد يطرد من أرصفته المارة تدريجياً مع تواصل ساعات الليل باستثناء السكارى الذين تلفظهم بارات السعدون وأبي نؤاس، والبارات الجديدة في شارع الخيام. سكارى يسكن معظمهم في شقق رطبة حائلة الجدران وضئيلة التهوية في أزقة سيد سلطان علي وعقد النصارى وراس القرية والصابونجية. يعودون من أعمال مضنية تتجاوز الغروب رغم التوجه إليها فجراً. وهناك المجانين الذين يفتقدون المأوى فيضطرون للبحث عن مكان يلتجئون إليه لتمضية ليل الحك من القمل المعشش في طيات ملابسهم المتهرئة والبعوض المهوِّم على وجوههم وأطرافهم المكشوفة.

رفع كفّاً يومئ للعامل ليملي عليه الطلبات. وكانت الصورة المعلَّقة على الجدار لأحمد حسن البكر ببدلة مدنية سوداء ورباط عريض يرفع يده يحيي جمهور مفترض وتحته

بخط طباعي كُتب: رئيس الجمهورية العراقية.. من ورائي سمعت صوت شاب يجيب همساً على سؤال زميل له يجالسه المنضدة: الذي يطالع الجريدة لا أعرفه؛ أما صاحب الحقيبة فهو هاتف غازي.. هذا رجل لفَّ العالم واغترب ما يزيد على الخمسة عقود. لا يخطر على بالك بلد إلا وزاره وعاش فيه صعلكة ما زال يمارسها حتى اليوم.

وأنا احصد الكلام رحتُ انظر اليه بعين اختلفت عن رؤيتها له عندما دخل ورفيقه. كان وهو يتكلم معصاحبه الذي جلس قبالته ثم مع عامل المقهى وهو يضع أمامه قهوة مرة وقدح ماء أفرغه في جوفه سريعاً يطلق كلاماً يضحك له العامل ويقهقه الصديق بأعضاء جسد تهتز.

صار عندي أنه رجل يتحلّى بروح الدعابة ويطلق النكات بيسر جراء خبرات لا حدَّ لها اكتسبها، ومواقف وفيرة واجهها، وعاش تفاصيلها حتّى.

موارية الباب من قبل شاب يحمل جرائد تتكوم على كتفه ويمسح بعينيه الجالسين علهم ينادون عليه حوَّل نظراتي عنه، لاسيما والشاب اتجه مباشرة اليَّ مقدِّماً جريدة العراق كما لو أني طلبتها بلساني. أخرجت عشرين فلساً ونقدتها. تركني فرِحاً وراح يمر على المناضد.. شلة شيوخ مهندمين تتوالى حبّات مسابحهم الكهرب الصفراء

الخضيبة باللون الأبيض أو اليسر المطعَّمة بنقاط الفضة الصافية أوحى لي وجودهم متحلّقين حول احدى الطاولات على انهم متقاعدون، ذوو درجات عليا في الوظائف يتخذون المقهى مكاناً للحوار فيما بينهم وطمأنينة تخلقها الكومونة الإنسانية سواء داخل المقهى أو خارجه. ابتاع اثنان منهم صحيفتين مختلفتين وأخذا يفككانهما ويوزعان صفحاتها كي يشرع الجميع بالقراءة.. تركته لأقرأ العناوين الرئيسية بالحروف الكبيرة في الصفحة الاولى فأمر على خبر استقبال مبعوث الجامعة العربية ومناقشة ورقة عمل ما سيناقشه الرؤساء العرب في مؤتمرهم الذي سيعقد في الكويت؛ وخبر الانتحار الجماعي لـ٩٠٠ من مريدي "جيمي جونز" مؤسس معبد الشعوب واعتبار فعل الانتحار اكبر كارثة غير طبيعية تحيق بالحركة المدنية.

ثم قلبت الصفحة الى الاخبار المحلية، ثم الثقافية.

ولم اكد اقلب الورقة إلى صفحة تراث وثقافة شعبية حتى سمعت من يقول: "رجاءً، ممكن أسألك"..

رفعت رأسي لأتأكد ان كان التساؤل موجّه لي أم لغيري. وعندما وجدت ابتسامة تفترش محياه وإشراق تبثه عيناه بحدقتيه الصفراوين غمرني الارتياح. انبثقت في القلب رغبة التكلم معه: نعم، ماذا تأمر؟.. تهللت قسماته

لكلماتي، وأشرقت عيناه أكثر.

قال: أرجوك انظر في صفحة تراث وثقافة شعبية موضوع (في ألمانيا رأيتهم يعيشون).. العناوين رسمت خيبة داخلي. تمنيت لو رأيت الموضوع فعلاً لأنهض، وبحج عرضه عليه أشاركه والصديق الجلسة والحديث. قلت للأسف لا يوجد. "إذاً سيظهر غداً أو بعد غد". استدار يكلّم صاحبه بعدما نلتُ منه كلمة"شكراً".

أخذتني الصفحات، وعزلتني عن جو المقهى، رحلت مع أخبار منتخبنا الوطني للشباب لكرة القدم وهو يحتفي بفوزه على ايران بأربعة اهداف مقابل ثلاثة، ثم تهتُ مع اخبار الصفحة الاخيرة المنوّعة. ولم انتبه إلا عليه يحمل نسخاً من كتاب يكلم المتحلقين حول مناضدهم في أقصى المقهى فيتناولون عدداً منها وينقدونه مالاً، ثم يتجه إلى منضدة أخرى وروّاد آخرين. حتى إذا ادركني ابتسم ابتسامة عريضة." أنا موقن من شرائك لهذا.. رأيتك تلتهم أسطر الجريدة وتقلب صفحاتها.. حسبتك باليقين قارئ نهم. ".. أخذته من يده. العنوان (سِفري وأسفاري). وفي الاسفل قرأت: هاتف غازي.. باندهاش سألته: هذا من تأليفك ".. "نعم! " وبشيء من المرارة قال: ولو أنَّ الكتابة لعبة خاسرة كالقمار لكن ماذا نفعل، لا نستطيع التخلي عنها.. هل

رأيت مقامراً ترك لعب القمار واستراح؟".

الـديـنـار الــذي دفعتــه كــان ثميـنــاً لكــنـي شــعـرت أن الكتاب يستحق.. سأقرأه.. سأدخل عوالمه.

عيناه الصفراوان اللتان كعيني نمر لابد تخفيان خلفهما الكثير من الخبايا. ذاكرته تختزن جبالاً من الصور أعاصير من الحوادث. هو الجوّال، كما سمعت قبل قليل، الذي لا يهدأ في بلد إلا وغادر لآخر وجغرافية أخرى. حملقَ في وجهي.. ركز عينيه في عيني كأنه يبث فيهما سحر الصعلكة، كأنه يخاطبهما كقرينين لعينيه الجوالتين اللتين شاهدتا ما لم يشاهده مائة شخص، كأنه أدرك بحدس النفوس المؤّارة للبحث والاكتشاف شبهي به. قال: أنت شاب، وهذا الكتاب يفتح أمامك أبواب حب الترحال والتجوّل والمغامرة.. لا يوجد أجمل من المغامرة واكتشاف العالم. "

كان الكتاب بثلاثمائة وعشرين صفحة من القطع الكبير. غلاف بسيط وورق أسمر شبيه بورق الجرائد، طبع في مطبعة منزوية في شارع المتنبي، وتولّت مكتبة الشطري توزيعه.. كان الشطري نفسه - حسبما فهمت في ما بعد - يروج له بلسانه لرواد مكتبته ويبعث به مع مجموعة

كتب يشحنها الى المحافظات انطلاقاً من تقدير أهمية هذه الشخصية المغامرة التي ينبغي للشباب العراقي التعرف عليها كي يتحلوا ببعض خصالها، وللشيوخ المقارنة مع حياتهم التي كثيراً ما كانت لا تتعدى في حركتها شوارع مدنهم المدن القريبة على أبعد تقدير.

(٢)

النزل

بعد مغيب الشمس عدت إلى غرفتي التي استأجرتها قبل أشهر من أم سعاد في الحيدرخانة (وأم سعاد امرأة بعمر الخمسين، كثيراً ما تظهر لنزلائها الذين تثق بهم مجموعة صور تحتفظ بها في علبة معدنية اسطوانية لجكليت باسم جواهر. ترفع غطاءه فتستخرج كيسا من النايلون مطوي عدة طيات. اذ تفتحه تظهر حزمة من صور فتوغرافية. تقول: هذي حياتي مع عبد الستار، وتقصد زوجها قبل أن يقتل في عصيان الاكراد، شمال البلاد).

غرفتي صغيرة، هي واحدة من ست غرف تشكل نزلاً تمتلكه المرأة الخمسينية وتعتاش على وارد إيجار تجمعه بداية كل شهر.. الغرفة الأولى يقطنها نزيلان: حبّوش صاحب الخيال المتوهج أبداً واللسان القادر على نسج حكايات ساحرة مقرونة بالشواهد الخرافية. هذا الذي استغل عمله كفراش لدى أمين العاصمة فكان يفبرك الحكايات ويختلق احداثاً يجسد فيها بطولته وحسن فطنته وذكاؤه واعتماد الأمين على آرائه، وويل لمن لم يستمع له أو

يضحك أو يتهكم لما يقول. حبّوش يشاركه كاكه هوشيار الكردي القادم من سوارة سبندار في الشمال العراقي والذي يشاهد كثيراً في أيام بطالته في مقهى (الشمال) في شارع الجمهورية قريباً من سوق الشورجة.

لكاكه هوشيار مع هذا المقهى حكاية كلما تذكرها غرق في الضحك.. حدث مرة إن كان جالساً في التخت الأمامي مع صف تخوت تحاذي الرصيف عندما تلقّى سلاماً من شاب محمر العينين يدخن بشراهة. طلب الشاب شاياً دفع ثمنه وثمن شاي كاكه هوشيار. أثنى الرجل على الشاب كرمه ولاحظ انه يحمل كاميرا. وفي غمرة الحديث الذي جال هنا وهناك اقترح الشاب التقاط صورة له قال انه اعجب بزيه الكردي المميز بالشروال والعمامة والكيوة القطنية التي تعوضه عن ارتداء حذاء يقبض على قدميه وحزام القماش الذي لطالما تخيل هذا الشاب أن الكردي يلف على بطنه طول قماش كامل.. استبشر كاكه هوشيار للعرض وشكر الشاب... ولم تمض غير أيام حتى جاء احد معارفه ممن يشكون البطالة ويصرف الوقت بمطالعة الصحف وملاحقة الصور في المجلات مستبشراً يطلق ضحكة تمتزج فيها الدهشة بالعجب: بخير بي كاكه حمه... صار اسمك كاكه حمه وليس هوشيار.

ولما أظهر هوشيار دهشته دفع له الصديق: صورتك في جريدة الجمهورية.. خذ! شاهد واقرأ.. طالع كاكه هوشيار الصورة فلم ينكرها. وتذكر الشاب الذي جلس جواره في المقهى والتقط له الصورة.. لكن كاكه هوشيار حين طالع صورته في صفحة التحقيقات والاستطلاعات واجهه العنوان بمانشيت عريض.. صحيفة الجمهورية تتجول في مدينة السليمانية.. دهش: "كاكه، شلون وصلنا لسليمانية، هذا أخذ الصورة هنا في المقهى".. راح يقرأ ويتتبع حتى فوجئ بكاتب الاستطلاع يقول: سافرنا إلى محافظة السليمانية وتجولنا في شوارعها العريضة وسوقها الرئيسي، مررنا على المتنزهات وجلسنا في عديد المقاهي. وفي احد المقاهي الكبيرة وسط ضربات أحجار الدومينة وزارات الطاوليات ونكهة تبغ التمباك في النارجيلات المصنعة محلياً التقينا بكاكه حمه الذي تحدث لنا عن طبيعة المحافظة فقال أنها من أجمل مدن شمال العراق، وإذا كانت الثلوج تسقط في الشتاء وتغمرها بثوب أبيض فإن صيفها يوم مسحوب من أيام الجنة. ".. ولقد ضحك كاكه هوشيار بملء صدره عندما أعلن كاتب الاستطلاع أن كاكه حمه رحَّب به وصحبه إلى البيت وضيفه أحلى ضيافة تاركاً ذكريات جميله عنه وعن السليمانية.. يواصل كاكه هوشيار الضحك ويسأل

صاحبه: "كاكه، امنين جاب هذا الكلام؟.. كل اللي صار قعدَ يمي هنا في الشورجة. شرب شاي ودفع حسابي، وأخذ لي صورة قال للذكرى."

ولم يدرك كاكه حمه أن الذي جلس إلى جواره صحفي قضى الليل يسكر ويثرثر مع جلاس يرون الحياة عبثاً في عبث، وكان على أمل النهوض فجراً والسفر إلى السليمانية بناء على أمر رئيس تحرير صحيفته لعمل ريبورتاج صحفي عن المدينة متضمناً حوارات مع من يلتقيهم هناك ليحدثوه عن تاريخ المدينة وعادات اهلها.

ولما استيقظ متأخراً ونهض على صداع سبّبه العرق المحلي استصعب السفر وقطع مسافة تبعد ٣٥٥كم عن بغداد فقال في سره: مقاهي الشورجة تعج بالجلاس الأكراد. هناك أجلس مع أي كاكه. ومن هنا سؤال ومن هناك يصير تحقيق صحفي.. وبتهكم مع نفسه: من يقرأ؟ من يكتب؟"

وأتذكر مفارقة لا تخلو من الفكاهة يأتي بها التعامل مع الصحافة. فقد بعثت يوماً رسالة إلى صحيفة الثورة قسم شكاوي المواطنين أشكو فيها من طولة وسط بيوتنا وداخل زقاق مزدحم يسرح ويمرح داخلها عشرون خروفاً وأربع معزات. وقد أرفقت بالشكوى صورة التقطتها للخراف

والمعزات منهمكة في تناول العلف.. صرفت الأيام انتظر نشر الشكوى لعل دائرة صحة المدينة عندما تطلّع عليها تتصرف بما ينقذنا من ذلك الوبال المقرون بالروائح المقززة طوال الليل والنهار.

ولقد فوجئت بالصورة تنشر.. ولكن ليست مع الشكوى، بل في ريبورتاج صحفي عن انتعاش الثروة الحيوانية في البلد.

في الغرفة المجاورة يسكن شكّوري صاحب عربة الدفع الخشبية التي عادة ما يركنها على يمين النزل بعدما يحمل محتوياتها الى غرفته.. في الشتاء يبيع شكّوري اللبلبي والباقلاء والشلغم والشوندر في قدور يرتفع منها البخار والرائحة الباعثة على الشهية، مع مقبلات الخل والطرشي والبطنج. وفي الصيف تكون بضاعته اللبن الرائب البارد وشربت الزبيب.. وكلا البضاعتين مرغوبتين، يهرع لها محبو هذا النوع من الأكلات الذي يُحدِث شبعاً مُستحبّاً.. كثيراً ما شوهد مَن يساعد شكّوري الأعزب بأعوامه الخامسة والثلاثين في غرفته واغلبهم من الشباب بعمر دون العشرين. هذا يقشّر له الشوندر وهذا يقطع الشلغم وذاك يملأ له القدور بالماء ويضعها على عيون الطباخ النفطي.

في الغرفة الثالثة يسكن كريم الشرطي مع قريبَين له.

القريبان يؤديان أعمالاً تتطلب وجودهما في بغداد يومين أو أكثر ثم يعودان للناصرية في الجنوب.. يُشاهَد كريم في مدخل المتحف البغدادي. يقول: "اللّه رحمني ووضعوني هنا.. لا حراسة ليلية ولا عرضات. أداوم مع الأفندية وارجع لغرفتي مع نهاية الدوام. خلَّصت من شعبة أمن الكرادة وخشية الناس منها.".. الغرفة الرابعة سكنها اثنان: الاول اسمه ألماز، تركماني عمره اربعين عاماً. يبرح النزل وقد حمل على كتفه كوشر فيه أدوات هي مصدر رزقه: بلايس صغيرة وأسلاك حديدية مطواعة وعصا خشبية مقوسة يرتبط بطرفها خيط جلدي حين يربطه بالطرف الثاني يصبح قوس بوتر. حرفته اصلاح الصحون والقواري الفرفوري المكسورة وإعادة استخدامها في البيوت أو المقاهي. وكثيراً ما شوهد في أزقة الفضل وأبي سيفين والصابونجية. أما بيوتات الحيدرخانة ولقربها من سكنه فإن باب غرفته كثيراً ما تطرق لتعرض عليه القواري والصحون المعطوبة يطلب منه تصليحها، وعادة ما يصلحها في غرفته ساعات الليل.. أما الثاني فأبو ستار الحمّال في شارع المتنبي. يفرغ السيارات التي تأتي مليئة بصناديق الكتب والقرطاسية. يحملها على ظهره أو يدفعها بعربة يدوية بعجلتين الى المكتبات ومحلات القرطاسية.. يسكن

معه ولده سعيد ، الطالب في كلية الآداب قسم اللغة الالمانية. يشقى ابو ستار كي يجعل سعيد مثابراً. يقول أريد ان يكون مثل ابني البكر عبد الستار. وقبل ان يُسأل اين يكون عبد الستار يقول: "يعيش في فرنسا. يدرس الهندسة المعمارية. ويوافيني برسائل: "أبي.. لا ارجع إلا ومعي شهادة الدكتوراه. أبمكانك ألتواصل معي بإرسال ما يتوفر لديك من نقود؟ "يسعد لهذا السؤال ويبعث له: حتى آخر نفَس، يا ولدي.حتى آخر نفس."

أمّا الغرفة المجاورة لباب النزل فيسكنها بشير، مراقب في صحة العاصمة، وينال الاحترام الباذخ من ام سعاد. يسكن بشير لوحده. وكلما أفشى النزلاء لها بأنه يصطحب فتيات معه الى غرفته ويقسمون انهم يسمعون احاديثهن وحتى كركراتهن تكذِّب الخبر، وترفع صوتها دلالة غضبها لإسماع جميع النزلاء": هذا بيت شريف. ما تدخله عاهرات ولا يدخلوه مأبونين".. وحين يهمسون في اذنها كلاماً فيه اصرار وبشكل جماعي عن مشاهدتهم له برفقة عاهرات ترفض كلامهم، قائلة: هذا شاب شريف ونزيه. كل واحد من النزلاء يمكن ان ينتهك شرف النزل الا بشير.

في السطح هناك بيتونة تحسبها أم سعاد غرفة يسكنها شاب تطلق عليه بليغ الفنان.. نافذتها تطل على حوش الدار..

الضوء القادم من النافذة يشي باستيقاظ بليغ حتى بعد منتصف الليل. لا يرى في النهار كثيراً، فالنصف الأول من نهاره يصرفه في معهد الفنون الجميلة وما بعد الظهر يرافق زملاءه، طلاب وطالبات يرتدون ملابس غير مألوفة تميزهم عن اقرأنهم ممن هم في المعاهد والجامعات. يميلون للسلوك البوهيمي ويتهيبزون كما الهيبيز في أوربا؛ يصرفون الوقت في حديقة الزوراء. يخرجون من باب المعهد فيعبرون الطريق؛ خطوات ويجدون أنفسهم امام باب الحديقة العريض. جوقةً من ذوي المواهب الفنية. مشاريع خلق وإبداع: فنون تشكيلية ومسرح ونحت وموسيقى. يتخذون المصاطب التي في الافياء تحت أشجار الكالبتوس الوارفة. يتحاورون بمصطلحات فنية مقرنين الكلام بذكر أسماء فنانين سيمونهم عظاماً: ديلاكروا وسيزان وماتيس وبيكاسو وكاندسكي، جايكوفسكي وموزارت؛ هاندل وباخ وفيفالدي، شكسبير وموليير وبومارشيه.. وإن حدث واقترح احدهم فكرة تغيير التوجه للزوراء يأخذون برأيه.

يصعدون باص المصلحة، مفضلين الطابق الثاني، حتى وان كانت مقاعد الطابق الاول فارغة (هكذا هم يغايرون عامة الناس في سلوكهم). يمر الباص مخترقاً الشواكة، ثم يعبر جسر الشهداء الى باب المعظم. ومن باب المعظم يترجلون

الى الوزيرية.. او يغيّرون وجهتم نحو الميدان متَّخذين شارع الرشيد درباً للتسكع، وصولا الى الباب الشرقي أو تواصلاً في شارع السعدون.. هنالك تتده عليهم اعلانات الأفلام فتتلقفهم دور عرض، الخيام أو غرناطة أو سمير أميس أو النصر أو بابل بعدما تسوح عيونهم على رفوف مكتبة المثنى والنهضة والتحرير.

لقد آثرت السكن في بيت أم سعاد كونه لا يبعد كثيراً عن دائرة عملي بضريبة الدخل في شارع الكفاح بعدما تنقلت في أماكن كثيرة شملت غرفة بيت بزقاق فرعي في منطقة راس الحواش بالاعظمية، وقبله كانت لي غرفة في فندق حلب قريباً من ساحة الشهداء جهة الكرخ. ثم بعدها شقة بغرفتين صغيرتين في طابق ثاني من زقاق يجاور سينما غرناطة في الباب الشرقي شاركني فيها طالب يدرس اللغة العبرية أحد اقسام كلية الآداب، لكن هذا الطالب (الذي كان غريب الأطوار ينام ليومين أو ثلاثة في سريره موصداً عليه لغرفة فلا اسمع له صوتاً ولم أبصره يخرج لعمل شاي مثلاً او قضاء حاجة) سرعان ما غاب ولم أشعر بوجوده إلا عندما جاء المؤجر ليطلب إيجار الشقة فأوضح لي ترك شريكي الدراسة وهجرته إلى ألمانيا وبذمته مستحقات ثلاثة أشهر كان يستميح العذر في تأجيل دفعها).. وآخر غرفة

حملت منها عفشي كانت في بيت بالعيواضية يعود لعائلة يهودية سُفِّرت في حملة التسفيرات الكبيرة بعد قيام إسرائيل. وظل ذلك البيت بلا إدامة ولا ترميم، فكانت حديقته الواسعة في الوسط مهملة تتناثر فيها الأكياس البلاستيكية وأوراق شجرة السدر الوحيدة وشجرتي البرتقال وأوراق متطايرة أخرى تأتي بها دوامات الهواء من الشوارع الفرعية للحي. وكثيراً ما تبرع أحد النزلاء وجمعها ووضعها في صندوق القمامة المركون عند الباب الرئيسي العتيق. الباب الذي يبقى طوال النهار مفتوحاً فلا يغلق إلا عندما يأتي عبدو المصري العامل في احد بارات السعدون بعد منتصف الليل فيغلقه طارداً كلاباً كثيراً ما كانت تدخل تتشمم في فضلات الطعام وقدور وصحون يتركها نزلاء الغرف دون غسل بسبب الملل مؤجلين الواجب الى اليوم التالي.. لعديد المرات كانت مياه الأمطار تتسرب من السقف حين تغضب السماء. عندها يستنفر المستأجرون جهدهم بتحضير اوان فارغة تستقبل القطرات الهاطلة من الأعلى. وحين يتسلل الماء من تحت باب الغرف يدرؤونه ببطانيات وأغطية؛ وحتى بقطع ملابس حين يتدهور الحال ويزداد عناد المطر في الهطول والدخول زائراً غير مرحب به.

رميت الكتاب على المنضدة جوار مجموعة ملفات

ملاّكي عقارات طلب مني أديب جرمانوس رئيس شعبتي في ضريبة الدخل تدقيقها في النزل، فالعام يوشك على الانتهاء واحتمال زيارة لجنة تفتيشية مفاجئة تأتي من وزارة المالية. غداً عليَّ الاستيقاظ والنهوض في الخامسة صباحاً لتدقيقها قبل ارتداء ملابسي، ثم احزمها تحت أبطي واخرج إلى مطعم تاجران ، أتناول صحن شوربة وأروح حاثاً الخطى إلى العمل. أترك ورائي معروف الرصافي واضعاً سبابته وإبهامه في جيب يلك بدلته بينما الحمامة التي استرعت انتباهي باتخاذها من زاوية مرفقه وساعده مكانا تحتضن بيضاتها في عش جمعت عيدانه من قش يكومه بائع الفاكهة المقابل لعيادة الدكتور أنور الأوقاتي. حمامة صار هاجسي اليومي مطالعتها حين مبارحتي النزل وعودتي من عملي؛ لا بل في كل مرة يصادف مروري في المكان. هناك ستستفهمني عينا جرمانوس قبل لسانه وهما تبثّان خشية أن أكون نسيت الملفات في مكان سكني أو لم اقم بتدقيقها.

حين بلغت غرفتي في النزل وضعت الكيس الورقي الذي حوى نصف كيلو عنب ديس العنز اشتريته في طريقي، وكيس فيه ربع كيلو معجنات من كعك السيد بعدما هتف السيد باسمي أثناء مروري في الجانب الآخر للشارع واقترح عليَّ الشراء دافعاً كعكة ساخنة ومحمصة: خذ من

راس الفرن، اجعلها عشاءك مع كوب حليب. اترك عادة أكل العشاء من المطاعم الغادرة.

آه، الغادرة!.. وأيُّ غدرٍ من ذلك الذي يطيح بصحتك ويهدر كيانك، فيتركك تتلوى؟!

حدثته كيف تغدّيت بالأمس سندويشة كبّة حلب مع شرائح باذنجان وبطاطا من كشك جاسم عفريت في مدخل الزقاق قريباً من بيت ام سعاد. تلك الوجبة البغيضة التي أحدثت مغصاً معوياً وسببت ألماً فضيعاً اضطرني الى ارتداء ملابسي والخروج الى الميدان، أأن وأتلوى.. ممسكاً بطني وضاغطاً على أمعائي.. أمام صيدلية يعقوب بهنام وقفت.. يعقوب الذي كلما مررت من امام صيدليته وطالعته تراءى لي انني أرى آينشتاين بصورته الشهيرة الذي يظهر فيها منفوش الشعر، رافعاً حاجبيه كشيفرة للتأمل او بادرة لإعلان اكتشاف.. الصيدلي يعقوب، الرجل الممتلئ، ذو النظارتين الطبيتين المدورتين والشعر المنفوش بصدريته البيضاء الناصعة متذمّرٌ دائماً.

أفضل شراء الدواء من غيره تفادياً لتذمره. لكن الاضطرار هذه المرة دفعني للوقوف أمامه. أخبرته وسط تلبية طلبات المرضى وهم يمسكون روشيتات امتلأت بشيفرات الأطباء عن تناولي السندويشة اللعينة... دفع بشريط "بسكوبان" فيه اثنا

عشـر قرصـاً صـغيراً علـى العارضـة الزجاجيـة وانهالـت مـن فمـه كلمـات غضـب لا يخـاطبني بهـا بـل كـأنمـا يتمـتم بهـا لنفسـه: سموم تمزق الأمعاء.. دهـون يعيـدون تسـخينها مـرات ومـرات.. ثـم رفع رأسه هذه المرّة وطالعني بغضب كأنـه يحـاكمني: كيـف يُصلَح هذا الخراب في هذا البلد اللعين!..

أخـذت الشـريط وتوجهـت لمقهـى "أبـو حليمـة" مـاراً بباعـة يفترشـون الرصـيف ويعرضـون بضـاعة مسـتعملة ورديئـة لا تستحق العرض والبيع مثلماً غبي ومجنون مَن يشتريها.

احـدهم عـرض دِلالاً برونزيـة مطعوجـة ومخلوعـة المقـابض أو خاليـة مـن الغطـاء، إلى جانبهـا سـاعات صـينية منضـدية فقـدت بعضـها عقاربهـا وبعـض بقّـع الصـدأ المينـا خاصـتها ففقدت لمعانها. ساعات كأنها جمعت من أزبال عكد الجام وقمامـة سـوق الهـرج. هنـاك محـابس فضـية وأخـرى برونزيـة بفصـوص أو بـرؤوس ملسـاء شُـدَّت بسـلك فضـي، فيمـا بـائع آخــر عــرض صــناديق قوانـــات ومســـجلات كرانـــدنك بالبكرات والأشرطة الممغنطة مع راديوات صندوقية خشبية فقد صوتها وكان عرضها لمجرد إثارة رغبة المتطلع لشـرائها لقدمها كونها انتيكات تستحق الاقتناء.. وهناك أيضـاً بـائع مجـلات اجنبيـة قديمـة بعنـاوين افرنجيـة "ذا مـدل ايسـت" و"أخبار لندن المصورة" و"المجلـة" البريطانيـة؛ و"ريـدر ديجسـت"

و"ساينتفك امريكان" الامريكيتان.. يسمح البائع بتقليب صفحاتها والاطلاع على محتوياتها ، وكان اغلب الذين يتوقفون مراهقين باحثين عن صور لممثلات خليعات تلتقط عدسة ذاكرتهم تلك الخلاعة الماجنة ليتخذوا زوايا بعيدة عن مشاهدة المارة يؤدون رهزاتهم على أجسادهن البضة وأعضائهن المفضوحة.

في المقهى أملأ قدح ماء وأدفع إلى جوفي عبوتين قبل أن أدس الشريط في جيبي، ثم أجلس قليلاً لتناول قدح شاي وأعود للنزل.

وأنا آخذ أول رشفة من الشاي وأرفع نظري ووجهت بهاتف غازي يدخل وحيداً بنفس الملابس وبالحقيبة الجلدية التي بدت أخف وزناً مما شاهدته يوم أمس في المقهى البرازيلية.. ابتسم لي إذ لمحني. فراسته عرفته بي مع أنه أبصرني لمرة واحدة ولوقت قصير. حيّا صاحب المقهى وشرب شاياً دفعت ثمنه.. قليلاً ونهض. فكّ رتاج حقيبته مظهرا ثلاث نسخ من كتابه. رفعها وتحرك ليروِّج بيعها بين جلاس اغلبهم طلبة كلية الهندسة والتربية والآداب في الباب المعظم.. طلبة يفضلون ارتياد المقهى لقربها من كلياتهم وحسن ترحاب ابو حليمة بهم.

عندما لمحني اتابعه، قال مبتسماً: لم يبق من بضاعة

اليـوم غـير هـذه النسـخ الـثلاث.. والتفـت لـيكلم جلاسـاً تناولوها من يده.

كنـت مـنفعلاً وحانقـاً لحظـة عـدت الى غـرفتي.. نويـت تعنيف جاسم عفريت وتهديده بالاتصال بصحة المنطقة لمنعه من البيع ومعاقبته لكن حين صرت على مقربة منه شاهدت ضجةً وسمعت صياحاً، تهديد ووعيد يطلقه جار أم سعاد. الجار يمسك طفلين يضغطون بأيديهم على بطونهم.. الرجل يصب الغضب كلمات محتقنة على جاسم، وجاسم منهمك في خدمة أطفال وفتية الزقاق والأزقة المجاورة كأن الكلمات لا تخصه، ولا أعار اهتماماً للغاضب.

كان اطفال الازقة القريبة يستلمون السندويشات ويشرعون بتناولها بنهم بعدما ينقدونه عشرين فلساً يتلقونها من امهات يتجنبن الانهماك في عمل الطعام داخل البيت ويفضلنَّ الوجبات الجاهزة لهم. فتية يستعذبون طعم الكبّة وشرائح الباذنجان وحبات الزيتون الأسود وقطع الطرشي: شلغم، وخيار، وثوم عجم، وورق لهانة وثمار قرنابيط مخللة تحتويها أواني بلاستيكية مع قناني كُجب وصاص.. تراجعت وأنا اتذكر العائلة التي يعيلها وعائلة اخته الارملة التي ترك لها زوجها السكير ثلاثة اولاد وبنتاً وصار يرابط في مدخل ملهى الامباسي من أجل صدقة يتلقّاها من الرواد

الـداخلين أو الخـارجين ليهـرع الى أقـرب بـار يكـرع بمـا تكومـت في يده مـن نقـود بيك أو بيكين مـن العـرق المسيَّح ليسـتمر في رحلـة سـكره وإدامـة ثمالتـه حتـى وجـد ميتـاً في زاوية خلف حاوية قمامة وقد انفلق رأسـه جـراء سـقوطه علـى حافة رصيف الملهى الجانبي.

في باب النزل رأيت أم سعاد تطالع الدرب على جانبيها.

وقبل أن أجتازها وأدخل الممـر القصير شبه المعتم وصولا للحـوش تفحصـتني بعيـنين متسـائلتين، مخمنـة تضـوري مـن ألم: "خير! مو على طبعك؟"!.. أخبرتها بما جرى فراحت تنهال بالشـتيمة الثقيلـة: أخ الكحبـة، كـم مـرة حذرتـه. الظـاهر كلامـي مـا فـاد ولا يفيـد.. كـم مـرة يجـي مفتشـين الصـحة ويقـررون يسـدّون الكشـك اللعـين لعـدم التزامـه بالشـروط الصحية؟، وأروح آني أتوسل بيهم حتى ما يعاقبوه. ولولا بشير رئيس فرقتهم يتجاوز الامر كان غلّقوه من زمـان.. كـم مـرة تسـبب بتسـمم النـاس؟.. يخـدعهم بريحـة العمبـة والطرشـي فيجـبرون آبـاءهم علـى عشـرين فلـس يشـترون بهـا سندويشـة البتيتة والبيذنجان."..

دخلتُ بينما اندفعت هي اليه تُعنِّفُه وتُعلِمه بما جرى لي.

****

في الصباح بعدما غسلت وجهي وفرَّشت أسناني واستدرت

عائداً لغرفتي لارتداء ملابسي والتوجّه الى دائرتي ووجهت بأم سعاد تلقي تحية الصباح.. تتفحصني وتسأل:

- "ها سامي، شلونك اليوم؟ امسح الشحوب من وجهك؟.. افطر بكاسة لبن ونص كرصة خبز بس. معدتك وأمعاؤك مريضتان من سم ابن عفريت."

شكرتها وخرجت.

في شارع الرشيد. واجهني الباب العالي والعريض المغلق المعمول من خشب الصاج لجامع الحيدرخانة. صف من الشحاذين رثّو الثياب؛ بعضهم معاق بعاهات العرج أو العمى أو الشلل النصفي يجلسون بهيئة تستدر العطف؛ وهناك من نام على قطعة كارتون سمراء كأنه لم ينم الليل بطوله. مررت من أمام نزل أم سهام كانت طلبت ايجاراً شهرياً وجدته مكلِّفاً مقابل غرفة كانت ضيقة ونتنه. شاهدت ثلاثة من طلبة الجامعات يخرجون منه حليقي اللحى وشعورهم لامعة بدهن البحّار بينما تفح منهم رائحة " ريفدور".. أمتار قطعتها قبل أن أدخل مطعم تاجران. هواء حار واجهني في المدخل، وروائح متشابكة لأطعمة فيها وخمة تتسلل من الفتحات المربعة التي يرفع منها العمال طلبات الزبائن. لم تفلح اعواد بخور مشتعلة وزعت عند المرايا على الجدران في تبديدها. طلبت قدح لبن ورغيف

خبز، متجاوزاً عادتي اليومية المتمثلة بماعون شوربة عدس وقدح شاي.

ابتسم العامل:

- "ها مريض، استاذ؟ نرجو أن لا تكون وجباتنا سبب خلل معدتك؟"

- "لا.. لا.. لو أني تناولت وجبة غدائي عندكم بالأمس لما حصل ما حصل.. مغص لعين يحاربني، صرفت الليل بلا غفوة."

تركني ليأتي بما طلبت، وتركته لأطالع الملفات التي ركنتها على الكرسي المجاور. أخشى من نسيان ملف سيجعل الأستاذ أديب جرمانوس ينفعل فتحمر عيناه وينهال على علبة السجاير حارقاً الواحدة تلو الأخرى فترتفع في دواخلنا نحن موظفو الشعبة الاربعة بيارق الاستنفار لتلقّي ارتباكاته، حتى إذا انتهت ساعات الدوام وأوشكنا على الخروج طالعنا بنظرات عطف أبوي وراح يردد عباراته التي حفظناها: "سامحوني انتم مثل: أدمون وألبير، ومريم، اولادي الذين اعزهم مثلكم."

الشهر الأخير من السنة استثنائيٌّ عندنا (أنا وفوزي جابر، البدين القصير القامة، المشرف على الستين والمقترب من سن التقاعد؛ وعباس أغا الأربعيني الذي يرتاح له جرمانوس

كثيراً لجودة خطّه وسعة باله، فلم يرَ يوماً غاضباً؛ ودائما ما يلتزم الحياد في النقاشات والمواقف المصيرية فيخرج عادة من معادلة التقييمات) . فأديب جرمانوس يستنفر جهده الخمسيني ويضغط علينا بمكابس الخشية من كلمة نقد تأتيه أو سلبية تؤشرها اللجنة التفتيشية عليه وعلى الشعبة ، هو الذي عُرِف عنه موظفاً جاداً وحازماً صرف اعوام الوظيفة حاداً وثاقباً يرى في العمل رسالة أقرب إلى رسائل الانبياء. فلا يشعر ونحن معه إلا بعدما تنهي اللجنة تدقيق الاضابير والسجلات وتدون زيارتها والملاحظات مشفوعة بتقرير بمثابة رأي قاطع لوزارة المالية عن العمل، يترجمه جرمانوس مريحاً ومشجعاً.

خلفت ورائي عربات باعة الفواكه والشاي السفري المتخذين من اعمدة الابنية سِدّاً، وكان عليَّ عبور شارع الجمهورية عندما أبصرت كاكه هوشيار بشرواله وقميصه وجراويته يحادث شاباً يبيع جوز ولوز وبندق وسّسي وبزر ابيض وأحمر وتين مجفف نثر عليه مسحوق النشا بكوشرات صغيرة في عربة بثلاث عجلات، يرتدي بنطلونا وقميصا وجراوية.. ابتهج كاكه هوشيار لمشاهدتي عن بعد فهتف: "كاكه سامي؛ هذا أخوي عبد اللّه. يبيع جرزات ويسكن وي عائلته بالفضل."... للحق أقول، لولا ثقل

الأضابير التي أحملها ودوام اسعى لعدم التأخر عليه لتوجهت نحوهما معلناً سعادتي بالتعرف على الأخ، لذلك اكتفيت برفع يدي محيياً فيما رفع هو يده ردّاً على التحية. وكانت روحه بسعة ابتهاج روح أخيه هوشيار.

في الشعبة سحب أديب جرمانوس انفاس الارتياح لمشاهدتي أجيء بالأضابير كاملة. زاد من ارتياحه عندما اعلمته بالانتهاء من مراجعتها وإكمال تدقيقها.. وتفاقم ارتياحه علوّاً حين طلب من فوزي جابر مراجعتها سريعاً ووجدها كاملة لا تحتاج لملاحظات تتطلب التصحيح.

فوزي.. وحياتنا بعد الخمسين

في الشهر الماضي وأنا اعود من حمل ملف سلمته لمسؤول شعبة دراسة العقود لفت انتباهي كتاب (حياتنا بعد الخمسين) لسلامة موسى على جانب من منضدة فوزي جابر. وسلامة موسى هذا من كتاب مصر المثيرين للجدل.. كاتب يحمل روح العصر ويؤمن بالمستقبل. يرى في خطوات الغرب نظرية مثلى لحياة البشرية، متأسياً على حياة يصرفها الانسان العربي مكبلاً بقيود متوارثة. لذلك سعى في كتب عديدة قرأتُ منها " فن الحياة ، و"الادب للشعب"، و"طريق المجد للشباب"، و"كيف نربي انفسنا"، و"الشخصية الناجعة" فأعجبني؛ مُكبراً فيه شجاعته وصراحته وصدقه

وحزنه على بني قومه.. كتب يحث فيها الانسان العربي على استنهاض طاقته بإشباع ميوله وتوجيه مواهبه نحو الخلق والبناء. وها انا أرى هذا الكتاب الحديث النشر، والذي كما يبدو استرعى انتباه فوزي فابتاعه ليدخل عالم حياة ما بعد الخمسين.

انتظرت خروج أديب جرمانوس لتناول فطوره في الكافتيريا فاستأذنت فوزي بتقليب صفحات الكتاب بعدما قدمت تعريفاً لمؤلفه ففهمت منه أنه هو الآخر متأثرٌ به. راح يثني عليه ويعلن اعجاباً بآرائه. دفعه لي وقال: خذه.. اقرأه ثم أعده متى انتهيت.. اشتريته لقراءة مضمونه فهو يهمني.. ها أنت تراني دخلت الستين.".. "فقط يوم واحد وغداً سأعيده اليك" قلت شاكراً وأنا اقلب صفحاته.

****

بعد التاسعة مساءً وبانتهاء سيجارة بقي دخانها سابحاً في فضاء الغرفة وقهوة جفت بقاياها في قاع الفنجان وإقفال الراديو على إذاعة لندن بانتهاء الاستماع لحسن الكرمي وبرنامجه "مَن القائل" رفعت الكتاب من المنضدة لأطرق أبواب الفهرست مستعيداً ملامح فوزي جابر وهو يعيرني اياه: غضون جبهته واسوداد ما تحت جفنيه الأسفلين وتغيير نظارات قراءته بزجاج أكثر سمكاً وارتعاش سبابته

والوسطى وهو يمسك السيجارة ليطعمها شفتيه وشعور أنه يدخل شيخوخة تقوده الى الشعور بالدنو من المنيّة.

"يجب أن لا نستقيل من الحياة".."الأوهام الشائعة عن الشيخوخة".. "مطبخنا يعجل في الشيخوخة".. "الهموم والاهتمامات"... ولأني ما زلت في مقتبل الثلاثين اقتنصني عنوان "جريمة الجمود". إذ ان عملي لخمسة اعوام مدققاً في مهنة صرتُ اتحسس رتابتها، وشعور بأن شهادة الثانوية لا تناسب مطمحي في حيازة مستقبل أترجم نفسي في اعوامه فاعلاً ومؤثراً حفّز لدي شعور القفز، خروجاً من رقعة الشطرنج... ذهبت الى الصفحة ٤٣ حسبما أشار لها الفهرست.

كنت على وشك البدء بقراءة استهلال الموضوع عندما تعالت في حوش النزل ضوضاء، هرج ومرج، صوت رجالي يتوسل وصوت ام سعاد معجون بكلمات تعنيف وعبارات سوقية: "هذا مو بيت مال فروخ.. هذا بيت شرف. شَرطي على المستأجر قبل ما اسلمه مفتاح الغرفة واسكنه بيتي أقولّه هذا بيت احسبه مثل الجامع لا سفالة تدور بيه ولا سرسرلوغيه "..

ما الذي يجري؟ ومن هو المسكين الذي سقط بين براثن ام سعاد وتتناهشه برصاص فشارها؟.. اسمع صوت جودي

يـدافع: "احنــه شمســوين.. هــذا صــديقي جــاي يســاعدني بالشغل.. قابل هاي جديدة عليك، يا أم سعاد".. "لا.. لا.. هـذا فرخ.. وينه هو ".. واستمر صوتها يزعق: "ها.. هـرب.. وينـه، يـا ناقص؟.. لو كان صديق ويريد يساعدك ما هرب.".

رميت الكتاب على السرير.. فتحت الباب، فإذا بجودي يقـف كـالمتَّهم أمـام أم سـعاد؛ وأم سـعاد تصـرخ بـه: - "عيـب، بـاقي بسـوالفك. اتـزوج وعـيش مثـل الـزّلم.. شـجابك لسوالف الفروخ."

هبَّ كاكه هوشيار خارجاً من غرفته بشروال عـريض وفانيلة قطنية نصف ردن. هب يدافع عن المتهم جودي بعربية متكسرة تؤنث المذكر: لا.. لا.. أم سعاد.. هـذي مـو فرخهـا؛ هــذي صــديقها. يوميــه اشــوفها تســاعده في البيــع بســوق الشورجة.".

قلـيلاً وانـبرى ألمـاز يعاضـد كاكـه هوشـيار في دفاعـه، ويقـول بعربيـة متكسـرة هـو الآخـر: أم سـعاد، ببم (أبويـه)، جـودي خـوش ولـد، مـا تسـوي شـين ولا قلبـالغ.. وينهـا، أوَّيـن الفروخ.".

كـاد ابـو سـتار الحمـال يتـدخل للـدفاع أيضـاً عنـدما صـرخت ام سـعاد: "هسـه كلكـم صـرتوا محـامين.. إلا اكلكم آني شفتهم عرايا.".

قليلاً والتفتت لي كأنها تكتشف وقوفي لأول مرّة:

- "ترضى باللي يجري، يا سامي؟.. قالت كأنها تستنجد بي للاصطفاف الى جانبها.. "بيت كل نزلائه شرفاء وملتزمين.. ". واستدارت ترشق جودي: ليش تلوثونه يا ناقصين الحياء؟"

تدلى نصف جسم بليغ الفنان من محجَّر السطح. كان هو أيضاً سمعَ الصراخ وكلمات التأنيب فترك غرفته ليطالع.. عندما عرف ما يدور هز يده استهزاءً ثم سمعناه يقول: هاي على فرخ مقلوبة الدنيا. العالم مشغول بأبولو ١١ والوصول للقمر وانتم مشغولين بفرخ.. وراح يردد بنبرة تمثيلية، رافعاً يديه الى أعلى كما لو كان على ستيج مسرح: يا أمّةً ضحكت من جهلها الأمم. ".. استدار وغاب.

رفعت ام سعاد رأسها وخاطبته مستهزئة:

- "خليك بأصباغك وخيالك يا فنان القمر."

ظلَّ جودي المسكين يتمتم بكلمات مهشمة وقد شحب وجهه وامتقع بينما كان المتحلقون حوله أو الواقفون عند أبواب غرفهم يبصرون أصابعه ترتعش كتعبير عن خجل من موقف لم يحسب له، ولم يدر بخاطره أن سيحصل بكل هذا التعنيف والتشهير.

تركته أم سعاد يجر أذيال الخيبة كما تقول البيانات

الحربية وخرجت قاصدة بيتها الذي يبعد ثلاثة أزقة وخمسة بيوت. هناك ستحدث ابنتها المطلقة التي تسكن معها وأحفادها الثلاثة الصغار عما حصل.

****

ظهيرة اليوم التالي..

وأنا ادخل النزل عائداً من عملي أبصرت غرفة جودي فارغة.

موجات غبار تندفع من الباب والنافذة. قليلاً وظهرت أم سعاد خارجة منها تمسك بمكنسة. توجهت بنظرة تبدد شيئاً من امتعاض ظننته يصدر مني جراء تصرفها الليلة الفائتة.. تفوهت تحاول التبرير: "مو آني الطردته.. هو ترك الغرفة بإرادته.. أمس بس ردت ما يكرر فعله الما حلو".. وبليونة واستعطاف:"شنسوي يا أستاذ، اذا ما أتصرف هلشَكل يصير النزل كرخانة.".

في الأيام التالية صرت أرى جودي عديد المرات بعربته عند مدخل سوق الشورجة. وفي صباحات الجمع كان يقف قريباً من جامع الخلفاء عند سوق الغزل حيث ازدحام المكان بباعة الكناري والببغاوات وطيور الحُب والحمام بأنواعه متداخلين مع باعة الدجاج والديكة الهراتي التي يعشقها هواة مسابقات ومراهنات الاقتتال؛ وباعة اسماك الزينة في الاحواض

الأكوريـوم الزجاجيـة، وكوشـرات مليئـة بالحنطـة والـدخن والحَب الشمسي كغذاء أساسي للطيور المعروضة.

مـرة لمحـني عـن بعـد فهـرع يرحـب بـي ويطلـب مـن شـاب مراهق يقف جوار العربة أن يـذهب ليـأتي لـي بقـارورة بيبسـي أشـربها عربـون محبـة دائمـة. كـان الشـاب يرتـدي بنطلونـاً وقميصاً ضيقين ويطيل شعره كأنه فتاة.

القيت التحية، وبود افشيت حزني على تركه النزل.

- "شنسـوي يـا اسـتاذ ، هـذي السـاقطة شـفتها شـلون هانتني؟!"

- "لا..لا!. أم سعاد امـرأة شـريفة. تريـد النـزل نظيـف ومـا عليه سمعة سيئة.".

- "شـريفة؟! ".. وضـحك ضـحكة مغموسـة بالسـخرية.. " سبع سنوات آني ساكن عدها. اعرف كل زواغيرها.".

- "يعني مو حقها؟".

- "فرخــي وافعــل بيــه بغــرفتي، لعــد ويــن آخــذة، بالشارع؟!".. قالها باحتجاج مغلف بتبجح.

كتمــت في صــدري ضــحكة. دهشــت لشــجاعته وصراحته.

- "هو هـذا؟".. تسـاءلت وأنـا اتوجـه ببصـري للمراهـق ذي الملابس الضيقة.

- "لا.. هذا غيره... ذاك من المستحه بعد ما شفت وجهه... لكن يا استاذ آني بس لو اعرف منو وشى بي وخلّاها تجي من بيتها وتفضحني."

بعد اسبوع من انتقال جودي وبقاء غرفته فارغة تذكرني بفضيحة حدث ما قلب الموازين لدي وجعلني استرجع مثلاً مصرياً سمعته كثيراً في الأفلام "يا ما تحت السواهي دواهي". ففي ليلةٍ والكل نيام، وفيما أنا منغمس في مطالعة موضوع (الصداقة في الشيخوخة) من كتاب حياتنا في الخمسين وأغوص غوراً في أنَّ "الحياة العريضة تحتاج قبل كل شيء الى الصديق الوفي الذي نشتاق الى حديثه ونألفه حتى نكاد نتفاهم معه وهو صامت" تراءى لي شبح امرأة بعباءة مرت من أمام النافذة. وصوت مفتاح يدار في باب غرفة بشير. نهوضي اطلعني على قوام اعرفه. ولكن من هو؟.. سريعاً أطفأتُ نور الغرفة ورحبتُ بالظلام من أجل مشاهدة مِن تدير المفتاح وتدخل غرفة بشير بلا طرقات أو نقرات.

لا أعرف لماذا قفز داخلي شيطان الفضول ونهض ليقودني على أطراف اصابعي. كانت نافذة بشير مضاءة ومسدل عليها ستارة ثخينة كجدار تحجب ما في الداخل. شيطان الفضول دفعني الى ثقب المفتاح الذي أدير وسمعت صوت دورانه.. انحنيت لأحدق غير محتسب لعواقب من يخرج من

غرفته فيبصرني في فعل مشين لن ينتهي إلا بمشكلة تتسبب بطردي وحكاية لا تنتهي على الالسن، ذلك أن الجميع سيعتقد، بل يوقن، أن تلصصي لا يقتصر على غرفة بشير فحسب انما يتعدى الى الغرف الاخرى، وقد يشك احدهم فيحسبني مخبراً سرياً يستحق اللعنة، وينظر لأولادي مستقبلاً بعين الاحتقار. مخبر مناطة لي مهمة متابعة وملاحقة النزلاء حتى في غرفهم. وعندها أستحيل منبوذاً لاسيما وسلطة البعثيين الجديدة خططت لبناء وجودها وديمومتها على العيون والعسس. سيصل الخبر الى أديب جرمانوس وعندها سيتطيَّر لوجودي معه طوال ساعات الدوام سيتهجس لكل نأمة تبدر مني أو كلام اتفوه به، سيقلق وسيتفاقم قلقه إلى هوَس ويصبح عصبياً لا يقوى على تمالك نفسه. خبرّت ذلك من زيارات لجان التفتيش وتدقيقهم في ارقام الحسابات مع أنه بنظرهم انزه محاسب ومدقق في دوائر ضريبة الدخل بعموم المحافظات... شيطان الفضول أبعد هجوم التخيلات السوداوية تماماً وجعل هدفي رؤية ما وراء الباب، عبر الثقب.. الثقب رشقني بما يشبه انفجار فرقعات من الدهشة والمفاجأة وتكذيب العين. الثقب كشف لي أم سعاد تجلس على سرير بشير المنتصب ببجامة من البوبلين المخطط بخطين أزرق فاقع وسمائي فاتح وقد

رمت العباءة على منضدة فوقها ساعة وصحف متراكمة. تجلس بثوب يليق بفتيات يرفلن على خميلة الشباب مع انها تدنو من الخمسين. ثوب وردي تناثرت عليه ورود دموية فائرة كبيرة كأنها على وشك سكب عصارتها الرحيقية العسلية.. حافة الصدر مطعمة بدوائر كلبدون لاصف. الثوب يكشف الصدر أبيض نثرت عليه البودرة ثم مررت الكف كي يستعير أعوام الشباب ويرسم شباك الفخاخ لبشير الذي كان مبتهجاً وهو يطالع وجهها المتجمل بالمرهم الطبيعي بينما الحاجبان سوداوان جداً، والكحلة تثقل الرموش.. يا إلهي!.. لا! لا!.. نهضَت؛ مال عليها بشير يطبع قبلة على خدها.

أوكلت هي مهمة للأصابع فك أزرار قميص بيجامته، ثم نزلت الى سروال تسحبه الى أسفل فيما جعل يديه ترفعان ثوبها الى اعلى ثم يسحبها الى السرير الذي يبتعد عن مدار ثقب المفتاح فيلغي مشاهدة بقايا الملحمة. انتظرت قليلاً عل السرير يرتفع بقدرة قادر فأشهد المعركة الايروتيكية.

كل الذي جنيته آهات كأنها الفحيح وهمهمات لمهرة وحصان جامحين وعودة الى غرفتي استعيد اللسان السليط والشتائم التي كالصخور وهي تنطلق من فمها تحذيراً مقروناً بالوعيد لكل مَن يمس بشير أو يشكك بسلوكه؛ لكل مَن ينتهك حرمة النزل ويحاول جعله كرخانة على حد قولها.

(٣)

استدراج

يقولون: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين".

فهل لدغتُ أنا ، على يقين أو افتراض أنني مؤمن، عندما وقفت عند كشك جاسم عفريت مرة ثانية وتناولت سندويشة باسطرمة مع اصابع بطاطا سكب فوقها صاص، مُصدِّقاً قسمه بالسماء والأنبياء والأولياء في أن ما يقدمه من سندويشات هذه الأيام صحياً والباسطرمة كنوع جديد مضاف تعاقد مع مصلاوي مسيحي نظيف يزوّده بها اسبوعياً سيعتمد عليه مستقبلاً، وأنّه تقبل نقد الآخرين فطبق تعليمات شعبة الميدان الصحية التابعة لوزارة الصحة فصار يغسل يديه بصابون الديتول و"اللايف بوي" ومطهرات يشتريها من الصيدلي يعقوب بهنام قبل أن يشرع بتقطيع الباذنجان والبطاطا والطماطة والمقبلات من الخس والجزر، وإنه لا يستعمل الزيت الذي يقلي فيه الباذنجان والبطاطا لأكثر من مرتين، ولا يترك ما يقليه عرضة للأتربة والذباب؟

وضع لي كرسي وقال اجلس، واسترح. قدمني على من

سبقني من الجائعين المتنافسين عنده، الذين يسيل لعابهم.. رائحة المقليات مثيرة للشم تشيع في الارجاء.. الرائحة أغوتني. اصابع البطاطا تتراقص في الزيت المغلي وشرائح وحش الطاوة / الباذنجان تعلو وتهبط مكتسبة لوناً داكناً فضلاً عن رائحة العمبة تشيع حولنا.

كان مذاق الباسطرمة لذيذاً والبهارات المغموسة بها تغريني في شراء سندويشة أخرى بعدما التهمت الأولى سريعاً.. كنت على وشك طلب ثانية وسط نظرات جاسم المستفهمة منتظراً إعجابي وتأييدي لما قال عندما تعالى نداءٌ في رأسي أن استثني جاعلاً هذه الوجبة اختباراً لتناول وجبات قادمة.

رفعت يدي وبحركة يؤديها الطيار لحظة الإقلاع إلى الفنيين المنتظرين على الأرض تشير لنجاح بدء المهمة انتصب إبهامي مقروناً بابتسامة ردها جاسم فرحاً: "ها، مو كتلك راح تعجبك.. اسويلك سندويشة ثانية؟"... قلت: لا.. شكرا، اكتفيت."

ومرة أخرى أهرع قاصداً الصيدلية متكئاً على أعمدة الرصيف الكونكريتية فأبدو كأحد المخمورين المدمنين الذين يقطب بائعو العرق في الميدان حواجبهم كتعبير عن نفورهم بعد حركات اقرب لحركات المجانين وكلمات

بذيئة يتقاذفونها في ما بينهم أمام محلاتهم أو على الرصيف المقابل.. اهرع بعدما أفرغت معدتي من خليطٍ بلون الفلفل.. الدكاكين مغلقة، محل كعك السيد فقط بمصباح أصفر يضيء الواجهة، مقهى أم كلثوم خرج منها آخر عامل وراح ينزل الكبنك ويحكم إقفاله بينما تمر سيارات قليلة قياساً بما في النهار حيث الضجة والفوضى والتزاحم من أجل الاجتياز.. هناك كان يعقوب بهنام يجلس على كرسي خيزران يطالع فولدر مصور لشركة تقيم معرضاً لإنتاجها الجديد من الأدوية وتتعهد للمتعاملين معها بصدق الإنتاج وفاعليته على المرضى. رفع رأسه. رمقني بنظرة خاطفة وعاد يقرأ. وكأنه حدس ما بي. ردَّد دون ان يرفع رأسه:

- "ها؛ رجعت أكلت السم من جاسم عفريت؟"

من بين طيّات الوجع، ويداي تضغطان على بطني تفوهت:

- "إي، خلّصني. هذي مو باسطرمة، هذي سكاكين تمزق مصاريني."

نظر لي بشزر، وكاد أن يشتمني لولا أنه تراجع في اللحظة الأخيرة خشية شعوري بأنه يجهز عليَّ بضربة قاضية تزيد وجعي وتقتلني.

وكالمرة السابقة التفت إلى الرفوف. ومن بين القناني الزجاجية والعبوات سحب علبة كارتونية، فتحها وناولني

منها شريط بسكوبان.. خلته سيصفعني كأب يؤنب ولده على فعلٍ نصحَهُ قبلاً فلم يأخذ بنصيحته.

- "خلّي في بالك الدوه من يتكرر على الجسم يفقد مفعوله. هذي المرة جزت. المرة الجاية اذا كررتها ما لك غير غسل المعدة في المستشفى.".. وبحدة وانفعال: "انتَ طفل وما تعرف شلون تتصرف؟.. نقول لكم أكل المطاعم سم. اطبخ طعامك بايدك بالبيت.".

المهم أني هرعت فدخلت على دكان بائع خمور ارجوه قدح ماء تساعدني في دفع حبّتين الى معدتي فالمقاهي مغلقة وليس غير دكاكين بيع النبيذ باقية تبيع لمن يرغب بصرف الليل في سهر على إيقاع خدر ينقله إلى جنة الأحلام أو الى جزيرة تبعده عن هموم اليومي؛ وليس غير دكتور جواد يتخذ من منعطف في شارع فرعي مكاناً عند اسمال متهرئة بمثابة فراش يتخذه مجلساً ومناماً ينتظر مَن يهبه او يتعطف عليه بربع عرق أو دراهم يواصل بها ديمومة الانسلاخ عن الواقع؛ دكتور جواد هذا أطاحت به الفلسفة بعدما أحبها وتعمق فيها ودرّسها لطلبته في قسم الفلسفة لكثير من الجامعات العربية فاردته صريع القلق وأوصلته الى حقيقة أنَّ الكونَ عالمٌ مبهم، وأنَّ كل ما يحيطنا سديم، وما نحن إلا مخلوقات تائهة في عدم، وما الدراسة والبحث إلا فعلان

عقيمان يوهمان ذوي العقول الفاعلة على المتابعة والتقصي غير مدركين هباء الفعل وغباء التحرك... حملقَ في وجهي وطالع قوامي ربما حسبني سكراناً. حين ترجم الجدّيّة في عيني سحب قدحاً فارغاً (يخفيه في زاوية عن السكارى الغثيثين الذين يطلبون قدحاً يسكبون فيه البيرة او العرق فيطيلون وقوفهم).. ملأه ماءً بارداً من ترمس كبير على مصطبة خلفه. اخبرته بما أكلت، فأطلق قهقهة فاقمت وجعي. وقبل ن أسأله عما أضحكه سألني:

- "لازم أكلت سندويشة من جاسم عفريت؟"

يا ربي! كيف عرف جاسم عفريت، ولماذا خمَّنه بالذات دون غيره؟

- "شلون عرفت؟!".. سألته وفي قلبي لوعة معرفة الرد.
- "نص رزق يعقوب بهنام من جاسم عفريت."
- "شلووون؟ ".. صرختُ مندهشاً، معيداً عيني الرجل

عندما رفعهما من الفولدر وهما تطلقان شرر اللوم والغضب عندما جئته في المرة الأولى وهذه المرة بشكواي.

وللحق أقول لم يكن يعقوب بهنام مرتاحاً وراضياً من مجيء نصف رزقه على رواد المطاعم كما يشير بائع الخمور. فقد كان الرجل وبغضب يتذمر بوجه كل من شكى له مغصاً أو قرأ روشيتات كتبها الأطباء لمرضى ووجدها تشير

لمغص أصابهم بسبب وجبات المطاعم.. لا بد أن بائع الخمور قالها من باب التفكّه والتندر.

عاد من جديد يملأ لي قدحاً آخر من الماء البارد؛ ويقدمه لي، ثم يقول:

- "جاسم عفريت كان من أصحاب السوابق. وياما وقع على دكّة دكاني هذا عندما كان يشرب بطل عرق كامل بربع ساعة."

وراح يُعلمُني أنه دخل السجن مرات ومرات. وأنهم فوجئوا به في يوم يطيل لحيته ويمسك مسبحة ويدخل جامع الحيدرخانة في أوقات الصلاة مبكراً ولا يبرحه إلا وهو الأخير، فظنَّ الناس أنَّ الرجلَ تاب للّه واتخذ طريق الهدى.. وهبه بائع كهربائيات كمرحمة إنسانية ضلعاً من دكانه جعله بمثابة كشك ما زال يعمل به منذ خمس سنوات وصار يعمل الوجبات السريعة. لكنَّ الغش طريقه والربح هو كل ما يفكر به. تراه بلسان رقيق مشفوع بآيات من القرآن وحكم نطق بها رسولكم الكريم أمّا في أعماقه فليس غير التصميم على الانتقام من البشر وقتلهم بالسم المداف برائحة السندويشات المثيرة للشهية.. هذا العربيد غاوي انتقام.

وبشيء من التعاطف خاطبني:

- "روح هسه للبيت وارتاح.. بس لا يقشمرك مرة ثانية."

شكرته عائداً.. مررت ببائع فاكهة وكرزات اعتاد على توقيت اغلاق دكانه مع اغلاق باعة الخمور لدكاكينهم، ذلك أن الفاكهة والكرزات هي المزّة القرينة للمشروب.. انعطفت شمالاً داخلاً شارع الرشيد.. من يراني أتلوى يخالني مخموراً.. لا ضير فالمترنِّحون كُثر، والمكانُ مرتعٌ للمدمنين.

دفعت الباب الرئيسي للنزل وكنت تركته كما لو كان موصداً. أغلقته خلفي ذلك أنَّ النزلاء يؤوبون مبكرين من جهد نهار كامل مثقل بالعمل... وفي غرفتي ارتميت على السرير لدقائق قبل خلعي ملابسي وارتداء البيجاما.

كان الألم فضيعاً.

الألمُ رسالةُ جسدٍ للبشري في أن يتعامل مع أعضائه بموضوعية؛ لا أن يركب عربة التمادي وينطلق صوب شهواته لاهثاً وراء كفوف الاغواء التي تلوّح له فتتركه غب مسافة يتعثر بندمه.

ولكي استرخي هارباً من سكاكين الألم التي تتراقص بأنصال التشفي نده عليَّ كتاب (سِفري وأسفاري) الذي تركته فوق ركام صحف اعتدت قراءتها قبل نوم القيلولة، ظهر لي هاتف غازي الذي اشتريت منه الكتاب صباح هذا اليوم مبتسماً بديلاً لكيرك دوكلاس الذي أحتفظُ بصورتِه

وهو بدور سبارتكوس وسط إطار خشبي محفور بالورود اشتريته من بسطيات الباب الشرقي.

تأملت أن تسحبني صفحات الكتاب من أرخبيل الألم تدريجياً، فأشعر وأنا أقرأ بتأثير عبوتي البسكوبان في تضئيل وجعي وزواله، وجعلي أتفرغ للقراءة بعميم جوارحي.

الصفحة الأولى بعد الغلاف تعرض صورة المؤلِّف شاباً لم يتجاوز الثلاث: وجهٌ عريض ومتورِّد خلا من الشاربين.

عينان تبتسمان؛ فوقهما حاجبان كثّان وغمازتان تحتلان وسطي خديه. ياقةُ قميصه الأبيض تلتصق على ياقةِ سترةٍ فاتحة اللون وتخفيها (لعل لونها كان رمادياً فاتحاً، فالصورة بالأسود والأبيض).. بقايا من ألق صورة الكتاب شاهدتها فيه داخل المقهى.

الاعوام سرقت الكثير من ذلك الإشراق.. الأعوام تركت له بصمات أو بقايا رجل يتكئ على ماض سكبه فوق وجه الصفحات.

كان الكتاب بثلاثة فصول وبعناوين فرعية كثيرة، وخاتمة اخذت منه عشرين صفحة. تهيج فضولي لقراءتها لكني تراجعت لئلا اقتل لذاذة حركة السرد وأبدد فعل الشخصيات وتنامي الأحداث فيصبح كل ما سأطالعه بارداً وباهتاً.

الفصل الأول حمل عنوان (اسطنبول.. الكسندرابولي).. الأسطر العشرين الاولى فجرت متعة القراءة في فضاء تتبعي فرحت احتسي نبيذ الكلمات صفحةً فصفحة.

لقد استدرجني هذا الرجل بفخٍّ سحره وطُعم بوحه فوارب أمام ذائقتي القرائية أبواب عوالم غريبة وتفاصيل دقيقة. قدَّم لي صوراً تكاد لمن يتعامل معها يخمّنها آتية من مدرج الخيال مع أن ما يكتبه خلاصة ذكريات كان هو شاهدَها والمُشارك في الكثير من جزئياتها. فهو لم يكتب رواية انما سيرة ذاتية وإن غلفتها عباءة اللغة بالسرد وضمَّخها الوصف بالشذا.

اسطنبول - الكسندرابولي

١٩٢٢ - ١٩٢٦

"وصلتُها باكراً، بعد خمسة أيام من ركوب السفينة مبحراً مع مسافرين كثر من الاسكندرونة التي وصلناها من حلب بعدما خلَّفنا جزر "ليمني" و"مدللي" و"ساقز" و"كريت". رحلة أهوال كانت فيها العواصف جيوشاً من غِلٍّ لا تعرف الرحمة، وتيارات هواء جليدية تضرب وجوهنا وتدفعنا الى الهرب من سطح السفينة الى عنابرها متحملين روائح زنخة لتمور مكدسة وتوابل كانت تثير فينا حمى

العطاس وحزم من الثوم المعلق في السقف يحاربنا بالرائحة الحريفة؛ هذا الى جانب جرذان تتقافز فوق حاويات فخارية لا نعرف محتواها وبعض تخرج رؤوسها من اكياس خيش لحبوب لوبيا وفاصوليا جافة محدقة بنا كأنها تتربص حيان فرصة قضم اطراف اصابعنا وارنبات انوفنا حين نسهو فننام دون الاحاطة بخطرها وفعلها الدنيء.. رحلة اعادت لي حكايات سندباد وابن بطوطة واكتشافات كولمبس وأمريكو وهم ينزلون أرضاً لم تطأها أقدامهم من قبل فيكتبون في مذكراتهم ما يشبه الوصف الخرافي والجغرافية التي لا تُرسَم إلا في الخيال؛ مغامرات علي بابا وعلاء الدين الذي كان جدّي يقص الكثير من مغامراتهما وهو يمرر اليد الخشنة على رأسي الصغير او يدخل أصابعه بين كثافة شعري الأسود الفاحم. وقتها كنت أحسب ما يفعلونه وما يجابههم من باب الخيال المضخَّم فيه الكثير من المبالغة، غير أن ما شهدته جعلني أمسك بشيء من الحقيقة لما تعرض له أولئك المغامرون العابرون البحار، المتجاوزون الجزر والخلجان.

للوصول رهبةٌ تشبه رهبةَ ملاقاةِ أحبّة راسلتهم عن بعد وضربت معهم موعداً للقاء دون ان تراهم مسبقاً، وها هي اللحظات تتهافت لتضعك وجهاً لوجهٍ إزاءهم.

لفظتنا السفينة وقد مدَّت سلمها الحديدي حتى استند طرفُه السفلي على ارضِ الميناء.

عند مضيق البوسفور، وعلى مرفأ تراصفت عند حافته السفن بصواريها العالية وأشرعتها المطوية كان نزولي.. الوقت ضحى والشمس تطرد غيوم بيضاء توحي بإشراق ونهار رائق. الحركة دائبة.. رافعات عملاقة تنقل حاويات حديدية ممتلئة ببضائع قادمة من موانىء "باري" و"نابولي" و"سان مارينو" الايطالية، أو مرسيليا وموناكو الفرنسيتين أو "كيركيا" اليوناني، أو "بوركاس" و"فارنا" البلغاريين، وعديد المؤانىء الأوربية من اسطح السفن لتضعها على ارض الميناء جوار مخازن تنتشر بموازاتها عربات نقل تنتظر حمل بضاعتها الى مدن البلاد.. شاهدتُ عمالاً تنوء ظهورُهم بحمولات هي أكياس خيش وصناديق خشبية عبِّئت بالبهارات الهندية والبنغالية، ثم صناديق خشبية خفيفة احتوت شاياً سريلانكياً يفضِّلُه الاتراك على أنواع الشاي الأخرى القادمة من اندنوسيا وسنغافورا وتايلاند والهند المترامية الأطراف، المتنوعة الإنتاج.. أكياس وصناديق ينزلونها من بطون السفن الراسية. كما شاهدت أكياساً وصناديق وعِدد تُحمل من فوق الأرصفة الى بطون سفن فارغة تنتظر الإقلاع. كذلك عربات تسحب بالات رتبت على

سطوح خشبية بعجلات تتَّجه بها الى المخازن.. رائحة سَمك سردين مقلي ترتفع من صفوف حوانيت تقدم خدماتها لجموع العمال والكوادر ومارَّة يفضلون صرف وقت على بحر مرمرة. عربات الربل تملأ الشوارع وطقطقات حدوات الأحصنة تسمع بوضوح.. العربات بُهرج بعضها وزُيّن لتكون مخصصة لتفريج السياح في جولة على حارات اسطنبول القديمة.

نصيحة جدّي ترن في أذني (لا تترك قدرك للغير؛ اصنعه بنفسك.. كن حرّاً وانهل من نهر الزمن ما تستطيع فليس أثمن من أن يكون الإنسان حراً.).. وكان قادر بيك مختار محلتنا في الدنكجية قَدَري الذي غيَّر مجرى حياتي، وجعل منّي رحالة يعيش البحث والتشرد، الحيلة والتواري.. قادر بيك الذي كان يجوب الشوارع. يخرج من زقاق ليدخل زقاقاً، ممسكاً بسجلٍ يضم أسماء أبناء المحلة من الشباب الذين دنت أعمارهم من سن الثامنة عشرة.. يطرق ابواب المحلة فتبدو كلماته كأنها طرقات عزرائيل التي تنذر بقبض الأرواح.. وكان عليَّ بعد ستة أشهر انتظار طرقات قادر بك لتبليغي بحضور جدي وأمي أن عليَّ الاستعداد خلال الايام القادمة للالتحاق بالخدمة العسكرية.. كان جدّي يردد بلغة تركية متقنة وهو يبصم بإبهامه الأيسر كوَلي

أمر لي على ورقة التبليغ" بيغي ترلادي.. بيغي ترلادي" اسمعه يتمتم بتذمر؛ ثم يحتقن ويحمر وجهه زيادة على احمرار سبَّبه ضغط الدم الذي ارتفع مع قراءة قادر بيك للمادة القانونية التي تشير لشمولي بالخدمة العسكرية والفقرات العقابية التي ستطالني في حالة التخلف.. "أأنا مجنون حتى اسلمك لوحدات الجيش كي يسومونك العذاب ويعاملونك كخادم ذليل؟! أمجنون وأنا اراهم يسوقونك الى حرب في اليمن او البلقان او اذربيجان؟!.. لن أعطيك بيدهم يوماً واحداً... وهيىء نفسك للسفر.. ارحل عن بغداد.. الرحيل يجعلك حرّاً".. ويعود يقول:" لا يوجد اثمن من أن يكون الإنسان حراً".

اسطنبول فتاة باذخة الجمال. أبصرُها تتباهى برونقِها ونقاء حلَّتها؛ أخذت من السماء صفة بهائها.. مدينة تعشق زرقة البحر وخضرة الوديان وكبرياء الجبال. وهبها سلاطين بني عثمان سحراً شرقياً اسلامياً؛ وزودها أتاتورك حديثا بهوية علمانية تُعلن فسيفسائها المُبهِرة.. رجالُها في أبهةٌ وعظمة بينما نساؤها على رفل وغنج.

وقفت على الرصيف. طويل ونحيل، منفوش الشعر أرتدي البنطلون والقميص وأقبض على حزام حقيبة ليس فيها غير بنطلون وقميص رديفين لما أرتدي مع فانيلة وشورت قطنيين،

وعـدة حلاقـة، وصـورتين لأمـي وجـدي، وورقـة سمـراء فيهـا عنوان كتبه الجد بخط يده وهو يوصي ابنته/ أمي بعد شهر من توقيعه تبليغ خدمتي في الجندرمة لحظة تناقصت انفاسـه وأوشـك علـى الرحيـل الابـدي. "ارحلـي الى اسـطنبول إن سـاء الحال.. على هدي العنوان ستلتقين أقارب لي فيوفِّرون لكما العيش هناك.".

أرفعُ يدي لعربـة اجـرة تقلُّني الى وسـط المدينـة؛ الى اقـرب سـوق.. هنـاك أكـون بـين النـاس. هنـاك اسـتطيع اسـتعطاف ذوي القلوب الرحيمة في إرشادي الى الطريق الصحيح بإيجاد عمـل يـوفر لـي العـيش بعيـداً عـن مخالـب البطالـة.. المـال في الغربة وطن كما يقـال. وهـا أنـا بعيـد عـن أمـي وبغـداد الـتي تركتهـا تعـج بالمسـحوقين والمهمشـين والسـكارى الـذين كـأنهم اكتشـفوا الطريق للجنـة عنـدما وجـدوا في الخمـرة ضالة تبعدهم عـن عجلـة الفقـر وهـي تسـحق اهلـهم وأقـاربهم وكـل الطيـبين الأنقيـاء والنظـيفين بينمـا المـال والجـاه بيـد المتحايلين الوسخين والمرائين وأصحاب الصفقات المشبوهة.. مـا معـي لا يكفيني. لـديَّ فقـط مهـارة لا تتعـدى الكتابـة، والكتابة في بلد غير عربي ولغة تختلف كلياً عـن العربيـة لا جدوى منها، بل هي مهارة معطلة.

مرت عربة فلم تتوقف؛ ومـرّت أخرى بمثلها، وأخرى لم

يرمقني سائقها حتى. وهكذا يئست، فحسبت أن سأقضي ليلتي في الميناء بين اكوام البضائع أو تحت هياكل سيارات الحمل الكبيرة المتوقفة بطابور طويل وبصفوف متعددة تنتظر دورها في حمل الحاويات والبراميل والبالات الكبيرة المكدسة بشكل خرافي على رصيف الميناء.

وكنتُ على وشك الاستدارة غير آبه لابتسامات الورود وطراوتها في الحديقة الصغيرة المسيّجة بسور حديدي مشبّك يعلو قليلاً عندما توقفت عربة متهالكة يعود موديلها الى بداية صنع السيارات؛ وسائقها الذي وراء المقود عجوز بطاقية سوداء ولحية بيضاء تداخل معهما الشاربان وقميص رمادي بأزرار بيض.. نطق بكلمات تركية لم أفهمها. فرحتُ أردد مستعيناً بالأصابع: اريد السوق.. بازار.. هوتيل.

مال السائق بجسده يميناً. مدَّ يده تفتح الباب: " غَل.. غَل." راح يردد. فهمتُ بعد ايام ان الكلمة تعني تعال.. انطلق بكلمات سريعة، فصرتُ أتمتم وفي قلبي غصَّة الهوَّة في ما بيننا كإنسانين: "ما افهم.. ما أفهم، يا رجل!".. طالعني السائق بوجه بشوش وابتسامه اوصلته الى قهقهة: ما تفهم.. ما تفهم؟.. وبشيء من السخرية أو اللوم: اربعمائة سنة كنا عندكم وما تعلمتم التركية؟"

بدهشة مَن يضع يده على كنز انطلقت كلماتي: يعني

انت تتكلم عربي.. الحمد للّه.

عاد السائق يقهقه من جديد كما لو انه يمازح طفلاً: "وشلون راح اتدبرها باسطنبول، وانتَ ما تفهم؟! ".. "اللّه يدبرها، وأهل الخير من امثالك.. خمس سيارات اجرة أشرّت الهن وما وقفن.. تعرف ليش؟ لأن اللّه يريد يدزَّك الي".. اهتزت لحية الرجل من القهقهة التي جاءت هذه المرة تملأ قمارة السيارة واكتشفته بكرش كبير شارك اهتزاز اللحية " هذوله ما شالوك لأن عرفوك انت أجنبي، موتركي. ويعرفون التعامل صعب ويه الاجنبي لأن ما يفهمون لغته. فما يطولون خلقهم وياه".

مررنا بشوارعَ عريضة وأخرى ضيقة ومزدحمة. اجتزنا اكثر من ساحة تتكاثف في وسطها اشجار السنديان الانكليزي واللاطي والمجري مع أشجار الزان الشرقي الضخمة. استدارت العربة على اكثر من ساحة مستديرة.. ومن بين البنايات العالية بالطوابق المتعددة المسقفة بالقرميد الاحمر كان البحر يظهر وتلوِّح زرقته بكف من طمأنينة أنَّ مركز المدينة لا يبعد كثيراً. هنالك لمحت عبّارات تحمل ركاباً، بعضها وسط البحر وبعض يقترب من الشواطئ؛ وقريباً أرى جوقة سياح من الجنسين ببنطلونات تعلو الركب حاملين حقائب على الظهر وهم يحثون الخطى."حين

شاهدني السائق الاحقهم بنظراتي قال:"يتجهون لجامع ايا صوفيا.. يحنّون لإرث اجدادهم.. فالجامع كان بالأصل كنيسة حولها السلطان محمد الذي دخل اسطنبول فاتحاً قبل خمسة قرون الى مسجد. يومها لم يكن هنا جامع للصلاة فصلى فيها على يقين ان سيصدر فرماناً بجعلها جامعاً.. اوصيك بزيارته.".

دخلنا شارع يزدحم بالسيارات وأبنية بيضاء طليت حديثاً. محلات بواجهات مزججة وأخرى مكشوفة تعرض واجهاتها بضائع متنوعة.. تلك افرشة قطنية وسجاجيد تتدلى من الأعلى، والى الجوار اجهزة راديو ومسجلات ببكرات وأشرطة وسماعات كبيرة مجهزة للحفلات والتعازي؛ يحاذيها محل موبيليا واسع داخلها يعرض أَسرّة وكناتير وكوميديات بمرايا متنوعة بيضوية ومستطيلة ودائرية مع انواع من الأرائك وأجهزة الجلوس الكاملة، ثلاثة محلات متجاورة تبيع التأسيسات الكهربائية وثمة مصابيح ونشرات ضوئية في الواجهة تشتعل وتنطفيء. مطعم صغير يبيع الأكلات السريعة من الهمبركر والنقانق يرتفع دخان الشحم المحترق وتشيع في المكان رائحة الشواء بينما جمع من صبية وفتيات يقفون طابوراً أمام عامل شاورما يرتدي صدرية بيضاء وقبعة اسطوانية بنفس اللون، يمسك سكينا

طويلـة يقطـع بهـا فتيلـة لحـم يهسـهس شـحمها بفعـل النـار، وينهمـك في ملـئ ارغفـة خبـز دائريـة بـاللحم المقطـع مضـيفاً فوقهـا السـلطة ثـم يضـعها علـى صـفيحة مـن الـورق النشـاف ويلفّها ويختمُ مهمَّته بـأن يسـلمها لـلأولِ الواقـف في الطـابور... على الرصيف رأيت عربـات تـدفع باليـد بعضـها فـارغ وبعـض فيها حمولـة يدفعها عمال يسيرون خلف متسوقين يتنقلون مـن دكان لدكان يقتنون بضـاعة جـاءوا مـن اجـل شـرائها. باعـة فواكه يعرضـون البرتقـال والتفـاح واليوسـفي وسـلال صـغيرة تحـوي مشـمش وكمثـرى وكـرز احمـر، يرفعـون اصـواتهم دعــوة للشــراء. علــى الرصـيف البعيــد مــرت ســبع أو ثمــان دراجــات هوائيــة يعتليهــا صــبية وصــبيات يرتــدون ملابــس كشّـافة كاكيـة اللـون: قمصـان وبنطلونـات قصـيرة وقـد التفت حول اعناقهم أربطة خضـراء وعلـى رؤوسـهم سـدارات ارتفعت من جانبها ريشة بيضاء طويلـة مقتطعـة مـن ريش بـط (شـاهدت ونحـن نتخـذ درجـات السـلم نـزولاً الى ارض المينـاء الكثير من البط يرحل افواجاً باتجاه الجنوب)... عدتُ أوجـه نظــري الى الرصــيف القريــب. كــان ثمــة مــارّة يســرعون مهنـدمين تـرافقهم نسـاء ببنطلونـات وقمصـان زاهيـة يحملـنَ حقائـبَ يـدٍ وقـد هفهـفَ شـعرُهن وتبـاهى بالأصـباغِ الاجنبيـة الـتي جلبَهـا في مـا جلـبَ كمـال اتـاتورك وهـو يـدعو الشـعب

التركـي للتطلّـع إلى الأمـام حيـث أوربـا المتحضّـرة والغـرب المتنـوِّر لا الاسـتدارة الى الـوراء حيـث العـربِ الجهلـةِ والأمـم المتخلفـة السـادرة في ديـاجير الظـلام.. يصـل عطـرُهن لجـوفِ العربة فأذكُر الرائحةَ المُقرِفة التي مسحت أمي وجهي بها في أحدِ اعيادِ الفطر يوم كنتُ طفلا وهـي تقول: سيحبُّك أعمامُـك عنـدما يشـمّون رائحتـك، انهـا رائحـةُ المسـك.. أي مسـكٍ ذاك الـذي يعيـد لـي حالـة الرجفـة والتقـزز كلمـا تذكرتها.

كان صباحاً مشرقاً، وكانت شمسُ الضحى فتاةً تنعمُ بالسـحر وتغـدق بهـاءً علـى اسـطنبول بإحيائهـا وشـوارعها وشـواطئها وأبنيتهـا العمرانيـة الحديثـة بأسـقفها القرميديـة الحمـراء وجـدران ابنيتهـا المعـرش عليهـا اللـبلاب صـعوداً الى شرفاتها واعلى نوافذهـا المسدلة السـتائر أو المشـرعة تسـتقبل طيـب الهـواء، بجوامعهـا ذات القبـاب الفيروزيـة الموشـاة بأغصان شجر وآيات قرآنية رسمتها المواهب الممتلئة والعيـون الفنية الحاذقة، والمنارات الشاهقة التي ترتفع كأنها تنتظر مـن اللّه بركاتـه لتنزلها عبر سلالمها الحلزونيـة الى المصلين الذين يملأون الفناءات غب نداء الصلاة ودعوة المؤمنين لـترك العمـل وإيقـاف البيـع.. جوامـع تلفـت الانتبـاه وتـثير في الـنفس رغبـة الـذهاب اليهـا والسـياحة داخلـها؛ جـامع الفـاتح، جـامع

السلطان احمد، جامع السليمانية، جامع شهرزادة جامع لاللي، جامع رستم باشا. منارة بايزيت والمسلة الفرعونية؛ قصر ياباتان وقصر طوبكابي... أشجار السنديان والدردار الناعم الأوراق وأشجار الحور الابيض التي تتخذ من الأرصفة وبفارق مسافات متساوية ومتقاربة تهب المارة ظلالاً محببة وجميلة؛ فليس غريباً إذاً من وجود المصاطب تحتها لمن رغب في الجلوس؛ وليس غريباً أن ترى الشيوخ ممن أراد الشبع من الدنيا بما فيها من كنوز الجمال والمتعة يجلسون وهم يبحلقون بالمارة وقد خلعوا سترهم وتركوا عصيّاً يتعكزون عليها على جنب ليسبحوا في خثرة الهواء وطراوته.

خلّفنا حديقة تتوازى فيها شجيراتُ مطاطٍ طرية الورق مع ارتفاع سياجِها الحديدي المشبَّك. ابصرتُ صبية يتأرجحون بأراجيح منصوبة تواً وقد تاهوا خيلاءً، مُحلِّقين في الهواء يمسكون بالسلاسل مطلقين الضحكات.. قهقه السائق كأنه يسخر أو يتظاهر بالفكاهة: هذي من بركات كمال اتاتورك.. ضحك فجعل لحيته تحتك بصدره: يقلِّد الغرب فيجعل الأطفال في الدرجة الأولى من سلم البناء الاجتماعي من ناحية الرعاية والاهتمام؛ ثم تليهم المرأة. ". قهقه من جديد وراح يضرب بقبضته على المقود ضربات عديدة قبل ان يتمتم: "يلله، ما علينا.".

انعطفت العربة يمينا فدخلت في شارع؛ يمتد على شماله مد مائي. قال هذا مضيق البسفور. سنتوقف عند فندق مناسب ورخيص، يمكنك من عنده المشي خطوات لتصل البازار الرئيسي. هناك تقدر تشتري ما ترغب وفي درابينه الفرعية مطاعم رخيصة تقدم أكلات مثل اللي تاكلها ابيتكم، تمن ومرق وتشريب وشاورما؛ وحتى باجة."وأطلق مرة أخرى قهقهة فعادت لحيته البيضاء تهتز.

عند باب الفندق الذي يحمل لافتة تصدَّع طلاؤها توقف. قال هذا فندق مرمرة احفر اسمه براسك حتى لا تتيه؛ فإسطنبول مدينة كبيرة، أربعة أضعاف مساحة ونفوس بغداد"،. هبط من السيارة وتقدم بقامته القصيرة الممتلئة وأنا اتبعه. ارتقينا اربع درجات عريضة شكلت واجهة الفندق بعارضته الزجاجية ودخلنا عبر باب واسعة بطلاّقتين. ألقى التحية على الجالس خلف عارضة بيضاء من الفورميكا. كان صاحب الفندق بعمر السبعين وبنظارات سميكة فوق أنفه الصغير. على رأسه طاقية خضراء داكنة وله لحية بيضاء تشبه لحية السائق. يرتدي سترة رمادية وقميصاً أسود تدخل جيب سترته سلسلة طرفها مرتبط بحلقة في ياقة السترة اليسرى لساعة جيب دائرية كالتي كنتُ أراها عند شيوخ بغداد والمتنفذين يطالعون الزمن ويقيسون تحركهم

من خلالها. استقبلنا الرجل بتحية مغموسة باهتمام. فوقه كانت صورة مزججة لأتاتورك؛ وعلى اليمين صورة مستطيلة بطول متر وعرض نصف متر يمثل بحر مرمرة فيه الزوارق تجوب المياه الزرقاء؛ وخلف البحر أبنية متعالية سأكتشف حين أطل من شرفة غرفتي بعد وقت أنَّ الصورة التقطت من الشرفة نفسها.

كلمَّ صاحبَ الفندق وهو يرفع كفه ويضعها على كتفي يوصيه بي. أعلمه بحالتي و عدم معرفتي بكل شيء.. رحب الرجل وهو يخفف من مطالعته وتركيزه.. فهمت ايضاً انني سأكون تحت رعايته، وسيلبي طلباتي برحابة صدر.

استدار الى لوحة المفاتيح. رفع مفتاحاً من حلقة تجاورها حلقات تتدلى من بعضها مفاتيح لغرف تخلو من النزلاء. دار ليخرج من خلف العارضة. مشى الاثنان أمامي. قليلاً واستدار السائق يهمس بأذني: أوصيته على غرفة نظيفة تطل على البحر.. من تضيق نفسك افتح الباب واكعُد بالبلكونة، متَّع نظرك بمنظر اسطنبول اللي قدّامك.".

دخلنا رواقاً ضيقاً بنوافذ تغدق عليه ضوءً فتظهره مضاءً بلا مصابيح. كانت الجدران بيضاء والأرض بالموزائيك الأسود المطعم بنقاط بيضاء وكانت حافات الممر بالموزائيك

المشجر ما يصنع ايحاءً للناظر انه يسير على سجادة مستطيلة على طول الممشى.. توقف الرجل عند باب أخضر فاتح مشوب بالبياض وبطلاقتين. دس المفتاح في الثقب وراح يديره مرتين ويدفع. انفتح الباب على مصراعيه. كان على اليمين سرير حديدي بفراش سميك وشراشف بيضاء؛ وعلى اليسار كوميدي له مرآة مستطيلة ومنضدة فوقها شرشف سمائي طعَّمته ورودٌ مُحاكة يدوياً بخيوط زرق داكنة وكرسيين خشبيين. انتبهت الى أن ثمة دوي وذباب كثير يحوم الى درجة رفعت يدي ألوح بها لطرده.. تمتم الرجل بجزع ثم استدار للسائق يشكو: هذا الرجل لا يستحي ولا يتعظ؟.. "مَن؟! " سأله السائق باهتمام.. " مربي النحل.. في حديقة بيته خلفنا.. ترجيناه ولم ينفع، شكونا للحكومة؛ التزم لأسبوع واحد. نقل منحله بعيداً ثم أعاده من جديد... ولأجل طمأنتي ابتسم: لا يضر.. اقصد لا يلسع، اطمئن.. تحرك للخزانة. فتحها فكانت بقسمين أحدهما لتعليق الملابس والثاني مقسم الى ثلاثة حقول وجارور. أشار الى الحقيبة التي لم أكن قد خلعتها من كتفي منذ نزلت في الميناء: "علق ملابسك في الخزانة.. هنا.".

نصحني صاحب الفندق بالنوم مبكراً، ووجهني السائق الى ضرورة الانتباه لنقودي من اللصوص. "مثلما في المدينة

تقاة وورعون فيها أيضا لصوص ومتحايلون.".

عشاء يومي الأول كان من مطعم سَفري يبيع السمك على الرصيف المطل على بحر مرمرة حيث الناس تتخذ من الحافة المرمرية المكونة سياجاً عازلاً، يتناولون شرائح السمك المقلي يسلمها لهم البائع على ورقة سميكة مع قطعة خبز أو بدونها بلذة وشهية تشي بها عيونهم النهمة، ثم اذا انتهوا وضعوا الورق السميك في برميل للقمامة أو رموا به إلى البحر.

بعد جولةِ ترجُّلٍ وعينٍ تتابع بشغف واندهاش رجعتُ الى الفندق.. التعب استنفذ طاقتي فشعرت بالانهاك، لكنَّ الغرفة كانت رحيمة. وهبني فضاؤها الهادئ حال دخولي فسحة للاسترخاء، أمّا السرير فكان نداؤه أن أرتمي فأغرق في محيط النوم ساعات وساعات... وفعلاً، كنتُ على وشك الارتماء دون أن أخلع ملابسي عندما تذكرت أمّي وتأكيدها على ارسال رسالة حالما أصل مكاناً جديداً، مدينة أو قرية أو بلاداً كي تنام على وسادة الطمأنينة، بلا قلق، ولا هواجس.

صرفت وقتاً أكتب بما يجعلها تتهادى على خميلة من الارتياح يوم تصلها رسالتي ويقرأها الشيخ حمدان رفيق جدي في رحلته مع الزمن وهما يلتقيان. اذكر صباح احد

ايـام تشـرين كـان جـدي يطـالع بشـوق سـاعة القشـلة الـتي نصـبها يومـاً وعـاش مـع تكتكاتهـا ونشـاطها الآلـي المعتـاد بينما كـان الشيـخ حمدان وراء منضدة خشبية عتيقة يكتـب العرائض والرسائل جوار مبنى الحكومة.

في الصـباح وعلـى هـدي دلالـة صـاحب الفنـدق ذهبـت الى دائـرة البريـد بعـدما عـبرت الجسـر واسـتدرت يمينـاً وحسـبت عشرة ابنية عالية كما قال لي واجتزت دار سينما ثم دكـان جزارة ليهودي ترتفع لافتته "جزارة شلومو"، ثم تركت خلفـه متنزهاً صغيراً حتى وقفت عند درجات صعدت بي الى ثلاثة ابـواب عريضـة يـدخل ويخـرج منهـا النـاس بعضـهم مسـرعين وبعـض يتـأملون او يراجعـون بشـيء مـن الـتفكير فيخطـون خطوات بطيئة. في الداخل اشتريت طابعاً وألصقته على صدر المظروف الازرق ورميته بناء على هدي اناس شاهدتهم يرمون مظاريفَ مشابهة في فتحة افقية على الحـائط، كُتِب فوقهـا حرفان افرنجيان **P.O**.

تركت دائرة البريد هابطاً من درجات ارتقيتهـا قبـل قليـل مسـترجعاً فحـوى مـا كتبـت: "أمـي الغاليـة: لقـد مـنحني اللّٰه رحمته وحمايته بسـلامة الوصـول، وهـا انـا اليـوم اكتـب لـك من اسطنبول، وبالضبط مـن الفنـدق الـذي اقضـي فيـه لـيلتي الأولى.. اطمـئني يـا أمـي. أنـا بخـير. مـا احتـاج اليـه دعواتـك

للحصول على عمل ولا أظن اللّه سيخذلني."

في اليـوم التـالي كنـت راحـلاً في سـاعة قيلولـة عنـدما طُرقت الباب.. من ورائها تناهى صوت السائق يسـأل: نـايم لـو كـاعد؟".. سـؤال صـاحبته قهقهـة.. إنـه يحسـبني كـالتائـه في محـيط لا يـرحم ومجتمـع ملـيء بالمحتـالين واللصـوص كمـا حذرني. "كـم رؤوف هذا الرجل، وكـم رحيمـة هـي السـماء إذ لم تتركني في التيه.".

نهضـت سـريعاً. كـان وجهـه الضـاحك وقامتـه القصـيرة الممتلئـة همـا مـا واجهـاني عنـدما فتحـت البـاب. دخـل منـدفعاً وهـو يـتفحص ان كنـت غـاطـاً في النـوم فعـلا أم مسـترخياً.. قـال: " يللـه. اغسـل وجهـك والـبس ملابسـك حتـى نخـرج. راح آخذك بجولة في اسطنبول، وعلـى حسـابي.. أنـت ضيفي مثـل مـا كـان العراقيـون يضـيفوني." توقـف تاركـاً لـي فسـحة الدخول الى الحمام وغسل وجهي في المغسلة... عندما خرجـت وجدته منتصباً في البلكونة يطالع زرقـة بحـر مرمـرة ويـنعم بـالهواء المشـوب بضـباب ثلجـي. يطـالع الـزوارق الـتي بمثابـة باصـات تمخـر المضـيق، ويختـات هـي مطـاعم عائمـة تخـدم الرواد وخصوصاً السـائحين الـذين يبصـرهم يفضـلون دخولهـا وتنـاول مـا يعجـبهم ويـروي عطـش فضـولهم مـن وجبـات ومشروبات روحية تسـاهم في تفاقم المتعة والجذل في نفوسهم.

ذكّرني هذا المنظر بأجواء بغداد اللاهبة والريح السموم التي تلفح الوجوه وتُجبِر الناس على الهرب والالتجاء الى بيوتهم حاسدين اليهود في قنبر علي والميسورين الذين ينشئون سراديب وباتكيرات في بيوتهم تلطف الجو فتأتي بالهواء البارد الرطب، وتجعلهم ينسلخون عن الفضاء الخارجي حيث الفقراء يتساوون مع حمير العربات وأحصنة الربلات ودواب الأرض السارحة بهدى او بغير هدى في تلقى جنون الشمس والتعامل مع فحيحها.

أسند مرفقيه على سياج البلكونة الحديدي وصارت اللافتة الحديدية التي تعلن اسم الفندق وعام تأسيسه في السنة الثالثة من القرن العشرين وإشارة وجود جناح خاص للعائلات تحته بمسافة ذراع.. طأطأ رأسه ليطالع الشارع أو لينظر الى سيارته المتوقفة في الجانب الثاني مقابل باب الفندق ثم عاد يكلمني لحظة كنت أمرر المشط على شعري وأنظر في المرآة بجانب الباب لأنهي آخر نظرة على تكامل قيافتي.

- "آ، نسيت ان اسألك عن اسمك؟".

- "اسمي هاتف غازي، من محلة الدنكجية.. وأنا نسيت ان اسألك؟"

قهقه الرجل قهقهته المعهودة.. هستوّك ذكرت.. اسمي

توركوت أوغلو.. وفي بغداد كانوا ينادونني تُركي. انت هَم ناديني تركي.

سألته والدهشة تتفجر داخلي: يعني أنت عشت في بغداد؟.. شوكت؟!

- "تعرف!"، وأدار وجهه يطالعني ويعود يراقب الطريق."عملت مشعل مصابيح في دار الحكومة. وقتها كان عمري ٢٢ سنة؛ وكنت سعيداً بعملي.. عملي كان يقتصر على تنظيف الفوانيس في النهار واعادة تعليقها واشعالها في المساء داخل اجنحة بناية القشلة وعلى محيطها الخارجي قبل ان انقل الى دائرة البريد هنا في اسطنبول.

وكما لو أنه تذكر شيئاً مهمّاً يخصني انطلق بالسؤال:

- "تعرف وين اتصير دائرة البريد هنا؟!".

قلت انني اهتديت اليه من توصيف صاحب الفندق.. أخبرته أني بعثت منه رسالة الى اهلي في بغداد.

ابدى ارتياحاً للرد؛ وعاد يواصل كلاماً:

- "آه بغداد!.. آه الرصافي والزهاوي، عبد المحسن الكاظمي، الحلاج وابن عربي، عنترة والبحتري والمتنبي، البساتين والنهر، ابو العلاء المعري وابو تمام وابو نؤاس، المقاهي والدواوين والحانات.. آه بغداد!."

استدار فوجدني منهمكاً في إعداد نفسي.. عاد يتكيء

على حافة البلكونة مواصلاً حديثه كأنني أمامه:

- "تعرف يا هاتف، بغداد خذتِ الكثير مني، واعطتني الكثير.. أخذتِ ولعي وهيامي ودهشتي. أهدتني حب القراءة وحضور المجالس الاجتماعية والتعرف على رموز فتحوا قدّامي بيبان من المعرفة وفهم الحياة. ولو كنت بقيت فيها لكنت رمز مهم. مجالس بغداد تصنع من الانسان شخص خلاّق."

ثم بحسرة أطلقها طويلةً:

- "يا لاسطنبول التي اضاعتني!"

- "لا، لا.. لا تندب حظك يا عم.. اسطنبول مدينة جميلة وانت ما شاء الله تملك ثقافة عالية. معرفتك بهذه الأسماء خلتني اكتشف انك رمز معرفي.. لا تبتئس."

ضرب بقبضته على سياج البلكونة، واستدار ليجدني اكملت ارتداء ملابسي وتهيأت للخروج.

ترجَّل أمامي فيما أُوصدت باب الغرفة وأدرت المفتاح مرتين قبل سحبه، وعندما استدرت كان قطع الممر ووضع قدمه على السلم الملتوي. لحقت به فوجدته يقف بمواجهة مرآة طويلة في الصالة. سمعت القهقهة قبل أن أراه يكلِّم شاباً يجلس بمكان صاحب الفندق. لم يكن صاحب الفندق هناك.. كان الشاب يطالع العناوين الرئيسية

لصحيفة "الجمهورية" لسان حال حزب "الشعب الجمهوري التركي" الذي يرأسه كمال اتاتورك ويقلّبها كأنه يبحث عن خبر أو موضوع يسعى اليه.. أوصاه السائق بي وربت على ظهري تعبيراً عن حميميته. رفع الشاب وجهه من الصفحات وابتسم لي، ثم ركن الجريدة جانباً ونهض من كرسيه يتسلم المفتاح ويستدير ليضعه في المسمار المخصص بعارضة مفاتيح الغرف مردداً ما يريحني ويلبي كامل طلباتي.

هبطنا الدرجات، وعبرنا الشارع.. وكنت أجلس الى جانبه. صوت مرحه ينطلق بترنيمة أعرفها وأرددها ، لكنني لا أعرف قائلها : "بغداد مبنيّة بتمر؛ فلّس واكل خستاوي".. وراح يقهقهه:" يا لروح دعابتك يا ملا عبود." وأدار وجهه لي "كل كلامه فكاهة.". ثم عاد يوجه مقود السيارة ويتفادى سيارة مسرعة ضيّقت عليها سيارة مواجهة "ذبيت روحي على الجرش، وادري الجرش ياذيها / ساعة واكسر المجرشة والعن ابو راعيها //.. وراح يحاول تكملة القصيدة، حتى أذا عجز أخذ يردد :"آه لعن الله السنين "وتنهد تنهيدة طويلة" ذاكرتي شاخت؛ جنت حافظ القصيدة بطولها وبعرضها.". مد يده الى الراديو؛ ضغط على زر التشغيل وجعل اصابعه تدير مؤشر المحطات يبحث عن محطة تشبع نهمه في اغنية يترنم بها ؛ فلم يوفق.

صارت القهقهة المرحة واهتزاز الكتفين هما ما يميزانه عندي.. نعم! لكل شخص شيء يميّزه.. كان جدّي الذي بعمر السائق قبل أن تهجم عليه الحمى وتمهله اياماً قليلة للعيش يتميز بما يمكن ان يُقال عنه عادة ليس بوسعه الفكاك منها.. فحياته التي صرفها رفيقاً لساعة القشلة ومات وهو يوصيني بعدم الاستهانة بالزمن مليئة بالوصايا.. احدى وصاياه ضرورة التعامل مع الزمن يومياً معاملة تاجر مع بضاعته. كم صرف وكم استفاد، ما الذي خسره مجبراً وما الذي اضاعه بجهله وغفلته.. تعامله مع الزمن يجسده بتعامله مع الساعة: اشتغالها المستمر بلا توقف، تركيبها الميكانيكي، منظرها الجميل، صوت تكتكتها، رنينها المدوي كل ساعة مقروناً بالدقات التي بعدد ساعات اليوم.. عشقه لساعة القشلة تجاوز عشث كل ساعة رآها سواء كانت جدارية او منضدية او يدوية.. يعيش الولع والوله، حتى انه لا يرغب في صرف ساعات راحته وأيام عطله إلا أمام واجهات محلات بيع الساعات المتناثرة في شارع الرشيد، ولا يجلس إلا مع مصلحيها الذين كانوا يرحبون به طمعاً في حل إشكال عويص لساعة يؤتى بها أو إجابة تتجسد باحتمالات تفضي في النهاية الى إصلاح الساعة وتقديمها لصاحبها تعمل بدقة، بلا زيادة او نقصان.

صرفنا بحدود الساعة. ساعة وهو يجول بي. وكل حي او ساحة او مَعلم بنائي مهم يردد اسمه.. مررنا بأحياء وحدائق، أسواق وجوامع، متاحف ومحطات ترام، جسور وقصور، ميادين وأبراج. جمبرلي طاش والحوانيت المتراصة التي تبيع المعاطف والسترات والقلنسوات والقفازات الفرو والاحذية القطنية المحاكة يدوياً؛ وآق سراي المحطة المزدحمة بعربات الربل التي تنقل المتسوقين الى الاحياء البعيدة حيث يسكنون؛ والخاصكي بمقاهيه الكثيرة اللافتة للانتباه وروادها وهم يمتصون دخان النراكيل ويتيهون على خدر تبغها الهندي المستورد؛ ومحطة السركجي.. نسمع نفير القطارات وهي تنطلق منها او تأتي اليها.. أخيراً أعادني الى عتبة الفندق، وخاطبني دون ان ينزل "راح أغيب أسبوع او أكثر. عندي سفرة لأولادي. اشتقت لأحفادي في بنغول شرق البلاد.. تدري! آني كردي تركي.". رددت بما لا يثير دهشتي: تشرفنا.. ابتسم هذه المرة ابتسامة عريضة ولم يقهقه. وتحرك رافعاً يده يلوح بها. لوَّحتُ له وفي قلبي انبثق ألم فراقه إذ كنتُ أُمنّي الروح بقضاء هذا الاسبوع بتعريفي بأماكن كثير اجهلها حتى لو كانت جولاتنا راجلة ، ولمت نفسي لأنني لم أظهر له ورقة جدّي ليدلني على العنوان مثلما لمتها على عدم تكليفه بايجاد عمل لي.

في منتصف الليل استيقظتُ على هدير اصوات بشرية، هرج ومرج، ذكّرتني بالأصوات التي تتعالى في سينما الزوراء في بغداد عندما كان مشغّل الفيلم يقطعه فجأة جرّاء مشهد فيه قُبل وعناق وحمحمات وبوادر تعرية لممثلة ساحرة تتلوى بغنج.. تلك الليلة نهضت لأستشف سبب الهدير والزعيق. تركت السبب؛ ومن البلكونة تطلعت، فأبصرت جمعاً من الشباب يتمايلون محاولين التشبث بأعمدة الكهرباء وجذوع اشجار الرصيف خشية السقوط وهم يلاحقون امرأتين ترتديان قميصين هفهافين وتنّورتين قصيرتين، يطقطقن بأحذية عالية الكعوب وقد تدلّى شعرُهُنَّ الأشقر والتمعت وجوههن جراء الأصباغ بتأثير مصابيح الشارع. تمشيان بعجيزتين تتكلفان بجعلهما تهتزان فيهتز الجسدان ومعهما الحقيبتان المتدليتان من كفيهما. عبرتا الشارع صوب الفندق، ثم غابتا عن ناظري فلم أعرف إن كانتا دخلتا الفندق أو واصلتا السير. لكن الذي عرفته هو ان الملاحقين لهما وقفوا أمام الفندق وصوت يتكلم معهم بحدّة ويتوعدهم بكلمة بوليس. إزاء ذلك انفض جمعهم وتفرقوا فعاد الصمت يلف الشارع؛ وعدتُ أنا الى فراشي لأواصل النوم.

صار هذا المشهد يتكرر يومياً.. وصارت الحيرة تلفني. لم

أمتلك الشجاعة لأسأل صاحب الفندق ولا ولده الذي يستلم الإدارة بعده من الصباح حتى العصر خشية ان أواجه بما لا يرضيني. وظل السؤال يشكّل حيرةً ولغزاً انتظر مَن يفك شيفرته... ولم يفعل ذلك إلا تلك العجوز المنظِّفة التي اعتدتُ مشاهدتها ثلاث مرات في الأسبوع. امرأة محنية الظهر لكنها نشيطة لا تعترف بالشيخوخة، ترتدي ثوباً طويلاً وصدرية خضراء كالذي يرتديها العاملون في المستشفيات. تغطي رأسها بفوطة زرقاء مشجرة بالأصفر الداكن واللون الرمادي الفاتح وتمسك المكنسة بعصاها الطويلة لتنظيف الرواق.. تتولى تنظيف الغرف وتنظيمها. تنزع شراشف الافرشة من الأسرّة فتستبدلها بأخرى نظيفة وناصعة. تؤدي عملها بصمت. تضع الأشياء بما فيها حاجيات النزلاء داخل الغرف كلّ بمكانه.

تلك العاملة انقذتني من حيرتي عندما سألتها بالإشارات، لكنها لم تفهم. وفهمتُ من تمتمتها انها تنطق العربية بلهجة سورية او لبنانية. أبهجني انني استطيع التكلم معها. كان اسمها "أم أمين". ستعينني كثيراً على تقليص معاناة جدار اللغة، العائق الكبير في العيش. اجابت وهي تجمع ما رماه النزلاء من علب وأعقاب سجائر في منافض غرفهم على سؤالي عن جنسيتها بأنها سورية الأصل لكنها من

الاسكندرونة التابعة الآن لتركيا.

ألقيت عليها سؤال الحيرة وأطلعتها على ما يوقظني في منتصف الليل يومياً، وعلى ما أشاهده من هرج ومرج أمام الفندق ونهوضي من السرير ورؤيتي لشباب سكارى منفلتين يطلقون كلاماً لا أفهمه فيه تهكم أو شيء من غزل وعبارات ماجنة.. ضحكت ضحكةً متقطعة، وقالت: هؤلاء يلاحقون هياتم، وحياة، النزيلتين عندنا في الفندق، في الغرفة رقم ٢٥، القريبة من غرفتك، وأشارت بإصبعها الى باب الغرفة الرابعة بعد غرفتي.. تعملان راقصتين في ملهى يقع على بعد ثلاث شوارع من هنا.. راقصتان عندما تتركان الملهى بعد انتهاء وصلات الرقص وتعودان يلاحقهما المعجبون من السكارى والمحششين.. ألم تشاهدهما هنا في الممر؟... قلت: نعم؛ لكن اللتين أشاهدهما في الليل غير اللتين أشاهدهما في النهار.. في النهار أشاهد امرأتين نحيلتين وكبيرتي السن. لا رونق فيهما ولا صفة يمكن ان يرغبها الناظر. وجههما أصفر فيه كلف وشحوب.. الشعر اكرد تقبض عليه الماشات وتوقف انفلاته القراصات بينما اللتان يأتيان ليلاً اشاهدهما كأنهما ساحرتان.

تضحك العجوز باستهزاء:

- "كل ذلك بتأثير الأصباغ والمساحيق يا ولدي؛ ومعهما

أحمر الشفاه وطلاء الأظافر والباروكات بالألوان والأطوال متنوعة تغير المظاهر وتقلب شكل الإنسان."

تفك حزام الصدرية وتخلعها من رقبتها وخصرها؛ ثم ترفع رأسها وتكمل كلامها.

- "لا تنسَ ان من يلاحقهما هم من العمال والحرفيين البسطاء والفلاحين القادمين من الارياف، ناس تبهرهم المرأة ويشغلهم الجنس... انهما ليستا كنساء القره كوي، المومسات الجميلات؟"

عبارة مومسات القره كوي استفزتني... مَن هنَّ هاته المومسات؟ وهل فعلاً جميلات كما قالت ". ضحكت أم أمين، وبملامح رسمت غمزة مكايدة: طبعاً.. سأوصلك اليهن يوماً.".

يشير هاتف غازي في عدد من الصفحات إلى أنه صرف ما يزيد على اسبوع قضاه بالتجوال في الأماكن القريبة ثم العودة الى الفندق.

نهاراته تبدأ من تناول الفطور في المطاعم السفري الكثيرة المتناثرة على الرصيف المجاور للبحر. هذا البحر الذي مَخرت عُبابَه واستقرَّت على نقاطٍ مختلفة من شواطئه بواخرُ الرومان والبيزنطيين واللاتينيين، وتربعت عليه الدولة العثمانية ما يقرب من ستة قرون. ونال من القداسة المسيحية

والإسلامية الكثير الكثير.. الشواطىء التي امتدت يد الانسان وأنفاسه على مساحاته وما بعدها الهضاب والسهول والجبال والبراري فأحدثت تجمعاً بشرياً صار مدينة، أسرع الامبراطور قسطنطين الكبير فوضع اصابعه على خارطتها المدينية فأسماها القسطنطينية أو روما القسطنطينية، جاعلاً اياها في العام ٣٣٠، وتحديداً في الحادي عشر من مايو العاصمة الرومانية الشرقية؛ قبل أن يمنحها المسلمون اسم اسطنبول.

تستقبله مقاهٍ تبيع الشاي والعصائر الرخيصة ناثرة كراسيها الخشبية على الارصفة، تحت اشجار الطريق.. يمرُّ على أكشاك بيع الصحف والمجلات؛ يطالع الصور، يعجز عن قراءة العناوين والمواد الصحفية المكتوبة بالحروف الافرنجية. يعاتب في داخلهِ اتاتورك الذي ألغى الحرف العربي للغة التركية واستبدله بالحرف اللاتيني.

مع الأيام صار يبصر مجاميع من الشباب المتحمسين لخطوات اتاتورك وبرامج وضعها لتطوير تركيا بغية جعلها دولة تقتفي خطى دول أوربا في عمل برلمان ووضع دستور وانتخابات مع تأكيد النأي عن كل ما هو قديم يرتبط بالماضي. فشرَّع قوانين، وأصدر أوامر جعلت تركيا بلداً علمانياً لا يهيمن في دستوره الإسلام كما كان خلَفه من

السلاطين والولاة العثمانيين.. قوانين ناهضها كبار السن ممَّن رأوا بمسلكه ابتعاداً عن دين اعتنقه الأجداد قروناً، وحافظوا عليه وبنوا مجدهم من خلاله.

برنامج اتاتورك نقل تركيا من بلاد مريضة الى بلاد شرعت تعيش البناء والنظر للمستقبل بتفاؤل.

كان اتاتورك في اجتماعاته الخاصة يهمس: أتريدون ان تبقوا في ركب البدو جرذان الصحراء أم تعيشون البناء والعمران؟.. ألا تفكرون بأبنائكم وأحفادكم وما تتمنون لهم من خير ومستقبل يعيش في النهار بينما سيظل اولئك يخوضون في الظلام.. اتركوا العرب فنحن أمّة تريد البناء وتحب الحياة، وليس لتركيا غير العلمانية.

كان سيمور، العامل الذي سيشاركه العمل وينام في نفس البيت في معمل صناعة الدبس حيث ذكره في مضمار سرده متحمساً لما جاء به اتاتورك. كان يقول: إذا أرادت أمّةً العيش بسلام افصل دينَها عن السياسة.. نعم؛ يجب ان لا يكون للدين دخل في السياسة. فللدينُ مؤسستُه ولرجالِ الدين إدارتُهم، منطلقاً مما كان يراه الزعيم اتاتورك رمز تركيا الجديدة كما كان يقول. يردده لعديد المرات. فهذا الزعيم كما يرى طالعَ تاريخ أوربا في قرون خلت فوجد بيقين أن اندلاع جلَّ الحروب ومقتل البشر سببه المؤسسات

الدينية الكنسية وتفرعاتها المذهبية. فهذه المؤسسات تورطت في إشعال النزاعات والمعارك. كل طائفة ترى هي الأفضل عند الرب وغيرها الخارج عن طاعته، فكان الموت وكان الهلاك.. كان الدم وكانت الكراهية.. كانت النار وكان الدخان.. كانت الصرخات وكان الأنين. كانت الشكوى وكان التضرع للخلاص.. كان الجوع والمرض واللوعة والتشرد والفساد.. وكان العام ١٩٢٦ عام توحيد الشعب التركي بعموم قومياته واتجاهاته الدينية والطائفية بلباس واحد.. ألغى "قانون القيافة " الذي شرعه اتاتورك كل زيّ محلي متوارَث.. ألغى الجبّة والعمامة، ألغى الشروال والطربوش الأحمر، ألغى العقال والكيوة. فقط القيافة الرسمية، في كل مكان، صارت البدلة الإفرنجية والقبعة الغربية.

يبدو أن كلمة القره كوي وموصساته كانت تكبر في رأس هاتف غازي، وصور العاهرات المتخيلة تأخذ دور الغواية في أزقة روحه المشربة بالبراءة. فلم يسبق وإن أحب في بغداد. وحتى رسمية بنت غريب الحلاق التي كثيراً ما صارت في الأيام الأخيرة قبل هروبه من بغداد تطل برأسها من الجدار المشترك بين بيتيهما وتبتسم له لم يفتح لها باب القلب. لقد كانت تتقصد إسقاط شالها أو ثوبها، وحتى

ملابسها الداخلية في سطحهم عندما تسمع خطواته او حركاته التي تصاحبها الأصوات تدَّعي انه طار من حبل الغسيل بفعل الهواء وسقط عندهم، . تبتسم له ابتسامة بمثابة رسالة حب حين يعيد الأشياء إليها.. ابتسامة تتمنى لو يقرأها مدونة في حدقتيها.

كان يسعى لمفاتحة عاملة الفندق والطلب منها ان تمنحه تفاصيل الذهاب والوصول الى القره كوي لكنه يتراجع خجلاً..

وعن وصوله الى هناك ودخوله واختياره لمومس كتب:

صرفتُ وقتَ قيلولةٍ طويل، وعندما أفقت شعرتُ بحاجة الى شرب الشاي. خرجت من الغرفة وقطعت المجاز وصولا للسلم. هناك أسمعتُ العامل طلبي وعدت اجلس في الشرفة. لم يتأخر سوى دقائق كانت خلالها عيناي تتابعان حركة الشارع وتطير انظاري بعيدة.

مع الشاي الساخن وحلاوته، مع الانسام وطراوتها توالدت رغبة ان اهبط وأترجل مشياً على الرصيف البعيد حيث الزوارق الفيري بيضاء تتحاذى ومجاميع السواح تتوقف لتتشاور قليلاً قبل ان تدخل.. بين الفضول والرغبة في الاكتشاف ارتديت ملابسي وخرجت. عبرت الشارع الى الرصيف. مررت على باعة شاميّة منشغلين بتلبية حاجات

أطفال قدموا مع أسرهم والأطفال بدهشة ينظرون الى الأكياس السمراء وقد امتلأت بحبات الشاميّة الساخنة ونكهتها تشيع في الهواء.. تركت ورائي باعة سجائر ومعجنات.

أبطأتُ السير عندما بلغتُ اول زورق. تطلعتُ في داخله فدُهِشت.. كان مطعماً او مقهى بمناضد وقد جلس الرواد يتهامسون او يتحادثون ببطء كأنهم يمارسون لغة الخرسان. رواد آخرون يحتسون المشروبات وقد شاهدت احدهم يرفع قدح بيرة ويفرغ سائله الذهبي في جوفه.. وحين مررت على الزورق الثاني ابصرت ما ابصرته في الزورق السابق؛ وهكذا مع الثالث والرابع.. أمام الخامس تركت قدمي تقودانني نحو الداخل وسط ارتباك مبرَّر يساور مَن يجرب فعلاً لأول مرة. ثمة سائحان أوربيان أشقران ومعهما امرأة هي الأخرى شقراء بعينين زرقاوين وقد عقصت شعرها من الخلف وجعلته كذيل حصان يجلسون في المنضدة البعيدة عند النافذة التي تريهم ماء البحر قريباً. على يمين المدخل هنديان يجلسان متقابلين وقد احمرت عيونهم يعدّان نقوداً معدنية فرشاها على المنضدة ويتحاوران في ما إذا كانت تكفيهم ليومئا للنادل المنتصب بقميص ابيض وبنطلون اسود عند طرف البار ليلبي طلبهما.

اخترت مكانا خلف السواح الغربيين، تماماً عند النافذة المجاورة لنافذتهم. شاهدتهم يفرشون خارطة اسطنبول؛ يتحادثون وحركة اصابعهم تنتقل من موقع لآخر. بعد قليل مر النادل حاملا صينية فيها ثلاثة قناني بيرة أمستل. توقف عند منضدتهم وشرع يضع أمام كل واحد قنينة كانت ماركتها تلتمع ذهبية وحبيبات ماء تسيل ببطء... دنا مني مبتسماً ولكي ابعد تقاسيم الرهبة عن وجهي طلبت زجاجة بيرة من الحجم الصغير مع فستق حلبي... القارورة الصغيرة الحجم صاحبتني لساعة وقد بثت في روحي نشوة تماهت مع النسمات المتسللة عبر النافذة.. نسمات اخذت تبرد بغياب الشمس وحضور المساء فجعلتني امرر كفي على ذراعي لطرد البرد او استدعاء الدفء.

ساعات عصر اليوم التالي قادتني الى حيث اتجهت بالأمس، والى حيث جلست. ابتسم النادل الذي لبى طلبي البارحة. ابدى مشاعر الحميمية وهو يضع زجاجتي بيرة هذه المرة مع شرائح بطاطا مقرمشة على المنضدة.

كلمة القره كوي التي اسمعتها للنادل بعدما وهبته بخشيش سمين جعلته يرسم ابتسامة عريضة. ردد بشيء من الهمس قره كوي كأنه يبغي التأكد في ما اذا كنت الفظ الكلمة بصورة صحيحة واقصدها.. اعدت لفظ الكلمة

مرتين. فأيقن انني ألفظها واقصدها دون خطأ. عندها راح يقترح بصوت هامس مرددا: حسناً.. حسناً.

قطع ورقة من قائمة اجور طلبات الرواد كان يمسك بها وراح يرسم عليها خارطة الوصول، ويقدمها لي ويبتسم كأنه يشجعني على الذهاب، ويدعوني للتمتع.

تركت الزورق المطعم ورائي.

انسام البسفور تغنّي مع الغناء المتصاعد في فضاء روحي. هناك زوارق صيد صغيرة تتراصف، واحدة بمحاذاة الاخرى وقد لفت اشرعتها حول الصواري فبدت اعمدة فقط. أرى احد الصيادين على مبعدة يفرغ بعلبة معدنية ماءً من جوف زورقه ويلقي به الى البحر. انه قادم لتوّه من رحلة فقام بعمله هذا بعدما افرغه من السمك ووجد عليه قبل التوجّه لبيته القيام بالتنظيف على اكمل وجه.. على بعد ثلاثة زوارق منه صياد وفتى منهمكان بإعداد الشباك، والفتى يتنقل من مقدمة الزورق الى وسطه ثم الى مؤخرته بهمّة عالية ليسهل على الصياد أمر القاء الشباك حين يشرعان برحلتهما الى الماء بيسر.. على مسافة ثلاثين متراً صياد نزل من زورق الى حافة الشاطئ وتوقف يطالع البحر بزهو كأنه يتغزل بمعشوقة أو يتباهى بحبيب؛ ثم استدار وراح يصعد الى الرصيف حيث مجموعة متفرجين يبعثون بأنظارهم الى

أماكن مختلفة من المد المائي الازرق.

عبرتُ الجسر الحديدي منتشياً تحت مصابيحه الثلجية الشحيحة الضوء. أطالع المكان الذي توقفت عنده أكثر من مرة في منتصف الجسر لأبتاع من بائع ذرة عرنوصاً مسلوقاً بماء ساخن ومملح يرتفع البخار من القدر الذي يغلي فيه الماء. يستخرج البائع العرانيص بمنكاش معدني ويضعها على صحن، وللمشتري الخيار في أن يتناول حبات العرنوص مستمتعاً بالبذور الصفراء الساخنة المشبعة بالماء ماشياً أو متوقفاً يطالع زرقة الماء والعبارّات وهي تحمل الركاب لتنقلهم من مرسى لمرسى يفضله الكثيرون واسطة نقل بديلة عن الباصات وعربات الأجرة.

في القره كوي سأجد ما لم اشبع منه، ما لم أجده في بغداد من مومسات.. فالكثير من مومسات الميدان لا يرتقين لهاته بوجوههن النظرة وقاماتهن المشوقة كما اسرَّ لي النادل بينما هناك عجائز او ايجات قبيحات دميمات لا تقربهن لتروي عطش جمال محروم منه بل كي تفرغ سما جسدياً وكفى. فليس في جسدهن ما يسرك ويشعرك بأنك قطفت ما تتشوق من ثماره، فالثمار من اشجار عجفاء ليس غير ثمر زقوم. وإذا حصل وسمعت بمومس شابة فلا قدرة لك للوصول اليها. ان لديها شقاوات يستطيعون اشباعك لكمات

ورفسـات ومـن ثـم رميـك ان لم تعجـبهم او لم تعطهـم مـا يبتزونك به. أما هنا ، في القره كوي أنت في بستان الجمال العهري: تركيات وكرديات وارمنيات وعربيات وشركس وهنـديات.. الشـقراوات والسـمراوات والحمـراوات.. تنظـر فتختار. الغرف جاهزة ، والوقت مفتوح يحدده مزاج المومس ورغبتها.

قـال لـي النـادل محـذراً: تصـرف بلياقـة مـع العـاهرات. فللعـاهرة مـزاج متقلـب.. قـد تفسـح لـك الوقـت مطـولاً؛ وان وجدتك شهوانيا حيوانيا لفظتك وأظهرت انكماشها ومن ثم قرفهـا.. احـذر!.. إن ضـايقتها صـرخت بـك وانهالـت عليـك بالشـتائم، وفي أقصـى شـعورها بتجنيـك عليهـا تقـف في بـاب غرفة الجماع فتتلفظ بكلمات تنتج ظهور عملاقين بعضلات تخيفـك وترعبـك قبـل ان تجـرك وتسـحلك لترمـي بـك خـارج المبغى.

حتى هنا يتواجد الشقاوات من السفلة ، نازعو ثوب اللياقة والأدب؟! تساءلت في سري.

ما ان انتهيت من الجسر حتى استدرت يمينا حيث المبغى والمبتغى.. هناك رحت أترنح مدمدماً بأغنية حسنية البصرية (الافنـدي.. الافنـدي.. عيـوني الافنـدي.. الله يخلـي صـبري.. صندوق أمين البصرة).. الدندنة بلذة الخيال ، بشوق ادراك

الهدف، بالاختيار الصعب حين أواجه المومسات.. أي جميلة منهن ستبهرني؟.. وأي مومس أختار؟.. سأصرف كل ما لدي لأمتص عسل أرواحهن.. سأشبع من السمينات، من متوسطات العمر. سأقرف من المراهقات الصغيرات اللاتي يتهافت عليهن الشيوخ مثلما كنا نشاهدهن في الميدان ونحن تلاميذَ نبرح المدرسة المأمونية بعد دروس متلاحقة. يمتصون ببقايا شهواتهم الناضبة عصارة أعوامهن المعدودة وإقبالهن الجديد على حياة شباب يتمايل ميساً، وحرفة تجذب الجميع..

بين الضحك والحذر أخبرني النادل: قبل اسبوع تشاجرت احداهنّ مع رجل ثلاثيني. انهالت عليه بكلمات سباب لا تحتويها قواميس العهر لأنه انحنى داسّاً رأسه بين فخذيها وصولاً للعق شعر عانتها؛ اراد تطبيق ما شاهده يوماً في مجلة جنسية سرقها من سائح الماني.

***

وهناك..

دخل الفتى عالم العاطفة المنفلتة.

أشار على مومس خرجت للتو من غرفتها؛ يسبقها عميل انشغل يحكم ازرار بنطلونه.

دفع الأجر ودخل الغرفة التي خرجت منها منتظراً

إطلالتها.

شيء من الخجل والخوف والرغبة الدفينة تعتلج داخله. ان رأسه يعج بالحمى، وقلبه يمر بأمواج الدم الدافق.. شكر الخمرة لأنها قللت الاحتدام الجارف القاتل. كان من المفترض ان احتسي ثلاث قناني وليس اثنين، تمتم في سرّه.

قال لها والقلب عصفور غُر، يهفهف بأجنحة من مرح: اسمي هاتف.. ما اسمكِ أنتِ؟

- "دوردانة"... أنفرجت شفتاها عن صفين من أسنان برّاقة ولسان يُغري بلعقِه.

هزَ رأسه كتعبير عن تساؤل إن كان يحلم أم أنها الحقيقة تُعلن في كثيرٍ من الاوقات تبث عطرَ الغواية أو ترفرف ببيرق الاغراء؟!

كانت دوردانة حبّة لؤلؤ.. اسمٌ على مُسمّى.. لا! لم تكن حبة لؤلؤ تتلألأ وتتوهج تحت أشعة المصباح المندلقة بلون الذهب فقط بل كانت ثمرة فاكهة يانعة ممتلئة بسائل عسلي؛ ثمرة ساقطة من شجرة الجمال في جنَّةٍ لوّح بها اللّه للمؤمنين الأتقياء.. أخذت ترفع اصبعاً شمعياً تزيح خصلة بلون الحناء عن حاجبها المكتنز الشعر ورموشها المجنونة بالاهتزاز.

خرج مع الغروب منتشياً. فدوردانة ((كما وصفها في

الكتاب وصفاً رفعها الى تخوم ملائكة)) واربت أمامه باب الأمل في العيش والعمل في اسطنبول فلم يفكر بمدينةٍ غيرها من مدن الأرض. يقول عنها: هي شمسق وصباحٌ ضاحك وجنينةٌ يانعة، بل ربيعٌ دائم. لكن ما أن اجتاز الشارع حتى مزقت خيمة النشوة ريح المفاجأة ورمت به إلى العراء حين ووجه بثلاثة أشقياء يمسكون السكاكين وينهالون على رأسه بقبضاتها الحديدية ما جعله يدوخ، فيترنح، فيسقط..

لم يع إلا على ماء يرشق وجهه وأناس تبحث في جيوبه للاستدلال على هويته. كانت في عيون بعضهم رحمة وعلى ألسنتهم كلمات يدينون مَن اعتدى فسرق كل ما لديه من مال، وبعض آخر يدمدمون وينهالون عليه بالسباب.. ولم يفهم منهم غير كلمة خمر.. خمر.. ففهم انهم يدينونه على تناوله الخمر ويرون استحقاقه لكل ما جرى له.

بعد أيام قال له صاحب الفندق وهو يدقق في سجل إقامة النزلاء أنه صرف أسبوعين كاملين، وأن عليه دفع مستحقات الليالي القادمة إما بأسلوب الدفع اليومي أو الأسبوعي.. إزاء ذلك وجد نفسه في ضياع.

الضياع هوية الضائعين والبائسين المعدمين.

الجيب فارغ، والبحث عن عمل لم يحصل.. لم يحسب

للأسوأ ، لم يرسم ما عليه رسمه. مراهق ابتسمت لـه الغوايـة وأفردت ذراعيها.. سـاقه المجـون الى حيـث مرافـئ فـترة المتعـة القصيرة ثم تخلى عنه.

تـرك حقيبتـه وجـوازه ومستمسـكات تخصـه في غرفـة الأمانـات.. وكـان عليـه ان يقضـي الأيـام متسـكعاً. يصـرف النهـار علـى مصـاطب الأرصفة متطلعـاً الى بحـر مرمـرة. وفي الليل ينهي السـاعات الاولى عابراً الجسر وجالساً علـى مبعـدة من المبغى علّه يشاهد دوردانة فيهرع اليها. ينتظـر الى مـا بعـد منتصف الليل ثم يتوجه الى أقـرب مسـجد.. يجلس هنـاك مـع الشحاذين؛ منتهزاً فرصة منامهم فينام. هم ينهضون قبـل اداء صـلاة الفجـر ليحصـلوا علـى صـدقات المصـلين بينمـا يظـل نائماً ، يحالفه الحظ مرات فيجد محسنا او اكثر دس تحـت ثيابه ربـع لـيرة تعينـه علـى ابعـاد موتـه جوعـاً.. لام نفسـه علـى عـدم الاسـتدلال في اول يـوم نزولـه علـى عنـوان اقاربـه الـذي تركه جده على قصاصة من الورق.

ضـياع العنـوان غيّـر مسـار حياتـه... انهـا الأقـدار حـين تـداهمنا تتلاعـب بمجـرى حياتنـا. فلـو كـان عـرض تلـك القصاصـة علـى السـائق تركـوت لكـان الآن بـين الأقـارب ، يوجـدون لـه عمـلاً فيـنعم بالأمـان. يعـيش الحيـاة الجميلـة في مدينة الحلم فيدعو امه للقدوم والعيش معاً.

بضياع العنوان بتُّ ضائعاً... يقول.

اعتدتُ بين اسبوع وآخر المرور على الفندق أسألهم عن توركوت ، متمنياً هبوطه من سماء الرحمة لينتشلني من الضياع. تمنيت لقاءه. افتقدتُ وجهه البشوش، اشتقتُ لقهقهته؛ لروح دعابة تسمُ شخصه.. تذكرني بإعجابه وحبه لملّه عبود الكرخي، بدليل حفظه الكثير من اشعاره، وترنمه ببغداد "بغداد مبنية بتمر، فلِّس واكل خستاوي". جملة لا يمل من ترديدها طيلة فترة القيادة وحتى وهو يضع يده بيدي لنعبر الشارع او نتجول على الرصيف.

انتقلت الى بوابة مسجد آخر أستجدي عطف وصدقة من لا يعرفني.. وبرغم شحّة ما يعطون وقلة ما يقدمون استطعت جمع ما يجعلني أدخل المبغى علَّ القدر يبتسم فيريني دوردانة مرة أخرى.

خمس مرات ذهبتُ الى المبغى وفي رأسي امنية ان أجدها هناك. خمس مرات اتخذ من الغرفة التي مارست معها الجنس وتحدثنا وكانت تتخايل بجسدها المكتنز الجميل. كل شي كما هو إلا هي. لا وجود لها. أمارس الجنس مع من في الغرفة ولكن بخيال ممارسته مع دوردانه.. لا أشم إلا انفاسها طائرة في الهواء وكلماتها المغموسة باللطف والعذوبة حتى اعلنت يأسي خصوصاً وأنَّ المومسات كثر

والقـائمين علـى بيـت المبغـى لا يفشـون بأسمـاء عـاهراتهم الحقيقية وسكناهن وعلائقهن الاجتماعية، فتلك من عداد الاسرار الواجب الحفاظ عليها.

في إحدى الليالي حلمت ببغداد. حلمت بها معشوقة يهيم بها عاشق وله.. كنت العاشق مع ان ابن زريق، الذي قرأنا عنه في الكتاتيب، كان بعيداً في اليقظة الّا انه جاءني في الحلم ليقول "استودع اللّه في بغداد لي قمرٌ" وأوصاني بمن أحب وأعلمني انه يقيم في نزل بحارة من حواري دمشق، وانه سيموت تلك الليلة ويترك قصيدة وحيدة كتبها كرسالة اعتذار لحبيبته التي حذرته بعدم ترك بغداد وطالبته بطيب العيش فيها، قائلة "نار الوطن ولا جنة الغربة" فلم يأخذ بكلامها فندم ندماً شديداً لرجاحة رؤية تلمَّسها حقيقة لا يخفيها غربال الوهم؛ ولات ساعة الندم.

هل سمع القدر همسي؟ هل فككت السماء تمتمات تضرعي؟ هل الحظ لا يجافي المرء دائماً فيأتيه مرة؟ أسئلة وأسئلة دارت في رأسي وامتزجت فأظهرت لي دوردانة موجودة على قائمة من كنَّ ساعتها في المبغى.

انتظرتُ من خرج من غرفتها، فدخلت.

"دخلتُ وقد اتسعت دهشتها لمشاهدتي.. دخلت وقد نزعت عنها أدران العهر وارتدت ريش البط الناعم والزاهي... قالت:

أين أنت؟ أعلموني انك كنت تتردد تسأل عني.. نحن لا نحضر دائما وليس هناك مواقيت للحضور.

دنت مني. وضمتني بذراعين رؤومين.. نثرت على وجهي أنفاس تضمخها عاطفة جياشة.

كلمتها بما أنا فيه، وما جرى لي.. أين قضيت الأيام وكيف صرفت الساعات فصدَّقت. صدقتني من أعماقها، مع أن العاهرات بما يمتلكن من تجارب اكتسبنها من حرفتهن اليومية يدركنَ أن الرجال يكذبون ويخدعون. ومن كذبهم وخداعهم انجررن إلى هكذا أمكنة بعدما تلوثت سماء شبابهن بغيوم وعود زائفة لم تهطل غير الغدر.. لا تهزهم رحمة ولا يأتون اليهنَّ برأفة.. أظهرت حزناً. كادت تبكي.

شبّه لي أنها أم يعتصر قلبها وينسحق ألماً.. أمٌّ تسحب وليدها بين ذراعيها لتمنحه الألفة. تخشى عليه من عاديات الزمن.. ضمت رأسي بين ذراعيها وراحت تمسح وجهي بنهديها العاريين بينما راح انفي يستنشق رائحة جسدها فيشعرني بوجودي طفلاً يستعذب حنان أمه فيطيب له الضم ويتمنى لو يدوم هذا الى الأبد فينسى انه عاش في مدينة ظلت تسقيه ماء الفقر.

الضم تحول إلى عناق، إلى سياحة جسدية، إلى بوتقة

تمتزج وتذوب داخلها الآهات باللوعة بالبوح، بالنشيج، بالدم الفائر، باللحم الملتحم، بالروح الساخن المتشكّل من روحين، بالغرق العذب، بالشهوة المائية الغامرة، بصرير يحدثه السرير المهتز، بعرق الفراش وبلل الوسادة، بأمنية عدم انتهاء فعل التمازج.. وأخيراً بالأنفاس المتلاحقة والارتماء بجسدين شبعا من مائدة الرغبة.

حديثي لها عما جرى لي ومحاولاتي المتكررة بحضوري للمبغى أملاً في لقائها جعلتها تتألم وتركت عينيها تسكبان شفقةً.. رفعت روحها لافتة التضامن معي.

نهضت صوب كومدي في الزاوية البعيدة عن الباب بمحاذاة نافذة مغلقة يطل الناظر من خلالها على بحر مرمرة فيبصر الزوارق تمخره وجموع من أصحاب الصنارات المرمية في اليم يتوزعون على الشاطئ. ومن دون مطالعة عريها في المرآة المستطيلة بالنهدين الأرنبين ومثلث الشعر الليلي الغزير سحبت الجارور وأخرجت كراسة ورق؛ على غلافه صورة الساحل الشمالي لإسطنبول ببيوته ذات الاسقف القرميدية الحمراء. أخرجت قلماً كان في أعلاه امرأة ترتدي مايوه كحلي وعندما شرعت تكتب وانقلب القلم انزاح المايوه الذي كان في الواقع سائلا ظهرت عارية (أكان ذلك من اكسسوارات غرفة الجماع ام من مقتنياتها الشخصية؟).

كتبت على قصاصة صفراء بضع كلمات، قالت لي "استأجر حالما تخرج عربة واطلب من الحوذي إيصالك لهذا العنوان. هناك ستقابل عثمان بيك. قل له دوردانة تبلغك السلام واطلب منه بعدها أن يضمك لعمال معمله المتخصص بصناعة الاسرة الحديدية."

وصلت على هدي العنوان؛ وقابلت الرجل الذي كان قصيراً وممتلئاً، بوجهٍ احمر وشاربين صفراوين ذهبيين، وبدلة افرنجية تضيق عليه فتظهر كرشه ككرة منتفخة تنتظر انفجارها.

كان رجلاً متعجرفاً، نظر لي بتعالٍ ولامبالاة. فلم يدم وجودي معه غير شهر انصرف ثقيلاً. كانت نهاراتي في معمله مشاوير مذلة، ومساءاتي احتدام وضجر، وتصميم على رشق وجهه بكلمات ازدراء قبل تركه.

كان عامل إعداد القهوة والشاي وتقديمه لعثمان بيك والضيوف رجلاً كهلاً؛ وقد تلمَّسَ معاناتي ومللي. وبدوره أيدني في ترك هذا الرجل المتكبر، واقترح عليَّ بأبوة وحنان أن أشتغل بائعاً متجولاً في السوق المسقف، أبيع الشاي والقهوة السفري.

رحبت بالاقتراح ، إذ وجدته مدخلاً للاحتفاظ بكرامتي. رافقته عصر اليوم التالي إلى السوق.. هناك دخلنا زقاقاً

فرعياً ووقفنا عند باب نُزل مفتوح. وبالمباشر طرق باب غرفة مغلقة. قليلاً وانفتح على امرأة عجوز محنية الظهر، خمنتها في الثمانين. رحبت بنا، وطلب الرجل منها تأجير غرفة لنفر واحد،؛ تكفل بأنه سيسلم الإيجار لها كل أسبوع في حالة تلكأتُ.

افهمها إنني سأبيع الشاي والقهوة السفري في السوق على المارة وأصحاب الدكاكين، والرزق على الله.

تفهمت العجوز مقترحه ووافقت على كفالته.

خرجت بشعور انفراج الأزمة. أعلمني بان العجوز قريبةً له من بعيد وسوف تتعامل معه كحفيد لها.

في السوق تجولنا.. ابتعنا أدوات إعداد الشاي: طباخ نفطي بعين واحدة، قواري واستكانات، ملاعق وصينية.. ورق الشاي ومسحوق القهوة.

أسبوعان مرّا.. كانت فيهما العجوز خير معين، وكان الرجل مثال لصفة الأبوة. تلك التصرفات ذكرتني بتوركوت ودماثة خلقه وطيبة اسلوبه؛ فتوجهت الى فندق مرمرة استفسر عنه. اعلمه صاحب الفندق انه تردد عليه اكثر من مرة يسأل "اخبرته بانقطاع مرورك علينا.. سألني عنك مرة ومرة عندما كان يجيء بنزلاء الى الفندق. بعدها لم يعد يسأل. ربّما ظن انك عدت الى بغداد وغادرت اسطنبول الى

غير رجعة."

كنت أعود لغرفتي متعباً من التجوال والجري لكنني سعيد بعملي وفرح بليرات أجنيها.. صرتُ أدفع الإيجار وأسدد للرجل مصاريف شراء الأدوات.

وفي ليلة، بعدما مكثت في مكاني ووثّقت عنواني، اثارني الحنين الى امي، وتذكّرت جدي. أخرجت صورتيهما.. ركزت نظري على وجه جدّي المدور الحليق وشاربه الأسود والجراوية التي تلف رأسه والقسم العلوي من الصاية الرمادية والقميص الأبيض. وكلمة منحوتة بطريقة فنية تشير للمصور. كان في الصورة بعمر الأربعين؛ أي التقطها قبل عشرة أعوام من وفاته، وقلت لأمي سأكتب لك.

تلك الليلة كتبت ما يزيد على الثلاث صفحات أعلمها باستقراري وتطبعي على المدينة والمكان.. كانت مرت تسعة أشهر قبل أن أكتب لها للمرة الثانية، "لابد انها قلقة عليَّ.. نعم، نعم.. لابدَّ أنها قلقة.".. كانت اعماقي تردد. لذلك حسبتُ الرسالة ستطمئنها كثيرا وتسعدها بخبر استقراري.. لم أخبرها بفقدان العنوان الذي كتبه لي في قصاصة ودوَّنه داخل وصيته كمنقذ أخير لنا في عاديات الزمان.

بعد شهرين ونصف ردَّت عليَّ أمّي برسالة مطولة. رسالة

حملت الكثير. تعلن فرحها لما ورد برسالتي ولو انها أفضت بالكثير من الشوق ودعاء لا ينتهي للّه ان يرعاني ويسدد خطاي نحو رياض السعادة. ثم أخذت تنقل لي أخبار المعارف وأحداث تحسبها تهمّني:

"عبد الجبار الحلاق توفي وترك محله لعامله الشاب يعقوب.. منى بنت جارنا يحيى منوِّر تزوجت من ابن عمّها صديقك كاتب العدل الذي يعمل في محكمة الكرخ.. مرسيل اليهودية التي كانت تسرني بحبها لبطرس، المسيحي المحاسب في محلات حسو اخوان هربت معه، في الأول عقدا قرانيهما في كنيسة اللاتين في الشورجة وباركهما القس.. أبوها عزرا لم يصدق ما فعلته، وكلما تذكرها او ذكّروه بها يروح يردد بتعجب: مرسيل الماتشوف عتبة الباب تحب، وفوكاهه تهرب؟!.. الإشاعات تقول انهما اتجها لبريطانيا بعدما هربا سرّاً إلى القاهرة. ويقال ايضاً أن ميخائيل ابن عم بطرس الذي هاجر الى لبنان وظن الناس انه يعيش في بيروت هو الذي استقبلهما في مطار لندن، حيث عرف الجميع انه حصل على وظيفة طباخ في الخطوط الجوية البريطانية.. منذ أسبوعين فاض دجلة وحدثت كسرات في الضفة، أقواهن مقابل سوق الصفافير. المياه الطينية اندفعت بجنون حتى وصلت الشورجة.. الجرذان والأفاعي نراها

تخوض في المياه المتدفقة؛ جثث خراف وأبقار طافية على سطح الماء.. بساتين العيواضية غرقت وفر الفلاحون بنسائهم وأولادهم خائفين مرعوبين من هدير الماء.. الفيضان تسبَّبَ بانتشار الأمراض.. أي، نعم انتشرت الأوبئة فحصدت الكثير. ولقد منَّ الله علينا بالجراد المَكِن تعويضاً عن أضرار الفيضان؛ إذ نهضنا صباحاً لنشاهد السماء تعج بأمواج الجراد الطويل الممتلىء. جراد صار أكلاً شهياً، وصار الناس يخرجون بعد صلاة الفجر ليجمعوه وهو نائم على أغصان وأوراق الشجر فيملأون الكوشرات وأكياس الخيش بها فيبيعونها بأسعار رخيصة.. لقد شبعنا منه، وتمنيت لو كنت معنا في بغداد لشبعت منه ايضاً.. أصدقاؤك سليم وفرحان وعبد الجبار كانوا السباقين لجمعه والإتيان به للدنكجية لبيعه وفي بعض الأحيان توزيعه مجانا على الجيران.. من جانبي احتفظت بكوشرين منه للشتاء بعدما عرضتها للشمس كي يجف ونأكله في الشتاء... الفقراء شبعوا قبل الأغنياء. منّة السماء ورحمتها على البشر، يا ولدي.

لا تنس ذكر الله، ولا تتوان عن قراءة القرآن الذي وضعته لك في الحقيبة. اقرأ فيه يومياً، واتلوه بصوتك الرخيم كما تعلمته من الشيخ عبد الرحمن الذي احبك

كثيراً وكان يمرر يده الحانية على رأسك وهو يخاطبني: "سيكون من المرتلين المتميزين. إن في صوته لرنة، وان في صدره لَنَفَس قلما تجده عند مرتلين كثر."..أتذكر كيف اعتليت المنبر وألقيت خطبة الجمعة يوم كان الشيخ عليلاً وأوكل اليك المهمة فأجدتها بحيث تمنى المصلون لو توليت المهمة كل جمعة بديلا عنه؟..

****

وأنا ألف وأدور قاطعاً الأزقة الفرعية للسوق المسقوف ألبي دعوة هذا وأخدم ذاك، حاملاً ترمس القهوة والشاي السفري مرت من بين زحام الناس المتبضعين ما يشبه دوردانة أو هكذا شبّه لي.. وكشعور طفل انسلت كفّه فجأة من كفّ أمه في زحام شعرتُ بلحظة هلع خشيةً من فقدانها. أخذت أدفع من هم أمامي من الناس وأتداخل بين المتبضعين المشغولين بمطالعة السلع المعروضة في واجهات المحلات. يتقلص العالم ويتضاءل حجم الدنيا حين تكون في حاجة ماسة لامتلاك شيء. يغدو كل ما حولك لا يعنيك.. الذي يعنيك فقط هو امتلاك الشيء المبتغى.. فسحة من النظر وهبها الله فأبصرتُ ما هتف به هاتف في رأسي: نعم هيَ؛ هيَ.. أسرع، وتقدَّم عليها ثم التفت لتتيقن تماماً من أنها دوردانة؛ بشحمها ولحمها... دوردانة التي عجزتَ لكثرة

مـروركَ علـى المبغـى وانتظـارك في المقهـى القريـب منـه علّك تشـاهدها خارجـة منـه أو قادمـةً إليـه فتشـعر بخيبـة دائمـة، وأملٍ مُضاع.

نعم إنها هيَ!.. هي ذي دوردانة!

وقفت قبالتها. فوجئت بي للحظة كان البهت يشيع على وجهها، ما لبثت أن زرعت ابتسامة راحت تطفو وتطفو ثم تطفح فتنفرج شفتاها تعبيراً عن سرور جاءت به المفاجأة. مدت كفها للمصافحة. قالت أنها خرجت اليوم لتتبضع ما يحتاجه البيت فأمها أقعدها النقرس واجبرها الطبيب المعالج على عدم الحركة.. قالت إنها ستتولى المهمة لشهر أو أكثر قضت أسبوعين منه في التسوق. وقالت أيضاً إنها لم تذهب للقره كوي لانشغالها بالمرض واهتمامها بالبيت وأنها تتذكرني.. سألتني عن تركي العمل عند من بعثتني اليه، حيث اعلمها الرجل بغيابي دون سبب. ابتهجت لمشاهدتها تلبس بنطلون رمادي وحذاء أسود بكعب متوسط أما القميص فأبيض له جيبان يعلوهما شريط بلون رمادي كلون البنطلون.. كان شعرها الطويل مسترسلا على كتفيها، لا ماشات تمسكه ولا قرّاصات تقبض على خصلات منه. ابتسمت ابتسامة عريضة بشفتين كان الروج الرمّاني يحتفي بلمعانهما فيما عيناها غمرتاني بسعادة اللقاء.. ما ارتديه من

ملابس العمل البنطلون والبلوفر والصدرية الكتانية البيضاء الملوثة ببقع الشاي والقهوة غير لائقة لدعوتها للجلوس في مقهى، لكنّي مع هذا دعوتها فاعتذرت متعللة بقصر ما لديها من وقت للتسوق.. ومع هذا ابتسمت من جديد. استلَّت من حقيبتها قلماً وورقة.. كتبت؛ وقالت: اطلب من سائق ربل أو تاكسي أن يدلك على هذا العنوان.. سيكون غداؤك في الغد عندنا، في البيت. سأحدث أمي عنك اليوم.

في البيت لم ألمس منها ما يشير لعهرها. كانت تتصرف باتزان. وعندما وقفنا سوية عند المغسلة بعدما تناولت بشهية خرافية فطيرة بلحم الغزال عملتها بيدها وجاءت بالمنشفة بعد انتهائي من غسل يدي وعبرت عن شوقي الجنسي لها وحدست شبقي من نظراتي قالت سنلتقي هناك بعد يومين. سأكون من الساعة السابعة حتى التاسعة.

وهناك كانت.. أفهمتني أنها ترفض أية علاقة خارج بيت الدعارة، وأنها تحمل هوية خاصة بها، وهذه الهوية تمنحها الحصانة في الدفاع عن نفسها إن تجاوز عليها احد خارج هذا المكان. أوضحت الكثير مما يجب أن تكون المومس في نطاق عمل الدعارة وخارجها، فأبعدت عن نظرة أن العاهرة بضاعة تمشي في الأسواق والشوارع وبإمكان أي إنسان احتواؤها بالمال لتحقيق رغبته أنّى شاء. أبعدت عني صورة

عـاهرات الميـدان، هنـاك في بغـداد ، وهـن يتعرضـن لأذى السـكارى وحماقـة الشـقاوات فتراهـنَّ مزرقـات العيـون أو مشدودات السواعد بالضمادات جراء اضطهاد هـذا وعسـف ذاك.. اكتشـفتها تعشـق الموسـيقى؛ ولهـا في غرفتهـا جهـاز حاكي واسطوانات لفيفالدي وباخ وموزارت؛ قالت انه لطعم عظيم أن تتذوق عسل أرواح هؤلاء الخلاقين الذين ينعمون الآن بجنة الله وهم يقدمونه للإنسانية اجيالاً بعد أجيال على طبق من لذاذة خرافية.. هي إذاً تفهم الجنة وتعرف النار وما بينهما من أفعال وأعمال.

دهشـت للكـلام وتـذكرت أنهـا لم تخـرج ولا مـرة مـن غرفـة الجمـاع عاريـة أو شبه عاريـة كمـا تفعـل الكثير مـن المومسات وهـنَّ يتركـنَ العيـون في الممـرات تطـالعهن وتحملق في عري لحمهن الفائر.

وعندما أبديت إعجابي بالفطيرة وسألتها عن لحم الغزال الـتي أشـارت لوجـوده فيهـا ومـا إذا كـان يبـاع في أسـواق اسـطنبول أو يـأتي مسـتورداً ضـحكت؛ ومـن بـين أسـنانها الثلجية الناصعة قالت أنها هدية من معجب يهيم بها ويكثر من زيارتها في المبغى.

- وبغمـزة عـين قالـت: "يمـوت في نهـديَّ ويبكـي دموعـاً تتقـاطر علـى سـرتي.. الرجـال بقـدر مـا هـم جبـابرة في بعـض

الأحيان يكونون في أحايين كثيرة أطفالاً أذلاء."

كانت تنثر الفراشات رسوماً بألوان الجمال على شيئيات غرفتها. فعلى الوسادة فراشة، وعلى الشرشف فراشات. في زاوية مرآة الكوميدي فراشة، وبين صفحات كراريسها والكتب التي تقرأ فراشات. ثمة فراشات تهبط من خيوط تتدلى من سقف غرفتها. خيوط ألصقتها بطريقة فنية تنقلك لعالم الحلم أو لحدائق أمراء أوربا وقصور القياصرة الروس، فتراها تهبط بمسافات متفاوتة. يبدو بعضها يوشك أن يمس هامتك وبعضها ما يزال قريباً من السقف. إنَّ روحها لروح ملاك، هذه الدوردانة.

دهشت وفهمت لماذا كانت جادة في تصرفها عندما التقيتها في السوق ولماذا لم تنظر أمها لي نظرة استغراب وشعور إنني انتهك ابنتها مثلما انتهك البيت فدخلته غريباً بمقدوري الاعتداء على أي من عناصر العائلة. ولماذا كان أخواها المراهقان عاديين في لقائهما معي وتوديعهما لي بعد مغادرتي البيت. كان دوردانة زاهية مثل حديقة.

في جلسة ارتشاف الشاي بعد الغداء أفشيت لها عن خروجي من العراق هرباً من التجنيد الاجباري، وعن وفاة أبي وأنا بعمر خمسة أعوام وتولي جدي لأمي إعالتنا وعدم ترك أمي في مهب ريح الأقدار. حدثتها عن جدي ومهارته في

تصليح الساعات وأفضيت كثيراً عن الإتيان به من تركيا إبان الحكم العثماني لتنصيب ساعة القشلة وتوظيفه فنياً في متابعتها وإدامتها وتصليحها في حالة حصول عارض.. حكيت لها عن جهوده الخرافية في تعليمي القراءة والكتابة ومهارة تحليل الكلام الذي أسمعه والكلمات التي أقرؤها.. حكيت لها عن ربطه الذكي بين الزمن مجرداً وعلاقته بآلة قياسه كوقت يجري فيترك بصمته على صفحات ذاكرة البشرية وإناطة مهمة الذكرى للتاريخ.. حكيت، وحكيت. حكايات جعلتها تدنو مني روحياً. تراجع الجسد وخجلت الشهوة. صار النظر في ايام لقائنا في المبغى بوصلة لتقييم وجودي معها. صارت تجلس لتتحدث أكثر مما تؤدي حركات مقصدها الغواية. تترك السرير والرائحة المتداخلة من جسدينا لتتحاور بالنظرات. تمرر هي رسائل الإعجاب مثلما أبعث أنا للمسات أصابعها موسيقى الحنين.. بدأ الجنس مدخلاً للعلاقة وانتهى ثانوياً؛ تسبقه اللهفة الروحية وتعاطي البوح على أشده.

زرت بيت دوردانة ثلاث مرات وفي كل مرة كنت أشتري في طريقي فواكه ومعلبات أحملها معي. أطرق الباب فتستقبلني أمها متحاملة على ألمها. تبتهج لحضوري وتعاتبني على ما أحمل قائلة: "لا هذا غير مقبول نحن نستقبلك

كواحد منّا. من ناحيتي اعتبرك واحد من العائلة.".

وبدورها كانت دوردانة ترد على ما أجلبه لأسرتها فأهدتني مرةً مزهرية تنبثق من جوفها باقة ورد النوار. حملتها معي ووضعتها في غرفتي على المنضدة جوار رأسي، بمحاذاة وسادتي. أزيد ماء المزهرية كلما تبخر كي تستمر يناعة الزهيرات وقتاً أطول، وتبقى السيقان خضراء والأوراق طرية.

صاحبتني أكثر من مرة نتجول في شوارع اسطنبول وأسواقها المغلقة والمكشوفة للهواء. نطالع القباب والمنارات، ونعبر الجسر صوب السوق المسقوف وفروعه. نركب عربات الترام، ندخل كلية وزارة الحربية فنستمتع بمرأى جامع بايزيد. نعبر آقسراي، ونواصل مشينا حتى الحسكة. قد نجلس في مقهى بأرائك أفرشتها من السجاد الكاتشاني نشرب الشاي في استكانات كبيرة بثلاثة أضعاف حجم استكانات الشاي في بغداد. استكانات منقوشة ومذهبة وصحون خزفية صغيرة وملاعق صفراء كأنها مطلية بالذهب.. ركبنا مرةً عربة ربل، يجرها حصانان تعالى عرفاهما وتهدل ذيلاهما بالشعر الأسود الطويل. وكان رأساهما يهتزان اهتزازات تتوافق وضرب حدوات أرجلهما على الطريق المعبد بالحجر الناري المربع بفعل سحب الحوذي

للجامهما كأنه يعطي إشارة التحية والتسلية لراكبيه.

كانت دوردانة تلتقي عدد من الفتيات اللاتي يحينها أو يومئن بأيديهن عن بعد سعيدات وهن يطالعنها. وهي بمقدار السعادة التي يبعثها ترد عليهن.. تخبرني أنهن من مومسات القره كوي. يلتقين عادة هناك، ويفترقن غب نهاية عملهن.. كان عهد اتاتورك بالنسبة إليهن مشواراً مريحاً من العمل؛ قلَّ فيه الكثير من العراك وتراجعت المنغصات والضغوطات والتهديدات التي تحصل لهن قياساً ممَّن سبقهن من العاملات في المواخير.

كانت الأيام تمر.. وأنا في ميدان العمل؛ ودوردانة صديقة جسد ثم روح، مستمرة في عملها.

وصادف انقطاعي أسابيع عن رؤيتها.

تلك الفترة غيرت مجرى الأحداث وأنبأتني بخبر اقتران دوردانه بمن ضاجعها لعديد المرات وأعجب بها؛ ثم عرض عليها الزواج ومصاحبته لميدان عمله في ألمانيا.

اكتأبت أمامها؛ وبكيت.

أخبرتني انها فرصة لتغيير واقع الحال.. ترجت العيش هانئة بعيداً عن مهنة لا مستقبل لها؛ مثلما شرحت وأفضت في شرحها عن ذلك الوطن الجميل ذي الشعب الباحث عن المجد، الساعي للتميز والرقي. أفضت بالكثير مما صوره

لها خطيب اليوم وزوج المستقبل وأسمعتني سيرة حياة أناس يحبون العمل ويسعون للسعادة مصممين على حيازتها.

اقترحت عليَّ قبل مغادرتها تركيا بمهنة ثابتة، فليس بيع الشاي على المارة بعمل يضمن مستقبلاً. لذلك اصطحبتني يوماً إلى حارة بيك اوغلو. دخلنا درباً معبد بحجر البازلت بعدما خلفنا شوارع فرعية. هناك استقبلتنا رائحة لشيء مخمر يشيع في الأرجاء.. شاهدت دوردانة ملامحي تنكمش وأكاد أعبر عن اشمئزازي من شيء أشمه. ضحكت وقتها وهي تعقب: هذا ما ستكون في دوامته، لكنك ستعتاد عليه.. انظر إنها منطقة سكنية وأهلها لا يمتعضون، بل ولا يعارضون.. عندما تعتاد على شيء تتراجع سلبياته فلا ترى إلا الايجابيات. وما الاعتياد إلا من هذه الايجابيات..

ولجنا عبر باب خشبي عريض من طلاقتين، وفوقه قطعة معدنية صفراء خط عليها بطلاء له لون التمر "معمل صناعة الرُب".. كانت الإدارة بمواجهة من يدخل. وكان الذي نهض من خلف منضدة صاجية رجل أربعيني مهندم، ببدلة إفرنجية رمادية اللون وربطة عنق حمراء. متورد البشرة وله شعر اسود كثيف. له طول فارع ونظرة تشي ببهرجة غنى ورفاه.

تهلل إذ اقتربنا من باب مكتبه المشرع، وانطلق يرحب:

- "أوه، دوردانة! كيف تذكرتِني؟"

ابتسمت ولم تضحك، مع أنَّ ملامحها كانت تشير إلى أنها ستطلق ضحكة لعظم دهشته.

جلسنا على الأريكة الفاخرة المطهمة بسجادة تزدهي بألوانها. وكانت صورة اتاتورك بزي عسكري ونظرة حادة لقائد تطفح عيناه بالجدية والحزم بمواجهتهما؛ وتحتها رف عريض تراصفت عليه علب زجاجية فيها سائل قهوى، وأخرى بلون الذهب فيما علب معدنية اسطوانية عليها صور لثمرة تفاح وإجّاص زاهية ووجه متورد لفتاة تحمل واحدة من هذه العلب وتبتسم كأنها تدعو الناظر إلى ضرورة شرائها واستعذاب محتواها العسلي.

تحيات متبادلة، وتعبيرات عن شوق.. حديث عن أعمال متراكمة. من جانبه تحدث عن سفرياته ومشاهدته بلدان أوربا واشتياقه لها وهو في تلك البلدان "لم أجد أجمل منك يا دوردانة.".. كان يبغي الاستمرار بالحديث انتقالاً إلى الغزل الماجن لولا انه انتبه لوجودي إلى جانبها.. أما هي فتحدثت عن اسطنبول كمدينة تعيش الانفتاح وترتقي فيها الثقافة لمضامين ودرجات تراجع فيها فضول الناس وانتقادهم لمهنة تمتهنها ويحسبونها من المحرمات.

وبين هذا وذاك طرحت عليه موضوعة عملي في المعمل وتوفير سكن لائق لي، راجية ايلائي الاهتمام.

لم يتـوان الرجـل عـن التصـريح بترحيبـه واعتبـار رجائهـا أمراً.

رفع جرساً برونزياً بشكل ناقوس وهزّه فانطلق الصوت يجلجل. لحظة، وظهر عامل خمسيني العمر ببدلة عمل زرقاء:

- "يا يَشار، ضم صديقنا هذا".. وأشار اليَّ كأنه يستفهم عن اسمي فبادرته دوردانة قبل أن أفوه: "اسمه هاتف... ها.. هاتف.. وفّر له سكناً مع سيمور وفيكتور. جهز مكانه بالسرير والعفش الجديد؛ ومن الغد سيكون ضمن كادر العاملين عندك."

انحنى الرجل راسماً ابتسامة بمثابة رسالة ود وجهها نحوي.

****

معمل صناعة رُب الفواكه هو ما وجدت نفسيَ أشتغل فيه. صناعة رب الفواكه تشبه في اجراءاتها صناعة الدبس في العراق. كان ثمة معمل صناعة دبس في الطريق المؤدي إلى مدرسة المأمونية التي أتعلم فيها. وكنت اذ أمر من أمام المعمل الصغير الذي عبارة عن دكان كبير أشم رائحة بخار التمر المغلي في قدور نحاسية كبيرة، وأشاهد العمال بملابس رثة تفوح منها نفس الرائحة. وفي دكاكين العطارة

أبصر الصفائح المعدنية لنوعين من الدبس: النوع السائل باللون البني الداكن والنوع الآخر الصلب بلون الذهب الأصفر؛ وهو النوع الذي أحبه وأطالب أمي بشرائه بدل السائل الداكن حين تطبخ حساء "الشلّة" أو تدوفه مع وجبة الرز الذي تتعالى منه نكهة البخار العذبة في ليالي الشتاء الباردة في المعمل حيث العمل يبدأ من ساعات الصباح الأولى حتى الرابعة عصراً خصصت الإدارة للعاملين من غير مواطني اسطنبول بيتاً بغرفتين صغيرتين وحوش مفتوح على السماء يجاور المعمل. بعدها يكون العامل حراً.

وقفت في حوش الدار أطالع الغرفتين. ثلاثة عمال من أماكن بعيدة يشغلانها. أما العمال الآخرون فهم من اسطنبول. يبرحون المعمل بانتهاء عملهم ولا يظهرون إلا صباح اليوم التالي.

نظرت إلى الشابين النزيلين. كانا يقاربانني العمر؛ عرّفا نفسيهما: فيكتور وسيمور، أما النزيل الثالث معهم فأربعيني لا يرونه إلا في وقت متأخر من الليل حين يأتي لينام. اعتاد صرف وقت ما بعد العمل خارج البيت. اعلماني بأنه يعشق لعب الورق ويعتقد انه يقامر مع مريدين يغرمون باللعب والمراهنة. لكنه لم يتقدّم يوماً للاستدانة منهما.. اقترحا عليَّ مشاركتهما الغرفة وإبقاء الغرفة الثانية

لزميلهما ، ففعلت.

كان سيمور بجسد رياضي محباً بولع للعبة الزورخانة. يميل لأن يمشي فيعجب من يشاهده بقوام منتصب وعضلات مفتولة. أخذني مرةً معه إلى نادي الكلته سراي.. تلك المرة تكررت برجائي الذهاب معه.. وهناك استطعت الانضمام لفريق كرة القدم. رآني المدرب لاعباً أحسن التمريرات وأتفنن في نقل الكرة. صرت بعد وقت من اللاعبين الذين يعوّل عليه المدرب أداءً جيداً. لكنَّ القدر وقف بالضد من طموحي عندما أراد لي أن لا أكون نجماً رياضياً فعرضني لإصابة ثقيلة أبعدتني عن اللعب نهائياً وجعلتني أتوجع حين السير الطويل او التعب الشاق.

كانت رفقة حميمة مع الاثنين، وعمل وجدت فيه ضالتي.. غير أنَّ دوردانة كانت قرينة ساعاتي في العمل، ورفيقة خيالاتي حين أرمي رأسي المتعب على وسادة الرحيل في زورق الكرى.

أفصحت لفيكتور عنها ، وأعلمته أنها هي التي جاءت به للعمل معهم، وأنَّ مالك المعمل رحب بها وتلقى رجاءها له بالود والاحترام.

****

مفردة "تقسيم" التي دخلت أذنه مرة وهو ينصت لكلام

تداوله سيمور وفيكتور صارت تتردد صدى أولاً ثم بعد ذلك رنين (هذا ما كتبه واخذ عدة صفحات من الكتاب) سمع انه مكان لا يبعد كثيراً عن القره كوي، وان في بيوته من الشابات ما يتجاوزن الاوربيات جمالاً. يُشبِعن الزائر شهوةً ولا يَشبعنَ.. التقسيم هذا اوصله اليه فيكتور وسيمور؛ وهما اللذان هجراه بعد حادثة مأساوية، وجعلاه يذهب لوحده في ما بعد.

ففي أمسية جميلة خرج الثلاثة، هو وفيكتور وسيمور، من بار يديره شيخ عجوز أحمر البشرة بشارب ذهبي كثيف وقد تدلى على صدره المكشوف صليب فضي كبير. يجلس الرجل بوقار، كأنه يؤدي مراسيم كهنوتية في دير، وراء منضدة يرتفع عليها نموذج رخامي مصغر لفينوس آلهة الجمال. التمثال يقع وسط دائرة نور أصفر يهطل منه مصباح داخل قبعة مخروطية. شربوا أربع قناني بيرة، وكان ضمن برنامجهم الذهاب الى التقسيم للمتعة.

دخلوا المبغى، واختاروا المومسات اللائي ظهرن لهم أجمل ما معروض.. هو اختار طويلة نحيلة يتهدل شعرها اللامع بفعل زيت زيتون تفوح منه الرائحة. كانت لحظة دخلوا تمشطه أمام مرآة جدارية ولوح ظهرها الحليبي فيه لمعة وخط عرق يتخذ طريقه بمسار عمودها الفقري نزولاً الى شورت

قصير جداً من اكتناز بحيث يظهر سفحا عجيزتها وقد امتلآ رواءً، واختار فيكتور اربعينية ضخمة بعمر أمه سمراء متوسطة الطول بينما فضّل سيمور فتاة ممتلئة كان كثيرا يمني النفس بعاهرة يتعارك أعضاء جسدها حين تمشي. يقول أريدها كجارتنا التي نهرتني كثيراً لمشاهدتها لي اتجه نحوها فظنتني متجه لالتهامها عظماً وقضماً وتفليساً، وأنا كذلك.

توقف فجأة إيقاع الرهز والحمحمة والتعرق عندما اندلع في الممر صوت زعيق متواصل؛ جعل هاتف يقفز من فوق صدر العاهرة التي كانت تنتظر انتهاء غزوته بفارغ الصبر وتواجهه ببرود فيه نفور وضجر. (هكذا هن العاهرات حين ينتهي دفع اجورهن يتحولنَ أجساداً ميتة ونفوساً متململة). هرع الى الباب يفتحها محاولاً تغطية عريه بقميصه ليكتشف وسط دهشته ورعبه فيكتور عارياً والعاهرة الضخمة بعريها هي الاخرى وشحمها المتهدل تنهال على رأسه بالشبشب تشتمه بلسان سليط وتسخر منه: "يا أرمني، يا خنزير.. لا تستحق نهد من نهودي ولا شعرة من عانتي." وعادت تنهال عليه. (هو) يحاول العودة الى الغرفة لأخذ ملابسه و(هي) تدفعه في الممر وتريد ان ينزل السلم عارياً ليكون فرجة للعاهرات في الصالة.

كانت لوعته لما مر به فيكتور كبيرة وعارمة. وقد أثرت في أعماقه كطعنة سكين... يصفه هاتف بأسطر مضمخة بالتعاطف والمحبة: "كان شاباً مهذباً بخلق عالٍ. لا يتكلم الا حين تسأله او تطلب رأيه؛ اغلب آرائه مصيبة وفاعلة. كان صموتاً لكن صمته رسالة فهو يخشى ان تؤول كلماته فيطرد.. كان حذراً لكن حين يمشي يرسم صورة الواثق من نفسه.. كان مبتسماً إذ تلتقيه لكنه عبوس كظيم حين يختلي بنفسه.. كان حكمةً تنتظر من يطرق على بابها فتتقبله بروح المودة.. كان الأنا التي يتمنى كل فرد أنْ تذوب في أناه كي يكتمل في حياة قادمة هي من عداد الغيب. فيكتور نقي، وفيّ، رحمة... ما الذي فعله حتى اثار غيظ العاهرة؟ وكيف عرفت انه أرمني.. هذا ما أخبرني هو به بذلك.. اعلمني أنه يمارس الجنس لأول مرة فلم يعرف اين يضعه. هي ظنته يحاول ايلاجه في دبرها فغضبت. أما عن معرفتها به كأرمني فأعلمني سيمور أنَّ النصارى لا يختتون، نحن المسلمين ومعنا اليهود مَن يُختن قضيبُهم.

تلك الحادثة أبعدت فيكتور نهائياً عن الذهاب للمبغى، أيّ مبغى. وافقه سيمور، فلم يذهبا معي مجدداً رغم الحاحي ورجائي... بقيت أتردد كلَّما طفح كيل الشهوة بروحي. ظننت انني اكتشف دوردانة بواحدة من المومسات التي

ساتجامع معهن؛ لكن ذلك لم يحدث! لم يحدث أبداً."

تنامت علاقته بفيكتور بعدما كان حذراً منّه كمسلم مع أرمني؛ لكن للأيام حكمتها في تنمية العلاقات، في توسعها أو انحسارها؛ و"ربَّ أخٍ لم تلده لك أمُّك"؛ وهذا ما حصل. إذ استحالت الصداقة إلى أخوة.

تلك الأخوة دفعت فيكتور احدى المرات بناء على رغبته لارتياد بار شعبي في السركجي يجمع عمال السفن بملابسهم الزرقاء المبقعة بالدهان وعمال سكك الحديد وقد بقي الكثير من سخام فحم تشغيل الماكنات في وجوههم وبين شقوق راحة اكفهم الخشنة وأظافرهم، كذلك باعة الأسماك والخضر والعاملين في المقاهي بعدما انتهاء اوقات عملهم.. كانت الضوضاء تتداخل مع دخان السجائر وهي تعلوا في فضاء البار دون ان تقدر مفرغات الهواء القريبة من السقف على انهاء الملحمة. بدا كمال اتاتورك في صورته الكبيرة المؤطرة بالزجاج غاضباً وعيناه الزرقاوان تطلقان شرراً وكان موشكاً على خلع فينته ومعطفه العسكري ليهبط فيلقي كلمة انفعالية يعبر عن امتعاضه من مجتمع لا يحب الهدوء ولا يسعى لجعل جلسات الشرب ملتقيات لعرض الطابع الحضاري لمجتمع أنيط به الانتقال إلى مصاف المجتمعات الأوربية... كان فيكتور رغم

رهافتـه يشـعر بالألفـة ويتمنـى أن يكـون المجتمـع بسـيطاً كبساطة هؤلاء العمال الذين يؤدون واجباتهم بإخلاص ثم يمنحون الجسد وقتاً للاسترخاء بوصال إنساني خالص.

يشرح همومه كأرمني وسلطة تحاربهم وتحاول القضاء على وجودهم في تركيا.

رآه يطالع كتاباً كلما أتيحت له فرصة. وفي الوقت الذي يرمون برؤوسهم على الوسائد بعد نهار عمل مضن يسحب هو من تحت وسادته كتاباً ظنّه هاتف غازي كتاب الإنجيل يرتل به. لكن وهو يرتب سريره وفراشه مرةً لمح عنوان الكتاب (أوراق العشب)، وضعه على طاولة صغيرة جنب مسجل غراندنك بأسطوانتين قبل أن يعيده إلى ما تحت الوسادة كأنه يخشى اكتشاف احد لوجوده. كان كثير التعلق بالكتاب مثلما ينشغل طويلاً بالاستماع لموسيقى قال عنها أنها سيمفونية فيفالدي يجسد فيها فصول السنة الأربعة.

"أشاهده يقرأ أوراق العشب باهتمام ويقلب صفحاته، ثم يعود من جديد لما قرأ كأنه لم يشبع من غذاء الكلمات التي مرت عليها لوامس روحه. وحين يركن الكتاب يفتح جارور الطاولة فيستخرج دفتراً يدون فيه أفكاره وذكرياته.

صارحته مرةً: ظننته الإنجيل تقرأ به.. ابتسم؛ وقال: "لا

هـذا كتـاب لشـاعر أمريكـي اسمـه والـت وتمـان لـه سمعـة عالمية، وشعره يمس شغاف القلب. يعبر عـن مشـاعر الإنسـان الصـميمية تجـاه الأرض. كاتـب كوزموبوليتـاني يحـب الإنسان. يتعالى على العنصرية والشوفينية وينبذ التعصب.".. بريـق مـن الحماسـة كـان ينبعـث مـن عينيـه.. كـان يريـد ان يـتكلم أكثـر، لكنـه لجـم نفسـه.. قلـب صـفحاته قبـل أن يقول: احب القراءة.. يجب ان نقرأ "... وافقته بنظرةٍ إعجـاب، وفي القلـب ادخلتـه صـديقاً نقيّـاً. "لقـد ادهشـني، وجعلـني احسبه الشاب المثالي."

كتب هاتف الجملة الاخيرة بالخط الثخين.

الاشهر فوق الاشهر مرت.

"في غمرة العمـل تقادمـت الايـام.. كـان فيكتـور وسـيمور خيرا صديقين له."

لكنَّ دوردانة سهمٌ في خاصرة طمأنينته. كلمـا انصـرف وقـت صـرخ مـن الم الـذكرى.. كلمـا تناقصـت اوراق الروزنامـة المعلقـة علـى جـدار غرفتـه وبمواجهتـه تمامـاً حالمـا يفتح عينيه مـن علـى الوسـادة اطلق حسـرة، وصـرخ الـذي في داخله: ايامك التي تصرفها في اسطنبول باتت هباء.

تزوجت دوردانة وهاجر بها مـن عشـقها.. عشـيق اغـرم بهـا مثلك فرافقته الى ألمانيا.. ماذا بقي لك إذاً؟!

غياب دوردانة زرق روحه بأكسير التطيّر! جسدها الذي غادر ترك روحَها تلاحقه. توقظه من نومه أو تهمس له حين كانا يجلسان على شاطيء مرمرة بين مجموعة مناضد يتخذها الناس فرادى او عائلات تنعم بلذة الطبيعة وعذوبتها.

يعبُّ نسماتٍ بشذا فاغم تتماوج قريباً من المكان! لكأنه يستشعر انفاس دوردانة وتأوهاتها التي كانت تطلقها في زياراته للمبغى. تأوهات اشد حرارة.. صدرها يعلو ويهبط.أجفانها لا تقاوم تراجع حدقتيها فتنطبق وسط ضم ذراعيها على ظهره.. تعتصره وتريد لجسدهما ان يلتحما.

كان مراقب الغرف في المبغى ينتقدها على طول فترة بقائها معه مبرراً خشيته ان يكون الذي يجامعها ارتكب حماقة الإضرار بها، وهذه حالة تضعها ادارة المبغى دوماً في الحسبان، موظِّفة أكثر من "بودي كارد" للوقوف بوجوه الحمقى ممن تراودهم فكرة الاعتداء.

انه الآن لا يفكر بها جسداً. إن روحه لتسمو فترفعها من درك الشهوة والمجون الى مرتبة الصداقة وخانة النقاء.. يطالعها فناراً يهدي روحه الضائعة الى بر الأمان.

ثم أنّه ملَّ اسطنبول وشبع منها. سبع سنوات صرفها هناك.. لم يبق كما يحاور ذاته حيٌّ ولا ساحة الا وطبع على أديمه خطواته، لم يظل متنزه، سينما ومسرح، ملهى

ومـرقص، مبغـى وعـاهرة الا وشـبع منهـا أكـلاً وشـرباً؛ إلا دوردانة ظل جوعه لها لا ينتهي وعطشـه منهـا لا حـدود لـه. إنَّ قلبـه لبحـر، وإنَّ دوردانـة لسـفينة تبحـر فيـه فهـو بحرُهـا.. "آآآآآآه دوردانة، دوردانـة!! " (ردَّدهـا كـثيراً في الكتـاب)..." بفقدك لن تحلو اسطنبول، ولن يكون لها وقع في النفس. لم تعد بيت شعر اردده أو أغنيـة أتـرنم بهـا. صـار كـل شـيء بـلا دوردانة لا شيء.. ينبغي إذاً جعل اسطنبول ذكـرى.. سـأدونك يـا اسـطنبول اكرامـاً لدوردانـة يومـاً علـى الـورق.. إن للـورق مهمة الصندوق، والكلمات لآلـيء يختزنها في جوفه."

تقوده قدماه في ساعة جنون وشوق جارف لدوردانة.. تقوده قـدماه لزيـارة اسـرتها.. هنـاك حصـل علـى عنوانهـا. ورقـة كتبتها بخط يدها.

في المنضـدة الـتي تجـاور نافـذة تطـل علـى بحـر مرمـرة احتسى ثلاث قنان من البيرة المثلجة فـأحمر وجهـه واحتقنت عيناه. طالع الجلاس حوله. ابصر الوجوه تشع بالنشـوة.. ثمـة زورق فيري كبير يحمل سياحاً صوب مضيق البوسفور؛ ثمـة شعور راوده بشجاعة السياح تاركين بلادهـم مـن أجل المتعـة والاكتشـاف؛ ثمـة احتـدام داخلـه وتحـدٍّ في كسـر طـوق التشبث بوجوده مأسـوراً بـأجواء اسـطنبول.. يتحسـس الورقـة في جيبـه. يقـرأ مـا كتبتـه دوردانـة لامهـا "هـذا عنـواني في

برلين.. إن لم تعجبني المدينة يا أمّي، أو رأيت سلوك زوجي يتغير سأعود اليكم".. يقرأ كلمات العنوان ويعيد الورقة لجيبه.. قرر أن لا يفقد العنوان هذه المرة كما فقد عنوان جدّه، وصمم على الاحتفاظ به كتميمة تمنحه العزم وإدراك مبتغاه.. يستعيد وجه دوردانة باستدارته ورموشها السوداء وهي ترفرف؛ تلتصق وتنفرج، تلتصق وتنفرج فيستعذب الحركة ويطالبها بتكرار الرفيف كلما أراد توسيع مساحة عشقه لها في قلبه، وكلما أراد أن يبكي ولعاً ولوعةً احتفاءً بها قريبة منه.. يستعيد شفتيها وهما تذوبان وسط شفتيه فيغرق في بحيرة الهيام ؛ ورقبتها وهي تفرجها بدفع رأسها الى الوراء كي يسقط لثماً ولعقاً وعضاً مُحبَّباً يأخذها الى مرفأ التأوهات والذوبان العذب... " سأذهب الى ألمانيا.. صرخ بصوت عالٍ جعل وجوه الجلاس تستدير نحوه، ثم بعد صمت ولحظة ذهول يطالعون بَهته المفاجىء.

سأذهب!.. سأذهب يا فيكتور.. أنا معك؛ لن اخذلك.

****

انتبهت الى أن الساعة تجاوزت الواحدة، والنزل يطفو على سكون، والزقاق يشهد صمت مطبق والسيارات التي عادة ما تصل أصوات محركاتها أو كوابحها في الرشيد الى فضاء النزل وتدخل غرفنا قد خفتت وقل مرورها..

كانت رغبتي مواصلة قراءة الصفحات التالية؛ فالسرد مشوق وسيرة الرجل لا تبدو عادية، فقد مر بحوادث تستحق اكتساب التجارب من التفاعل معها والخروج منها. كيف استطاع ذلك الشاب دخول معترك الحياة دون ان ينكسر حدَّ الهزيمة ويسقط مضرجاً بوحل الانكفاء والعودة للوطن مأكولاً بحنين الاهل او مهروساً بسنوات البعد كما جرى لآلاف مؤلفة ممَّن غادروا بلدانهم وفي رؤوسهم تصميم اللاعودة، فخذلتهم عاطفة القلب وأطاحت بهم زوابع الحنين. رغبتي كانت مواصلة القراءة حتى الصباح لكني تراجعت إذ تخيلت نفسي في الشعبة اطوّح برأسي على منضدة الكتابة وسط دهشة زملائي الموظفين وامتعاض أديب جرمانوس.

قلت لأنم لعلّها الأحلام تواصل ملاحقته، فألتقيه ليواصل ملاحقتي برحلته.

(٤)

دهشة مغموسة بالشوق

وقت ساعات العمل لا تسمح بالقراءة وأديب جرمانوس يطير عقله وينفعل حين يبصر موظفي شعبته يحاولون إضاعة الوقت، وخصوصاً أنا.. يطاردني أينما ذهبت حين يرى بيدي كتاباً. بل ويطلب مني رميه والتخلّص منه. "الكتب لا تجلب لك سوى البلوى" يقول. "ستكون لك أسرة تقع تحت دائرة العقاب بسبب الكتاب الذي تقرأه." يواصل.. "إذا كنت تحب القراءة فيمكنك إكمال دراستك الجامعية خصوصاً وأنت بشهادة الثانوية الآن.. لن أمنعك، إنما اشجعك "يردد بانفتاح.." أما الكتاب غير المنهجي فلا.. انه يهشم مفهومك البريء للحياة ويرمي بك الى عالم الانتفاض والثورة ونحن في واقع كل ما يحيطك غير سوي ولاعقلاني".

يُفصِح باحتجاج وهو يرفع بصره نحو صورة للرئيس احمد حسن البكر في نفس الإطار الذي كان يضم صورة عبد الرحمن عارف.. كانت الصورة معلقة على الحائط بمواجهة الباب. فمن يدخل سيواجه الرئيس قبل مشاهدة

موظفي القسم.

كنت أخذت الكتاب معي لعلَّي أحظى بفرصة لمطالعة عدد من الصفحات لكنني فشلت واضطررت لحمله معي عندما نزلت قاصداً الكافتيريا لتناول لفّة شلفراي متبَّلة ببهارات حارة اعتدت تناولها كفطور صباحي. كانت الكافتيريا شبه فارغة؛ وكان العاملون متوزعين بين المناضد وما وراء القاطع الذي توضع عليه الصحون الممتلئة بالوجبات المطلوبة وقف متعهد المطعم. وهناك داخل المطبخ ينتظر احد العاملين أمر الطلب ليجهّزه بينما آخر يتهيأ لاستلام ما يُعاد، فيرمي الفضلات في سطل القمامة ويتوجه ليغسل الصحون في السِّنك ويجففها بالمنشفة المعلقة من طرفها بسلك الى جانبه، ثم بعد ذلك يتولى رصفها في صف الصحون الجافة.

رأيت أحدى موظفات قسم التخمينات بشعرها الأسود المتدلي كذيل حصان وقد أكثرت من كحلة الرموش وقلم تحديد الجفون. كانت تتمثل بسميرة توفيق التي حضرت قبل أسبوعين مع المتعهد العراقي الذي استضافها لحفلة مسائية في نادي المهندسين وكان حضوره لدفع ما مترتب عليها من ضريبة. الموظفة تقابل بجلستها موظفاً آخر. غض موظفو الدائرة النظر عن نقدهم لأنهما على وشك إعلان

خطوبتهما.. موظف آخر يجلس عند منضدة جوار النافذة المطلة على الحديقة الصغيرة التي جهد حارس الدائرة في تنظيمها فزرع ورود الجوري وزهور شجرة اللوتس كي يستمتع الموظفون بلون زهورها الكأسية الصفراء.. وراء العارضة التي تنتصب عليها الصواني والصحون اتكأ المتعهد ينتظر الطلبات. كان أغلب الموظفين مترفين ومبتهجين؛ وجوه مرتوية وجيوب لا تخلوا من النقود. يفضلون تناول الفطور في المطعم على تناوله في بيوتهم.

لم يخطر ببالي أن جرمانوس سيأتي للكافتيريا في هذا الوقت، هو الذي اعتاد على انتظار عودتي إلى الشعبة. عندما دخل بعدي بخمس دقائق وكنت أسرعت بالتهام الوجبة مختصراً الوقت المفترض لتناولها، مقررا شرب الشاي أثناء القراءة. أقول عندما دخل ولمحني عن بعد أمسك بالكتاب، شُبّه لي أنه قطب حاجبيه واظهر امتعاضاً. استنتجت ذلك عندما دنا من منضدتي وقال: هل انتهيت؟ إذا ممكن عد مسرعاً. ثم تحرك ليجلس عند منضدة يتناول عليها رئيس قسم التخمينات وجبته.

بين لحظة وأخرى كان يلتفت للتأكد من مبارحتي المكان. ومع كل نظرة كان يرسي نظراته على الكتاب الذي معي. شعرتُ أن البقاء ضرب من المجازفة. نعم مجازفة

حين يتعلق الأمر بإغضاب جرمانوس.

كان أديب جرمانوس طويل القامة ونحيفاً بظهر اقرب للتقوس. تنتصب النظارتان الطبيتان فوق انفه الصقري بينما شعره خفيف متماه بين الشقرة والسواد وقد غزاه شيب الخمسين فاختلط معهما اللون الأبيض يميل على جانب... شتاء يأتي الى الدائرة بمعطف اسود اشتراه من اورزدي باك. وحين نشاهده يتراءى لنا كأننا نرى الممثل الأمريكي كريكوري بك. على الدوام يبدي تذمره من البرد أما صيفاً فيفضل لبس قميص نصف كم ابتاعه من محلات "قمصان وأربطة البلداوي" يكره لبس القميص بكُم كامل. ومثلما يعلن تذمره من البرد شتاءً فانه لا يقل تذمراً من الحر وكثيراً ما فتح أزرار قميصه فتظهر فانيلته القطنية مبلله بالعرق كأنها أدخلت في حوض ما وأخرجت.

كانت رؤيتي عنه ضبابية. فهو لا يحب الكتاب. يظهر تكدره كلما رأى احدنا يأتي بكتاب ويفتحه داخل القسم.. كيف يكون هذا الرجل كارهاً للكتاب وهو يتصرف بما ينم عن سلوك إنسان حضاري متمدن، والمعروف أنَّ الثقافة قرينة الحضارة؟.. كيف يكون كارهاً للثقافة وهو الذي يحثني على مواصلة تعليمي الجامعي ويبدي استعداداً على استحصال موافقة مدير الضريبة على منحي

الساعة الأخيرة من عملي كي استطيع الوصول للجامعة بالوقت المحدد دون أن تفوتني المحاضرة الأولى؟ كيف يكون هذا الرجل كارهاً للكتاب وهو مَن يبعث ولديه خارج البلاد كي يكملا تعليمهما العالي فيعيش التقشف من أجل توفير ما يساعدهما على نيل شهادة تضعهما عند تخوم البحث الدائم خدمة للإنسانية والوطن؟ أتراه يتصرف بأنانية الكبار الحاسدين عندما يبصرون شباباً بعمر أبنائهم يعيشون العمر برغبات وآمال فقدوها ولم تتحقق لهم؟ أتراه يتصرف بأنانية من يظنني أتسلق الدرجات الوظيفية سريعاً فأستحوذ يوماً على رئاسة الشعبة، لاسيما والنظام الجديد شرع يضع رموزه في الحلقات المفصلية المهمة بدوائر الدولة ويجعلهم يحلون محل غيرهم من القدامى على اعتبار ان القدامى محملين بفكر لا يتوافق وفكره ونظريته؟.. لماذا ينهال عليَّ بالنصائح في عدم مطالعة كتاب وترتعش شفته السفلى وتهتز رموشه قلقاً لمجرد مشاهدتي أطالع صحيفةً أو اقلب صفحات كتاب؟.. أسئلة وأسئلة تتبارى في رأسي.

على أية حال؛ كان شغفي لمواصلة الجزء الثاني لمغامرات هاتف غازي يتراغى ويكبر.

أنتظر الليل واختلائي في غرفتي.. كان الليل ميداناً للمطالعة.

الساعة الآن التاسعة مساءً..

تمددت على السرير واتكأت بظهري على الوسادة، مبحراً في أجواء السِّفر الذي حمل عنوان (اليونان.. ما جرى). ورحت أقرأ ما كتب:

العلاقة بفيكتور نمت وتطورت. وفيكتور صار يتودد لي كثيراً. قاده هذا الود الى أن يصارحني برغبة الهجرة من تركيا والرحيل لبلدان لا وجود لاضطهاد جنسه من الأرمن.. انه يبغي العيش بلا منغصات، ويسعى لنسيان ما حصل لأهله وأقربائه من عَسَف كان التعذيب والتجويع وانتهاك الحرمات ديدن السلاطين العثمانيين في تعاملهم معهم؛ لا لشيء إلا لأنهم يدينون بدين غير دينهم.. "سلاطين تلبسوا بلبوس الإسلام"؛ كما همس لي مرةً، "فعاشوا على إيقاع الخديعة والتحايل، ماجنين داعرين لا يشغلهم غير إشباع شهواتهم متدرعين بسلطة ترفع الهراوات فوق الرؤوس فتنهال بها حين التوجع والتألم والاحتجاج."

تلك المصارحة لقيت قبولي. فتطبيق فكرة الرحيل تعد الخطوة الأولى نحو مسيرة الوصول لدوردانة؛ وما مسيرة الألف ميل إلا الخطوة البداية.. لذلك حددنا يوماً ننطلق فيه.

وفعلاً تركنا العمل بعدما جمعنا ما يعيننا على تصريف الحال من تنقل وغذاء؛ وكانت وجهتنا كما اقترح فيكتور

اليونان.

سعيد فيكتور انه يحمل معه في جيب بنطاله الخلفي كتاب ويتمان ودفتر مذكراته.

احدى الصباحات انطلقنا من محطة السركجي نحو مدينة أدرنة على الحدود الغربية المحاذية لليونان. هنالك؛ قضينا يومين نستطلع ونسأل عن كل ما يعنينا للوصول إلى الحدود. طبيعة التضاريس، كيفية العبور بأمان، المفاجآت المحتمل مواجهتها ، التصرف مع الجانب اليوناني في حالة نجاحنا في تجاوز الحدود ، هل بالمقدور العيش هناك، هل يمكن الحصول على عمل بلا جوع ولا تسكع ولا اضطهاد. نعم..

تركنا وراءنا آخر قرية شاهدنا فيها الدرك التركي، وما بعدها سلسلة جبلية ووديان يتكاثف فيها الشجر، استقبلنا بعدما قطعنا أحراشاً ومفازات شذا ورود شجيرات "مِسك الليل" الفاغم. فيكتور اعتبر ذلك فألاً حسنا لبلوغ هدفنا. نسمع خرير مياه الجداول المتشكلة من ذوبان ثلوج كانت تتصهر تحت هطول الشمس. كان المزارعون العاملون في مزارعهم يتفادون الظهور وسط دائرة ضوء النهار خشية تلقى سهام البريق الذي كالمرايا في القمم والسفوح.. الشياه والأبقار هي التي تتحرك وسط فيض النور تطأطئ

رؤوسها أرضاً فلا ترفعها ساعة انهماكها باجترار العشب الطري واليانع.

أخذ فيكتور يحثني على الجري والتخفّي، الصعود والهبوط. هدفنا التسلل وتجنب الوقوع بأيدي حراس الحدود. أقول له لأول مرّة أقطع دروباً عثرة وارتقي جبالاً. اركض على منحدرات وألهث كجرو لم يعتد قطع المسافات. أقول ذلك وركبتي تؤلمني، وأتأوه، ينغرز الألم كسكين في غضروفها. يسمع فيكتور أنّتي المكتومة فيتعاطف معي، لكنه يقول: ماذا نفعل؟ التأخر وظهور خيط الفجر يكشف تحركنا فيتسبب في فشل خطة الاجتياز.. استرجع في محاولة تناسي الألم أو إبعاده حدث تمزق غضروف ركبتي في تلك المباراة التي قضت على آمالي في أن اصبح لاعب كرة قدم شهير تعتز به منظومة نادي كلته سراي، فنظرة مدرب الفريق كانت تتوهج وهو يشاهدني اندفع بمهارة بعد تلقي الكرة ورميها في الزاوية البعيدة لهدف الخصم محققاً فوزاً يؤكد أهميته في تحقيقه.. كانت المباراة المهمة التي جرت بين فريقنا وفريق نادي كلته سراي، وكانت حاسمة لإحراز الفوز للمرة الأولى في الدوري التركي، فقد اطحنا بعديد الفرق العتيدة التي لها سمعتها ورصيدها الكبير في الإعلام لما يرصد لها من ميزانية مالية ضخمة تبدد أمامها

مبررات التلكؤ التي تصيب كثير من الفرق. كنا انهينا الشوط الأول بالتعادل، وكان فيها الخصم عنيداً ومقتدراً. هجماته تفوق هجماتنا سرعة وخطورة وعدداً حتى أننا كنا نرى من وراء غلالة أنظار مدربنا غيوم الخشية من الهزيمة، بل تأكد لي وأنا أبصره يحثنا على استنهاض طاقتنا وشحذها إلى أقصى درجة، أليست هي المباراة النهائية؟.. إن رايات الإخفاق تتلاطم في بؤبؤ عينيه ودموع الفشل تحتشد في مآقيه.. ومع انطلاق الشوط الثاني، وبناء على تغييرات طفيفة وجمل تكتيكية طلب منا تطبيقها على المربع الأخضر استطعنا الوقوف بوجه خصمنا بعناد واستطعنا في الدقيقة الثمانين من إحراز هدف خاطف تسبب في جنون لاعبي الخصم فراحوا بهياج الثيران العمياء يرتكبون الأخطاء ويعتمدون الخشونة المتعمدة، وكان منها أن خرجت في الدقيقة الرابعة والثمانين مصاباً بألم فضيع في ركبة الرجل اليمنى عندما دفع المدافع الخصم العملاق قدمه وبقوة حيوانية ليضرب قدمي بدلا من الكرة ويتسبب بالجريمة الكبيرة التي أقصتني عن اللعب إلى الأبد، فقد طلب الطبيب المعالج وقت انقطاع عن اللعب دام أربعة أسابيع، ومن ثم قدم تقريره النهائي في عدم صلاحيتي للعب مرة أخرى. عندها تسلمتُ مكافأة وأصبحت اجلس في مدرجات

المتابعين. صار حلم العودة للبساط الأخضر كالأمنية التي لا تتحقق، وصرت بدلاً من رفع ذراعيي احيي محبي كرة القدم المحتشدين في المدرجات من البساط الأخضر الى متفرج يرفع ذراعيه ويطلق صيحات الحماسة وقوفاً مع فريقي المفضل.

"لم يبق إلا القليل".. قالها فيكتور لاهثاً ومحاولاً تصنع النكتة كي أتجاوز ألمي "هيا، تخيل دوردانة معنا، فهل تظهر لها حصانا يكبو ويتعثر؟".

كنا كأشباح نخترق حشداً من الأشجار. نسمع على البعد عواء الذئاب ونباح الكلاب المتقطع. نتخيّل اندفاعات الخنازير البريّة تهمَّ بالهجوم علينا بعدما شمت رائحتنا وتسمعت أنفاسنا. ننبطح وسط حزمة أعشاب وقد قطعنا النفس وجمَّدنا الأعضاء، ثم بعد حين ننهض من جديد.. في عديد المرات اتخذنا هيئة الدببة التي تهرول كالسعادين وتسير على طول قامتها كالزرافات.

ما أن اجتزنا مسافة مائتي ياردة حتى تبدّى لنا هيكلاً رمادياً مُعتماً خمنّاه بناية تتوشح بالسواد. قال فيكتور انه المخفر الذي يتخذه الحرس التركي كنقطة حدودية اذا استطعنا اجتيازه غدونا في مأمن، واستطعنا بعدها جر الأنفاس. سيكون بمقدورنا حين نجتاز مسافةً الدخول لقرية

كاستانيس؛ هناك سندخل كنيستها، وسأتولى التفاهم مع القساوسة وأطلب مساعدتنا.

ولم تمض دقائق من الزحف على البطن والصبر على تجاوز أشواك انغرزت في بطوننا وبخار أدغال عطنة مشبعة برائحة فضلات ضفادع كانت تنق من بقعة مائية قريبة منّا فتساعدنا في تقليل الحذر من وصول احتكاك أجسامنا بالأوراق اليابسة والأغصان المتكسرة حتى صار المخفر التركي وراءنا. عندها سحبنا أنفاس الارتياح ووجدت فيكتور مختلفاً ليس كالذي كان قبل الحدود. ظهر مرِحاً يقول النكتة ويكركر ولو بخفوت، كأنه طفل فرح من موقف كان يخشاه ويشعر أن سينال عقوبة مهولة في حال ضبطه.. سحبني من يدي وجرني من بين غلالة الظلام لنجلس مستندين على جذع شجرة جوز وتحتنا الحشائش ريشية يانعة بللها ندى السَّحر. أخرج شطيرتي لحم في رغيفين تيبسا بتأثير تعرضهما للهواء دون علمه. همس: لنجعله فطوراً واكتساب طاقة.

كان خيط الفجر قد بزغ في الأفق الشرقي وظهرت مسحة حمراء تشي بقدوم الشفق، رسمتها فرشاة الرب بروح سحرية تبشر بالأمل عبر نور يزحف باتجاه وجودنا بينما تنادت زغاريد العصافير وتشابكت داخل شبكة الأشجار

تحديداً، ما لبثت أن انطلقت في محاكاة استوعبها الفضاء الريفي فتوالدت سيمفونية كان فيها الهارموني متقطعاً يأخذ حيزاً صغيراً بينما الأجواق تتوالى صعوداً وهبوطاً؛ لكأن الغرض من هرجها هو إثبات قدرة كل مجموعة على التميز أمام قاضي النهار الذي يرتدي قبعة الصباح، واضعاً بيمينه ضوء الشمس وبشماله النسيم العليل... راح فيكتور يردد أبياتاً من والت وتمَن:

ها هي ذي الحياة إذاً

هذا ما ظهر منها

بعد آلام المخاض والبرء كله

كم هو غريب!

كم هو حقيقي!

الأرض الإلهية تحتَ أقدامنا

والشمس فوق رؤوسنا.

واصلنا السير وقد غمر نفوسنا دفقٌ من الطمأنينة بعدما شبعنا من أريج شجيرات مسك الليل. زادَ اذْ أبصرنا حركة مزارعين ريفيين: هذا يحمل فأساً، وذاك يصاحب زوجة تشاركه العمل، وآخر يمسك عصا يقود بغلاً حمّله أكياس خيش تحوي سماداً يريد نثرها في ارض سيشرع بزراعتها

لأول مـرة. رأينـاه يوقـف البغـل في بقعـة جـرداء ويُنـزل حمولتـه أرضاً. أكواخ وبيوت حجرية يرتفع من أبراجها دخان أبيض سـرعان مـا يتلاشـى مـع ارتفاعـه؛ رعـاة يتركـون بيـوتهم ويسـوقون أبقـاراً كثيفـة الشـحم ممتلئـة، مبقعـة بـاللونين الأسـود والأبـيض أطلقوهـا بعـد مسـافةٍ مـن حظـائر تجـاور بيوتهم فتبعثرت على البساط الأخضر، قطيـع أغنـامٍ يتقـافز أمامها ماعز نزق بقرون نافرة ترفع رؤوسها لتنال من أغصان الشجر المتدلية، وقد ترتقي بخفة السعادين الأشجار الواطئة فـتروح تقضـم بشـراهة الجـائع الضـامر الـبطن.. المـروج ضاحكة كشفها الصباح فجعلها تغني للخضـرة وتتبـاهى بالحيـاة. الـدرّاق والتفـاح الأخضـر يتـدلى مـن أغصـان منحنيـة تنوء بثقله بينما جوقات من عصافير تندفع خاطفة من شـجرة جوز قريبة لأخرى نائية ترتفع على سفح تل أخضر.

لم نـكـد نقطـع دربـاً ونصـعد تـلاً حتـى تفجـرت داخلنـا صيحة البهجة عندما ظهر في المدى المنظور صليب يبرق بتأثير ضوء الشـمس المُنهـال علـى الربـوع، يرتفـع فـوق بنـايـة حجريـة بنوافذ كانت تتباهى بألوان زجاج نوافذها المتنوع.

توقـف فيكتـور يطـالع الـزرع والمـروج، يطيـل النظـر في هيكـل الكنيسـة المنتصـب عـن بعـد. دمعـت عينـاه وتعالـت مسـحة حـزن صبغت وجهـه فتعكـرت جبهتـه وضـاقت عينـاه.

"هذا المنظر أعاد لي ذكرى مزرعتنا في ريف كارس شرق تركيا حيث جدّي بنحافته وجدتي بجسدها الضخم وقوامها العالي ينهضون فجراً فيعانقون بحب أطياف آبائهم وأجدادهم مرددين شعراً يتغنى بالأرض وبالحنين للماضي. الكنيسة الماثلة كما تراها تشبه الكنيسة التي يأخذنا اليها أبي واضعين اكفنا بيد أمي، أنا وأخي بيتر الذي يكبرني بثلاثة أعوام وأختي لارا التي أكبرها بعامين حيث يقام القدّاس ونتبارك بكلمات الرب. هناك تعمدنا، وهناك قالت لنا الدنيا إن عليكم ان تتفرقوا. جئت أنا إلى اسطنبول وبيتر غادر نحو ميناء جيرسون على البحر الأسود وبعث لنا يخبرنا بحصوله على عمل في زوارق تنطلق للبحر للصيد وتعود بعد أسبوعين أو أكثر، ومن هناك وبعد عامين لم نسمع عنه شيئاً. بكت أمي واكتأب أبي لفراقه وانقطاعه وحسبوه ميتاً بعد تظاهرات قام بها عمال الميناء وأطلق عليهم الرصاص وقتل الكثير منهم. أما أختي فتزوجها مزارع سكّير باع أرضه في ما بعد وراح يتسكع بلا هدى فعادت أختي لبيتنا ومعها طفلان بائسان... آآآه.

مسحت على كتفه، وأنا أقول: لابد أن تفرج، فقط الصبر.. نحن المسلمين نبدد أحزاننا بحكمة تقول الصبر مفتاح الفرج.

مسح دموعه بكمه المترب، ولم يأبه لبقع وحل التصقت بخديه وجبهته. "نعم لنصبر!. فلنواصل"، قال.

تركنا وراءنا أسوار حجرية تحدد المزارع، وغابات شجر الجوز وظلال رطيبة.. تركنا بقعاً خضراء صغيرة، مربعة ومستطيلة جعلها المزارعون نتاجاً لقوت يومي كانت فيه شجيرات الباذنجان تتدلى منها ثمرات الباذنجان ثقيلةً، حبّات الطماطة، أصابع الخيار، الكوسة، الفلفل الأخضر الحار؛ وريقات الكرفس والكراث والمعدنوس والنعناع والخس المتراكم الأوراق، ورقة فوق ورقة، وورقة تلتصق بورقة. وتحت التربة ثمار البطاطا وجذور الجزر والفجل. تعالى في الأرجاء سيل متقطع من أصوات بط فزع لظهور طائر عقاب مفاجىء يتهادى في السماء بينما تحركت بضعة أرانب بيض داخل قفص واسع يجاور سياج حجري قريب وانشغلت بضعة خنازير في تشمم بقعة من الوحل الطري.

***

رحب بنا القس عندما أظهرته الباب الابنوسية العالية والعريضة التي تواربت اثر نقرات أحدثها فيكتور وانتظر. سمعت فيكتور يتكلم معه بلغة غير التركية عرفتها في ما بعد انها اللاتينية. لغة يقرؤون بها الإنجيل ويجعلونها وسيلة تفاهم تعينهم على التواصل حتى لو كانوا من بلدان تنطق

لغات مختلفة.. اعلم القس بهروبنا من تركيا واجتيازنا غير المشروع للحدود. اعلمه ببحثنا عن حياة أفضل في اليونان. كانت ملابسنا قد تهرأت من ركبنا ورؤوس مرافقنا ، وتلوثت بتراب استحال وحلاً بفعل عرق أجسامنا ونداوة الأرض والعشب الذي زحفنا عليه طيلة مغامرتنا الليلية. طيور لا تأبه للرجل الخشبي المنتصب الذي وضعه المزارعون لطردها وإخافتها ، فقد تجمع عدد منها فوق رأسه وعلى كتفيه في حالة من الشبع والارتواء قبل ان تطير لساحات المرح وتشبع من بهجة الطبيعة وغنائها الجميل.

قادنا القس في رواق شبه معتم. شيء من نور الصباح القادم توّاً يخترق زجاجات النوافذ العالية قريباً من السقف.. يخطو الرجل أمامنا بخطوات واثقة تجعلنا نتخيله شاباً لا يتعدى الثلاثين مع انه في الأربعين من العمر أو أكثر. كانت ايقونات العذراء والسيد المسيح تزين الجدار. التفت كي يتأكد من لحاقنا به ثم خرج بنا إلى حيث فناء وصلته أصابع الشمس توّاً فرأينا مغارة اصطناعية من الحجر والجص الموحل. في داخلها رأينا تمثالاً لمريم العذراء ووليدها المسيح طفلاً ، محاطة بالأهل والحواريين وشجرة حور بأغصان وأوراق خضراء. توقف القس أمام المغارة وانحنى، وتوقف فيكتور يحاكيه ، فوجدتني أنا انحني تكريماً

وتبجيلاً. ثم واصلنا السير خطوات.. أوقفنا عند باب عريض نقر عليه فتوارب الباب عن غرفة طعام طويلة وقد انتظمت وسطها مناضد بلون الخشب الطبيعي، رصفت طولياً وحولها كراسيَ بنفس اللون. ومن العمق الذي يصل حد عشرة أمتار ظهر رجل يرتدي صدرية بيضاء ناصعة ويعتمر قبعة ورقية اسطوانية طويلة، فاحت منه لحظة اقترب منّا وأجاب على كلام تفوه به القس رائحة الزعفران وبهارات الطبخ النفاذة فأدركنا انه الشيف.

رحب بنا الرجل وأجلسنا على كرسيين متقابلين لحظة شرع القس يبتعد عنا ويغيب من الباب الذي دخلنا منه مودَّعاً بكلمات شكر رددها فيكتور.

ظهر شاب بنفس ملابس الشيف يحمل صينية فيها قدحان كبيران يصل حافة فوهتهما حليب يرتفع منه البخار. وضعهما أمامنا وقد سبق حركته ابتسامة عريضة وترحاب تمطره عيناه الزرقاوات.

خمس دقائق مرت حدثت داخل المطبخ الذي كنا نراه من مربع في الجدار حركة غير اعتيادية. نساء يعملن في الداخل؛ ومعهن افراد كهول وشباب.. قليلاً وظهر الشيف يتبعه الشاب. قدما انائين امتلئا بحساء الشوفان والسبانخ الساخن وصحونا فيها ثلاثة أنواع من الجبن المحلي وصحناً غمراه

بقطـع الرغيـف الـثخين المحمَّـص قلـيلاً. نظـر الشـيف إلى الملاعـق الفضـية والشـوكات والسـكاكين علـى جـانبي الصحون ليتأكد من إتمام الواجب قبل أن ينطق: أتمنـى أن تعجبكما وجبتنا الصباحية.

بعد انتهائنـا مـن تنـاول الفطـور وارتشـافنا شـاياً تفـوح منـه نكهة النعناع عاد الشيف ليقول ان أحد الفتيـة ينتظرنـا عنـد الباب ليقودنا الى غرفة القس.

مررنا في رواق عريض يجتمع فيه جوق من صبية وصبيات (وجوه متوردة وشعور ذهبية، وفي العيون ألـق يبرق) يجلسـون على كراسٍ صاجية ويمسكون بكراسـات صغيرة لها لـون الشمس منشغلين بمطالعتها. ثمة موسيقى تنطلق مـن أرغـن، يعـزف عليـه شـاب يرتـدي لبـاس القساوسـة ويطـوح برأسـه توافقاً مع ارتفاع وانخفاض التون، يتخذ مكاناً يجاور نافـذة هجم عليها الضوء بألوان متعددة.. مال فيكتور عليَّ وهمـس بأذني: انـه المعلم، وهـؤلاء الفتيـة والفتيـات متـدربون يتعلمـون التراتيـل الدينيـة علـى إيقـاع الأرغـن.".. زاد اقترابـه مـن أذنـي وهمس: "الموسيقى عندنا من أبجديات الطقوس الدينيـة علـى النقيض منكم، رجـال دينكم يحسـبون الموسـيقى كفـراً، ومن فعلِ الشيطان.".

طرق الفتى، الذي أعلمتنا الملابس التي يرتديها انه واحد

من التلاميذ الذين سيتعلمون التراتيل، باباً لامعة طعمتها رؤوس مسامير داكنة كأنها عيون مغمضة.. قليلاً وأدار بنفسه اكرة الباب كما لو انه سمع نداء الدخول بينما لم نسمعها انا وفيكتور. في الداخل نهض القس الذي استقبلنا عند باب الكنيسة لرؤيتنا. نهض من وراء منضدة سوداء نقشت عليها أغصان شجر خضراء وثمر برقوق احمر وقد رسم ابتسامة أمطرت علينا غيث السلام.. لكأن السيدة العذراء في الأيقونة التي تنتصب أمامه على الجدار أوصته بإغداق المحبة والإخاء والعطف علينا، لكأنَّ السيد المسيح من بين ثنايا الألم والمسامير تدك كفيه وقدميه المصفوفتين يهمس له: أغمرهم بغيوم سماحتي، واسقهم من نهر الفردوس الذي هيأته لمريديني والمحبين.

أشار القس بذراعه على كرسيين متقابلين يجاوران منضدته كي نجلس وقد رسم ابتسامة عريضة تكفَّل ان تكون تحية استقبال في مكتبه الفخم والواسع، تحيطنا الايقونات المؤطرة بإطارات الصاج المعلقة بطريقة تجعل الناظر يخيل وجوده في معلم من معالم الخيال والحلم، وفي السقف كانت الرسوم الجميلة تحكي زمناً تلا صعود يسوع نحو السماء فأظهر المرارة على الوجوه للآلام التي عاناها وسعة الدهشة للسماح الذي اعلنه لمعذبيه.

بعد توالي تحيات الاستقبال والتعبير عن سعادة وجودنا أمامه. فقط اعلمنا بشيء من الحياء أنَّ الغرباء مرصودون في البلد، وخصوصاً في أماكن كهذه تُعتبر حدودية تثير التوجس من كل قدم غريبة تطأ الأرض، ويمكن القاء القبض علينا في اية لحظة. ذلك جعلنا نكتئب ونحن نطالع احدنا الآخر.

قدَّر ارتعاشات أصابعنا وغيمة شحوب كست وجهينا. لابد انه شاهد الصفرة المضافة لصفرة سهر الليلة الفائتة التي انقضت ولم نذق خلالها لحظة رقاد واحدة. لذلك رسم ابتسامة سمحة:

- "اطمأنوا.. الكنيسة ستمنحكم هوية ولو مؤقتة على انكم مسيحيون؛ تبرزونها لكل من يوقفكم ويطلب مستمسكات وجودكم هنا."

الهوية التي حملت أسماء مستعارة لنا كانت شيفرة أمان؛ جعلتنا ننتقل بكل حرية.. صرت مسيحيا مع فيكتور. أؤدي كما يؤدي المسيحيون طقوسهم.. أدخل الكنيسة بقلب خاشع وروح ترتجي السماحة.. أسير خلف الشماسين وحاملي المباخر.. أشارك الراهبات إنشادهن التراتيل. وأنحني أمام المذبح متمتماً بالأدعية. الأزياء التي منحتنا إياها الكنيسة أظهرتنا كما لو كنا من أبناء البلدة: شروال وحذاء خفيف

محاك بخيوط قطنية بيضاء ويلك صدره محاك بخيوط حريرية لامعة وقميص بلا ياقة.. ندخل اسواقاً.. نقطع طرقاً. نجلس في مقهى.. نتفرج على صناعات محلية لفتت انتباهنا: معاطف صوفية طويلة؛ كنزات مبطنة بفرو أبيض ثلجي، طاقيات صوفية لدرء البرد وقبعات تكمل أتكيت البدلة الافرنجية.. بسط حاكتها أيادٍ وأذواق ريفية، ستائر وشراشف، وسائد وأفرشة بطانتها من صوف الأغنام.. أكلنا تفاحاً كان جمعٌ من فتية يقفون على أرصفة الطرق يعرضونها في سلال معمولة من أغصان مرنة ويعرضونها بشيء من الإغراء والتحفيز على الشراء بتقديم ثمرة تؤكد مصداقية لذة بضاعتهم... امتصت شفاهنا العصير العسلي اللذيذ لمانجا ذهبية اللون مقطوفة من اشجار غزيرة الورق تمتد لمسافات طويلة.. تأمل فيكتور البساتين على السفوح الجبلية القريبة من أنظارنا: "لو كنا نمتلك مالاً كثيراً لافتتحنا معملاً للمربيات هنا معتمدين على خبراتنا وما في المزارع من ثمار فاكهة متنوعة."

كلامه أثار دهشتي. كيف لم تخطر هذه الفكرة على بالي؟.. حقّاً كان المحيط يعرض مدّاً من غابات وحقول تتباهى برونقها. لا مسافة متروكة ولا ارض جرداء.

تلك الليلة، والتي بعدها انهمك فيكتور يكتب في دفتر

مذكراته ما يتجاوز عشر صفحات.. يغيب عنّي منهمكاً في التدوين، حتى إذا احتاج لاسم مكان نسيه أو حدث حصل لنا أثناء سيره ولم يركز عليه انتفض يسألني عنه؛ ثم يعود لمواصلة الكتابة.

سبعة أيام قضيناها في التجوال، ماسكين صولجان الحرية ومحلقين بأجنحة المتعة.. فيكتور يردد بلسان الجذل وحب الحرية ومناغاة الطبيعة. يضع كفه على مكان كتاب وتمَن الذي في جيب قميصه تماماً عند موضع القلب ويردد:

إنني اسمع تغريد الطير

وحفيف الذرة النامية

وحديث اللهب

وطقطقة الفروع التي تنضج طعامي

إنني اسمع الصوت الذي أحب

صوت الصوت الإنساني.

أتمتم في سري: يا لرهافتك، يا فكتور!.. أهكذا مبلغ حبك لوالت وتمَن.. تتغنى بما يقول كلما واجهك موقف يثير فيك التحاور، وأنى ارتسمت صورة تعج بالبِشرِ والحياة ؟!

يفرد فيكتور ذراعيه وسط مشاهدة فتيات بقمصان تضيق على صدورهن وخصورهن فتظهر تفاصيل النهود

وضيق الخصور مررن يحثثن الخطى وتنوراتهن القصيرة فضفاضة تتراقص بفعل مشيهن ورود وأوراق وألوان براقة زاهية تحفل بها التنورات باتجاه ساحة يحتشد فيها تلاميذ مدرسة قريبة يحملون حقائب جلدية على ظهورهم ويحدقون بهنَّ كأنهم يتساءلون عن مقصدهن وهنَّ بهذه الحفاوة والبهرجة.. يدور فيكتور حول نفسه كما يفرد نسر جناحيه ويدور في فضاء الكون المفتوح.

أقول غارقاً في موج الدهشة والفتيات يطالعنه بعيون تمطر بهجة لا ادري إن كانت تلك البهجة لدورانه التمثيلي أم للتلاميذ الذين لوحوا لهن.

في اليوم الثامن، وعلى هدي وإرشاد القس حملَنا قطارُ الضواحي الى مدينة الكسندروبولِي.. مدينة الحجر الذي رصفته الأيدي القديرة المكينة وشيدته هندسةً العقول الذكية المغموسة بعسل الفن والإبداع. مدينة الحدائق العريضة والساحات المفتوحة على الفضاء.. طوابق لتجمعات سكنية تتعالى بشرفات تطل محتشدة بالأصص والورود، بالبياض الثلجي لوناً تتباهى به البيوت، والشوارع المرصوفة بحجر البازلت الأسود وقد تحلت بنظافة ظاهرة ترفض كل ما يمت للفوضى والإهمال.. مدينة تتباهى بسكانها المترفين لبساً وتصرفاً، وبطبيعتها التي تشبه ضاحيةً مقتطعة من

الجنّة.. صور عديدة مأخوذة من منحوتاتٍ احتواها الحجر حفرتها يوماً ذائقةُ مبدعين محترفين تُظهِر البلاط الأثيني حيث ابقراط أبو الطب كما راح فيكتور يشرح لي ويوضح على انه خلَّص الطب من عتمةِ الطقوس السحرية وآثارِ الفلسفة ويردّد طلبةث الطب المتخرجين من الجامعات القّسَم الذي يحمل اسمه؛ اسخيلوس بتدويناته المسرحية التراجيدية، سقراط مؤسس الفلسفة الغربية والإسهامات ذات الأهمية في علم الجمال وهو المجاهر "بأنَّ ارتكابَ الأخطاء هو نتيجة للجهلِ وأنَّ مَن يرتكبون الأخطاءَ يفتقرونَ إلى معرفةِ ما هو صحيح"؛ اقليدس مؤسسُ علمِ الضوء في الفيزياء وأطروحاته الرياضية، هو القائل "لا تدعو مَن يجهل الهندسة يدخل بابي".. يقف أرخميدس بموسوعيته واعتداده العلمي بنفسه، هاتفاً:"أعطِني مكاناً لوَقْف وإراحة عتلتِي على الأرض، وأنا أستطيع أَنْ أُحرّكَ الأرضَ". يقف... وقد رفعَ يداً... ينحني فيثاغورس مؤيداً "كل شيء متعلق بالرياضيات، يا أستاذ".. يقول ذلك وقد بدا الفرجار بيده كمادةٍ ترسم للبشرية بعضاً من أبعادِ تطورِهم يبعث ابتسامةً لِمَن يطالعه لكن في الرأس بواكير نظرية ستبقى مادة تُدَرَّس لأجيالٍ وأجيال ويعتمدها معماريو العالم عبر الحقب بينما يتراءى في أيقونة حجريةٍ ماثيوس الشابُّ الثاقبُ لذكاء ذو العقل الراجح الذي يحتفي

به المَحفل العلمي وقد وضع طرف سبابته على صدغه في حالةٍ من التأمل أو المحاورة الذهنية، لأنَّ ما يُريد عرضَه في البلاط خلالَ الجلسة المقبلة لابد أن يكون ذا تأثير يؤجِّج السجال ويفجِّر النقاش وصولاً إلى رأيٍ قاطعٍ يجعل الأغلبيةَ تقف إلى جانبه مؤيدةً بلا رفض أو تردد.

ما مررنا بشارعٍ تعالت فيه أثار قديمة لحضارة يونانية وأثارت دهشتي وحيرتي لصبر إنسان الأزمنة الغابرة على جهد خرافي إلا وراح فيكتور يعلمني بما يشبه التفسير لرؤية ارث كبير ظل الحجر شاهده وما عليه من حفر، وبه من نحت إلا نتاج وانجاز تركه الإنسان الإغريقي كنزاً معرفياً وبصمة تمثله في حقبة زمنية بمثابة محفل تاريخي: عمر الحضارة الإغريقية وتشكّلها اخذ وقتاً طويلاً ". راح يتحدث كأنه الدليل الذي نراه من بعيد يقود جوقةَ سيّاح من جنسيات مختلفة مؤشراً بيده هنا وهناك شارحاً ومصوراً. "لقد استغرق بناء هذه الحضارة أربعة قرون. والتاريخ المعروف كبدء للبناء هو العام ١١٠٠ قبل الميلاد وأول تاريخ محدد لظهورهم كان ٧٧٦ قبل الميلاد. وهو نفس العام الذي أقاموا فيه ألعابهم الاولمبية."... لقد تقمص فيكتور وهو يشرح لي دور جدّي أيامَ كان يصحبني إلى ساعة القشلة ليريني حفاوة ذلك الصرح الزمني الهائل. ساعة نصبت في

العام ١٨٦٩ على برج ضمن أبنية المجمع الحكومي الذي ابتدأه الوالي نامق باشا وأكتمل في زمن مدحت باشا. "لم تكن هذه التي تراها أمامك الساعة الميكانيكية الأولى التي عرفها العراقيون فقد أهدى هارون الرشيد قبل ثمانية قرون ساعةً إلى ملك فرنسا صنعها عقل عربي ماهر".. يمد جدّي يده ويسحب من جيب سترته الصغير في أعلى الجهة اليسرى ساعةً دائرية معدنية، مغطاة بغطاء عليه نقوش وحروف إفرنجية بالأسود والأبيض، مربوطة بسلسلة فضية؛ يطالعها ويضحك ثم يقول: "هذه ساعة أُم الطمغة اشتريتها قبل خمس سنين من تاجر إيراني جلبها من ألمانيا. لم تؤخر ولم تزد ثانية واحدة منذ ذلك التاريخ.. يا لبراعتكم أيها الألمان!".

أخذتنا دروب المدينة يوماً صوب جانبها الغربي حيث انتصب على بعدٍ هيكل حجري أطلعنا حالما اجتزنا حشداً متعالياً من شجر السرو الكثيف عن مدرجٍ هرعنا للدخول إليه من واجهته المفتوحة على أرض منبسطة تنتهي بانحدار نحو وادٍ عميق وطريق ملتوٍ يتجه كما يبدو لميناء المدينة حيث صرنا نشاهد في المدى النائي سفناً شراعية كأنها حشرات تدب وزوارق صغيرة كما لو كانت رؤوس مسامير توخز جسد البحر.

يرتفع المدرج لعلو مذهل وقد تناثرت على سلالمه الحجرية أعداد من السياح.. في الساحة المستديرة كان بعض الذين يمسكون بكاميرات ويقفون في أماكن يجدون منها ما يمكنهم من التقاط صورة تستوعب اكبر مساحة ممكنة من المدرج ادخلها الأشخاص الذين يسمعهم ينطقون بلغات مختلفة يكلمون رافع الكاميرا يرشدونه لزوايا يعتقدونها تضفي جمالاً على صورتهم المنتظرة. فتيات بعمر العشرة أعوام يحملن دوارق زجاجية وقد امتلأت بباقات ورود الزنبق والتوليب والخزامى بينما فتية يقاربوهن عمراً يحملون سلالاً بفاكهة التفاح والمانجا واليوسفي يدورون بين جموع السياح عارضين بضاعتهم باستعطاف، والسياح يبتسمون لهم وليس في نيتهم الشراء؛ فما هُم فيه وقتُ المتعةِ والمشاهدة والتقاط صور الذكرى.

صرفنا وقت الضحى نرتقي المدرَّجات. كنت خائفاً من الصعود لأعلى صف. بي شيء من رهاب ارتقاء الأماكن المرتفعة. لذا اكتفيت بالصف الثالث بينما واصل فيكتور صعوده حتى الصف الخامس عشر. الصف النهائي الذي تحاشاه حتى السياح ولم يبلغوه ابداً. كان فيكتور يلوح من أقصى نقطة بشيء من الجذل. وصرح لي بحسرة عند نزوله:" لا ادري! كأنني كنت أعوم في جنة فصل ربيع فيفالدي في

سمفونيته الخالدة.. خيل لي أن هوميروس ظهر من بين نسمةٍ تماهت بألوان الطيف الشمسي بردائه الأثيني الأبيض وكان يمشي على المدرج باتجاهي ويبتسم. عيناه الزرقاوات بثتا شعاعاً سحبني في دروب اثينا؛ أخذني إلى البلاط عبر أروقة مرمرية متداخلة، بيضاء بلون الثلج. قلت له: أنا لست اثينياً أيها الشاعر؛ أنا من...." "من كارس.. أدري." سبقني بالكلام وابتسم.. شاهدت مراكب الصيادين من الكوى العديدة. كانت الشمس ترمي عليهم سهام شعاعها فتصطدم بموجات البحر، ثم ترتد تضرب عيونهم فيتقونها بنصف إغماض.شاهدت في فناء من غرفة واسعة، واسعة يغمرها الضباب نساء اثينيات ينثرن الشعر طويلاً على أكتافهن ويخلعن الثياب الهفهافة، ثم يرفلن على ارض الرخام ويدخلن الأحواض عاريات حيث بخار ماء يرتفع بينما تدور الجاريات يهيئن المناشف والملابس النظيفة المعطرة بشذا النرجس، ويفرغن الأحواض بعد استعمالها فيملأنها مياها ساخنة... قادني الشاعر وقد مسكني هذه المرة من ساعدي كأنه يسحبني سحباً من مشهد يراه يعجُّ بالغواية. من نافذة عريضة أطلعني المدى على جموع من المحاربين الاثينيين يتجحفلون وقد تدرعوا بالدروع والخوذ المعدنية ورفعوا السيوف تتلألأ فيما آخرون يقبضون على الرماح

تحملهم الخيول المطهمة بقطع الجلود كدروع تقيهم نيران الأعداء؛ قليلاً ووجدت نفسي اشرف معه على اجتماع للبلاط. اجتماع كان فيه نبلاء أثينا ومفكروها وقد دخلوا حمى الحماسة على أمر يرونه جللاً يستحق النقاش الطويل والمعمق لأن الخطأ في اتخاذ قراره النهائي يعني حلول الكارثة على أثينا وشعبها. يهمس هوميروس في أذني:"لا يحبون الحرب، بل يمقتونها. إنهم يُجبَرون على دخولها قَسراً. نحن الأثينيين نرى في السلام مدخلاً لبهاء الإنسانية وسعادة الإنسان.. الدخول في الحرب يعني الإعاقة العقلية وتراجع الانجاز."يصمت مكتئباً. أقرأ في عينية غيوم الكَمَد. واسمعه يتمتم: سينتهي كل شيء، يرغمنا الأعداء على الحرب، يدفعوننا نحو الدمار.".. يصمت!.. يطيل الصمت؛ ثم يقول: "لنعد.." انتبهت لنفسي وحيداً وأنتَ تلوح لي من الميدان، فهبطت إليك مسرعاً.. كم جميل ورائع هذا المكان الذي خلفوه للبشرية!.. آه لو كانت لدينا كاميرا. لو كان الحظ حليفنا لالتقطنا صوراً تذكارية."

وضع كفَّه بكفّي وسحبني لنخرج من المسار الحجري الذي كان السيّاح وباعة الفواكه والورود يسلكونه. "لقد دخلت قلبي، يا هاتف.".. همس فيكتور في أُذني، معلنا اعتزازه به كصديق يبادله الوفاء "أنتَ قريني." قال؛ وكان

يريد إكمال ما جال بخاطره تلك اللحظة عندما وجدنا أنفسنا نخرج إلى ميدان عريض يعج بالناس.. باعة استغلوا عطلة يوم الأحد ليعرضوا بضائع مستعملة متنوعة؛ كثير منها انتيكات. بعضهم نظَّمها على مناضد ومصاطب، وبعض آخر رتَّبها على قطع قماش وأخرى من المشمع فرشها على الأرض. أباريق نحاسية تركوا الصدأ عليها ليثبتوا قدمها وعودتها الى زمن سحيق أو على اقل تقدير لعقود من الأعوام؛ مناديل حريرية بألوان متنوعة وقد حوت احدى زواياها حرف لاتيني او حرفين حيكا بخيوط حريرية مغايرة لألوان المناديل؛ لوحات زيتية صغيرة بإطارات خشبية، لوحات مائية لمناظر طبيعية، وجوه نسائية جميلة، أطفال بنظرات بريئة وملابس مزركشة.. مَجلات شبه إباحية اشبع فيها نظراً وتطلعاً كانت محط اهتمام مراهقين يتصفحونها وسط لامبالاة البائع وهم يضحكون بشيء من الخجل للقطة في هذه الصفحة وللقطة في أخرى دون معرفة الكلمات والأسطر المكتوبة بالإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية... توقفنا خلفهم متظاهرين بالتطلع لمفردات البضاعة المفروشة بينما كنا نقتنص من حين لحين شبه العري ولحظات الشبق.

تنحّى فيكتور وراح يطالع بضاعة معروضة جانباً.

لكأن صورة إحداهن ذكرته بما حصل له مع المومس في التقسيم فتحرك نافراً. بقيتُ أطالع الصفحات التي يقلبها المراقبون. ظننتُ تلك اللحظة سأرى دوردانة في وضعيات جنسية مُصوَّرة فأستعيد بالصورة تينك النهدين الارنبين والبطن الضامر وشعر المثلث الكثيف بسواده الفاحم؛ الفخذين العاجيين وهي تفرجهما بهيكليه هندسية تنتظر العمود النازل لينصّف الزاوية الحادة ويقسم المثلث الى مثلثين متساويين، لكن التي شاهدتها شقراء تتأوه بدعارة تمثيلية كانت فيها العينان غافيتين والأجفان مسبلة بينما ذراعاها تشدّان الجسد الذكري كما لو كانت تبغي اعتصاره وإذابة جسده في جسدها؛ ومن فمِها انطلقت بالونة كلام احتوت كلمات شبق وتأوهات "آآه... ها... آآآه!". أطال المراهقون النظر، ثم واصلوا تقليب الصفحات فيما تحركت عيناي تمسح باقي المعروضات دون ان اتركهما تبتعدان عن فيكتور.

****

صار مجيئنا لبلدة الكسندروبولي كل صباح بحثاً عن عمل. وحين نعجز نجلس في مقهى فلورين، مالكته عجوز تقدم خدماتها للزبائن وتساعدها ابنتاها "جين" و"فلورنس"، المراهقتان الجميلتان بالوجهين المتوردين وصبغة الروج تبرز

شفاههما بشبق يعمقه اهتزاز كفلهما حين تتنقلان من منضدة لمنضدة.. لا احد من الجلاس يضايقهما أو يطلق كلمات الغزل، فلهما أم سليطة اللسان، لا تتوانى عن اهانة كائن مَن يكون. لذلك يكتفي الرواد بمطالعتهما استمتاعاً بجمالهما. باقتا ورد معطر تتنقلان بين المناضد.

مرّةً؛ ونحن على ظهر سيارة حمل يسوقها سائق بلغاري كان هناك رجل أشقر مهندم يقرب عمره من الخمسين يجلس الى جانبه وقد صك بأسنانه الجانبية على غليون يبعث دخاناً مشبعاً برائحة الفانيلا. اقترح هذا الرجل الذي عرَّف عن نفسه باسم والتر أن نعمل معه طالما أننا بلا عمل كما أخبرناه لحظة توقف على حافة طريق يقود لقرية يتخذها مسكناً مؤقتاً.

كان لديه مشروع حسبه كبيراً. مشروع يتضمن الوصول الى مغارة خمَّنها كبيرة وواسعة في عمق الجبل يعود تشكلها للعصر الحجري.. العصر الحجري!.. هذا يعني أنَّ سقفها سيكون من الصلصال الهابط على شكل سيل متجمد يرسم هياكل كالرماح أو كالسيوف تسببت به تعاقبات القرون. مشروع يعتمد الحظ الذي اذا وقف الى جانبه سيجعل من هذه المغارة مَعلماً سياحياً. سيتعاقد مع الحكومة على استثماره وسيوظف جهداً اعلامياً يثير ذائقة

السياح ليس في اليونان فحسب بل في عموم أوربا ؛ وعندها سيكون من مليونيري العالم.

كان المشروع يتطلب إزالة الحَجَر وتفتيت كتلِه الكبيرة بغية استحداث مدخل للمغارة المُفتَرَضة.

على العنوان الذي دونه لنا السيد والتر على ورقة اتجهنا صباح اليوم التالي. صرفنا ما يقرب من الساعتين في طريق حجري متعثّر بعدما استأجرنا بغلاً من عجوز يملك مزرعة ويسكن كوخاً خشبياً مطلياً بالجبس ينتصب على هضبة.

العجـوز يسـتخدم بغلـه الوحيـد لديـه للنـزول الى الكسندروبولي للتسوق بالتبغ والتوابل وعِدد يسخرُّها في عزق أرضه المزروعة بالملفوف والبطاطا مثلما يوظفه للحراثة ونقل الأحجار الضخمة غير القادر هو على نقلها وإزاحتها من مزرعته.

طلبنا من الرجل العجوز، الذي عرفنا اسمه كوستا من نداء زوجته له، أن يكون دليلاً لنا إلى المكان مقابلَ أجر ريثما نعرف الطريق.. كان كوستا لا يتخلى عن التدخين بتبغ محلي له رائحة الحشائش المحترقة والسيجارة يحسبها شيئاً حميمياً ككل الأشياء الحميمية التي حوله.

كان الطريق عثراً ومتعرجاً، والبغل الذي يحملنا أنا وفيكتور ينوء من الارتفاع التدريجي بينما كوستا يسحبه

مـن عنانـه ويطـالع الـدرب بعيـنين حسـيرتين. وعنـدما نـدير رؤوسـنا للـوراء لاكتشـاف مـدى الارتفـاع يعلمنـا الكـوخ الأبيض بصغر حجمـه وضآلته، ونسـتطيع رؤية المـزارعين في حقولهم وقد استحالوا كالديدان الدابة ببطء بينما الـوادي البعيـد شـريط اخضـر داكـن يجرحـه نهـر صـغير يـبرق بفعـل هجوم شمس الصباح عليه.

هنـاك وجدنا السيد والتر ببدلـة عمـل زرقـاء وقبعـة تشـبه قبعات رعـاة البقـر الأمـريكيين وحـذاء جلدي طويـل العنـق... أشـار علـى فيكتـور بحمـل مطرقـة حديديـة متـأملاً ضـخامة جسـمه بينمـا طلـب مـني حمـل المعزقـة لنحـافتي رغـم قـامتي الطويلـة. انضـممنا لمجموعـة عمـال كـانوا يعـالجون الكتـل الحجريـة بالمطـارق والمعـاول في محاولـة مسـك خـيط إدراك المغارة التي تتجسد في رأسه أكثر مما هي على الأرض.

رغـم مشـاق العمـل والجهـد الـذي لم نعتـده إلا أننـا شـعرنا بأهميتنـا كشـباب لابـد مـن شـق طريقنـا بمـا نلاقـي ومـا يعترضنـا، وصـولاً إلى الأمـل في الحيـاة كمنـتجين. يبـدو لنـا المستقبل شمساً تنير والقمر ضوءً لا يأفل.

عنـد عودتنـا باركنـا القـس لمشـاهدة سـواعدنا المخدوشـة والغبار المعفر لثيابنا. باركنا علـى التعـب الـذي أبصـره يُهـدل أجفاننـا مثلمـا باركنـا صـباح اليـوم لتـالي ونحـن نـبرح

الكنيسة متوجهين للعمل.

وكانت المباركة استمرت ثلاثة أيام.. في اليوم الرابع أعلمناه أنَّ الطريق يجهدنا في الذهاب والعودة، وأخبرناه باتفاقنا مع صاحب الكوخ واستئجارنا غرفة من كوخه أعدها لنا لقاء أجر أسبوعي.

****

أسبوعان ونحن نخوض غمار العمل الشاق والسيد والتر يغدق علينا وبقية العاملين بكلمات إكباره، موفراً وجبات غذائية غنية في الفطور والغداء. وفي العشاء نجد زوجة صاحب الكوخ أعدت لنا حساء الشوفان اللذيذ الممزوج بحليب البقر والسكر.. أسبوعان والحجر يُكسر ويُفتَّت. أخذنا نغور وباقي العمال في مدخل نفق استحدثناه لعدة أمتار، والسيد والتر يحثنا هاتفاً: العزيمة! العزيمة!.. سنصل المغارة!.. لابد أن نصل!"

الأسبوعان تمددا لشهر وشهرين.. ثم جاءت النهاية.

السيد والتر يعلن فشل مشروعه.. يصرفنا بعدما سدد أجورنا. عاد خائباً إلى الكسندربولي مع سائقه البلغاري.

- سأستدعيك في مشروع قادم إن احتجتكم.. قال وكفه تصافح الجميع بلطافة.. نفث من غليونه دخاناً ابيض ذا رائحة طيبه؛ واستدار.

ستجدنا هنا، في هذا الكوخ.. قال فيكتور.. لقد عرض علينا صاحب المزرعة العمل في مزرعته قاطفي ملفوف وجامعي بنجر. وعرضنا عليه استعدادنا لحمل المنتوج وبيعه في المدينة إن أراد.

لم يكن العجوز كوستا فضاً ولا مستغلاً.. كان لطيفاً، وكريماً، ووفياً. تغدق علينا زوجته عطفاً وتحناناً أمومياً.

قضينا الشتاء عندهما.

فيكتور يشعر بالألفة.. يصرف الليل على ضوء المصباح النفطي يقرأ قصائد وتمَن، ويقارن بين حياة رسمها ذلك الشاعر بكلماته وحياتنا في هذا المكان الريفي الجميل الذي تتناثر على جانبي طريقه المعبد قرى وتجمعات بشرية وصولاً لمدينة الكسندربولي.

يرى في صورة كوستا قرينة لصورة والت وتمَن المنشورة في الصفحة الثانية من مجموعته "أوراق العشب".. العينان الحسيرتان واللحية الشيباء الطويلة؛ القبعة الجلدية والسترة الرمادية؛ نظرة التفاؤل وتحديقة الأمل؛ البوح اليومي على مسمعينا وبوح الشاعر وكلام روحه المنفتحة يسمعها للعالم.

بُنيَّ..

لتحمل زوّادتك

ولأحمل زوّادتي..

ولننطلق...

لسوف نلقي في مسارنا مدناً عجيبة وأمماً حرة

ولئن أُنهكتَ، فلأحمل العبءَ كلّه.

وفي الوقت المناسب، تردُّ لي الجميل نفسه

فنحن لن نستريح، بعد أن انطلقنا.

وجاءنا الربيع؛ وكان موسماً مثمراً جنا كوستا وارداً كبيراً أسعده وأفرحه. بارك وجودنا معه مثلما باركنا القس يوماً لمشاهدة غبار العمل على وجوهنا.

كان ربيعاً جميلاً؛ تواصل مع الصيف اللذيذ. رأينا في بواكير بدئه ذوبان الثلوج من هامات الجبال واستحالتها سيولاً تتخذ منحدرات. سيول يستحيل صوت مجراها سيمفونية تستأنس لها المسامع وتطرب النفوس. مسامع القرويات الهابطات بجرارهن الى عيون الماء، مسامع الصبيات والصبيان الذين ملّوا الشتاء الطويل بثلوجهِ وصقيعهِ ورياحهِ القارصة مُقيّدةً حركاتهم ومكبلةً أحلامهم، مسامع المزارعين التوّاقين للحوار مع الارض كي تبارك جهدهم فتهبهم ثمارها وكنزها فيما تظهر في السماء أسراب طيور الوز والغرانيق، تمر تاركةً صدى صيحاتها تحاور الفضاء، باعثة التحيات المقرونة بالنزق للربوع ،

ومتجهة الى حيث اثينا وجبل الأولمب. هناك ستهبط لتوقظ النائمين منذ ثلاثة آلاف عام. تدعوهم لرقصة جبلية على إيقاع غناء الحسّون ودربكة هياج بركان ملَّ المكوث مقيداً في جوف الأرض.. "انه الربيع!" تهتف بهم "فانهضوا أيها النيام. الحياة لكم يا مَن بنيتم وخلفتم!".. تتهافت الأسماء الكبيرة من فم فيكتور وهو يلفظها بزهوٍ، وفخرٍ، وإجلال: هاكَ يا هاتف اسخيلوس، فيثاغورس، أبو قراط، أخيل، سوفوكليس، هوميروس، هسيود.. خُذ الاوديسة، الالياذة، عوليس، .. ادخل على فينوس، أثينا، ايثاكا، كورنثيا، إسبارطة، جالينوس.. اجلس مع طاليس وهيراقليدس، أرسطو وسقراط وأفلاطون.

على عكس ما كان في تركيا استحال فيكتور في اليونان مخلوقاً يعشق الطبيعة.. يبدو أنَّ الغربة تمنح الإنسان الأمان بعيداً عن وطنه رغم الشعور بالاغتراب.. أخذ يرى في البلد الغريب ميداناً لحرية تنأى عنها عين البغض البشري ورغبته في الاستحواذ وقهر الآخر.

طلب مني إحدى المرات ونحن نترك رصيف الطريق سلوك درب كان أوله ترابياً.. آه، ليته لم يطلب!.. كان الدرب يرتفع لسفح جبلي، وما بعده تنتشر صخور كبيرة هائلة، يغدو بلوغ القمة من عداد المستحيل. كان فيكتور مصراً

على إدراكها.

نصف ساعة نسير ويرتفع بنا الطريق. نصف ساعة أعاقتنا أكثر من مرة الأحجار الهائلة؛ المبعثرة أو المتحاذية.. أظهرت تعبي لفيكتور. وفيكتور أبصرني ألهث فاستغرب. قلت لم أعتد على صعود المرتفعات فأرضنا في بغداد منبسطة.. ضحك وقتها، وقال: ولكننا في كارس تحيطنا الجبال!.. مدينتنا في وادٍ يكاد يتقبل حكم الأرض في ابتلاعها متى شاءت.. في كارس كل ما حولنا مرتفعات شاهقة وغابات عملاقة ظلماء. فلا تعجب إذ تراني اعدو بخفة كما تعدو أنت على أرض بغداد.. نحن الأرمن لا نحيا إلا على تضاريس فيها من القسوة ما يجعل كل شيء بعدها سهلاً ويسيراً نتعامل معه باقتدار؛ فلا صعوبة نتلمس، ولا موقف عسير نجابه.

لا أدري كيف اتجه إلى صخرة ضخمة تسلقها بخفة ووقف فوقها كما قائد شجاع يعلن انتصاره في معركة ضروس.. وقف يهفهف بذراعيه اللذين أفردهما، وكان على وشك أن يدور ويدور، يطير ويحلق إلى أعلى عندما اهتزت الصخرة فاهتز جسد فيكتور وبعثت عيناه برقية رعب بينما تمايلت ذراعاه وحاول التوازن... تدحرجت الحجارة الكبيرة الصماء وتدحرج فيكتور!

مَن سحق فيكتور فهشم جسده؟ الأرض التي اهتزت أم الصخرة التي تدحرجت؟!

سقط فيكتور في حفرةٍ هي ثنية في السفح.. هرعتُ اليه فزِعاً مرعوباً كأنني للتو أخرج من كابوس.

كانت عيناه ذابلتين والدم يتدفق من منخريه وفمه.. كان رأسه يتراخى بين يديّ وهما تحتضناه. كأنَّ عنقه قد تخلّى عن حمل رأسه ؛ وأصابعه شرعت ترتعش بينما همود وجمود هيمنا على قدميه وساقيه فلم يعد يحركهما.

كلمات قليلة خرجت من فمه كأنها الحكمة أو الوصية التي تخصني: "واجه الحياة بقلب ثابت.. لا تهن أمام الشدائد ، يا هاتف.. أنت غريب والغربة تسلب منك الأهل.. تسلب حنانهم ودعمهم. عوّض عن ذلك بالتفاؤل... ضع في قلبك يقين تجاوز المصاعب مهما توالت... احسب لقسوة الأقدار... لا تخشاها إن كشرت عن أنيابها.".. حاول مدَّ يده لجيب بنطاله ليخرج كتاب ويتمان ودفتر مذكراته فلم يقدر. أنا من قمت بسحبهما.. أغمض عينيه طويلاً حتى خلته فارق الحياة قبل أن يفتحهما ويقول: "فقط أوصل جثتي إلى الكنيسة وهناك سيتولون دفني."

بوفاة فيكتور وجدت نفسي وحيداً. تائهٌ في بريّة أو بحّارٌ بلا بوصلة.. هل يمكن لوحيد وتائه العيش باتزان وابتكار وسائل

لاستدراك مسار ينتشله من فراغ تركَ في غفلةٍ منه؟.. أيمكن التواصل هنا من دون فيكتور؟ أعندي القدرة على التعامل مع الناس وكسب ودّهم بعمل يجعلني أتجاوز الخشية من أقدار تختفي وراء سحب الغيب؟.. أأعود إلى اسطنبول، وأتقهقر الى بغداد فأعيش في كنف واقع ينتشلني في الوقت المناسب.. أأعود لأتواصل مع أمٍّ ستطيب نفسها لوجودي معها؟ أأتخلى عن دوردانة واجعلها حلماً مرّ في منام وانتهى ذكرى؟

أختلي في غرفتي.. انظر لصورة جدي وأتحسر على فقده؛ انظر لكتاب فيكتور المُفضَّل ودفتر ذكرياته وأتألم؛ انظر لعنوان دوردانة وأشعر بمهمّة عسيرة تتجبّر أمامي، وترسم احتمال عدم التقائها يوماً.

غيابُ فيكتور الأبدي أجاب على ذلك.. جاءني همسه في لحظة اتخاذ قرار مصيري: "اجعل تحدي الأقدار من عِداد سلوك لا تراجع عنه. لابد، يا هاتف من ترسيخ يقين تجاوز المصاعب وإن هاجمتك كالعواصف؛ وإن توالت مدوّمة مضببة؛ وإن تهافتت بالتهديد والوعيد.". وهو كلام أضفته لما قاله جدي وأوصاني به؛ وما زلت استعيد رنين كلماته " لا تترك قدرك للغير؛ اصنعه بنفسك.. كن حرّاً وانهل من نهر الزمن ما تستطيع فليس أغلى من أن يكون الإنسان حراً.".

****

الحاجة أم الاختراع. والحيلة وجهٌ آخر للدعابة وإن هي أدخلتك أحياناً في خانة اللصوصية فتكتشف نفسك وجهاً لوجه أمام سلطةٍ، وقضاءٍ، وقاضٍ... سلطة لا تتعدى المكان الذي أنت فيه، وقضاء هو عبارة عن أحكام شفاهية لا يحتويها كتاب، خاضعة للمزاج وتقدير اللحظة. أما القاضي فصاحب مملكة مالية وسطوة لا يتجاوزها أو يحتال داخل حدودها أحد. قاضٍ الحكم عنده قاسٍ يصل حد وجبة لكمات وركلات من عتاة جاهزين يرفع أصبعه لهم فيحدثون ورماً في العين ونزفاً من الأنف وآلام في عموم الجسد. حكم مقرون بتعهد عدم ارتكاب خطأ مماثل في قادمات الأيام.. فالحيلة في محيط مملكته غش يعاقِب عليه كما يعاقب المعلم تلميذاً اكتشفه يغش في درسه.. وقد حصل لي ذلك يوماً. إذ دخلت في حلبة حيلة تجاوزت فيها عتاة المتحايلين أو كنت تلميذاً استطاع الغش لأكثر من مرّة... نعم! تحايلت وأربكت منظومة العمل.

كان ذلك عندما دخلت نادياً متنقّلاً للقمار والرقص والترفيه.. كان ذلك بعدما صرفت أشهر أتنقل من عمل لعمل في مدينة الكسندروبولي.إذ عملتُ نادلاً في مقهى لستة أشهر، ثم نادلاً في بارٍ شعبي فوقه فندق بطابقين. بارٌ اغلب رواده من المزارعين الذين تنقطع بهم سبلُ العودةِ إلى أريافهم

بفعـل سـقوط الـثلج لأيـام فيضـطرون للإقامـةِ في الفنـدق والنزول اليه بغية القضاء على الملل والدخول في أحاديث تبـدأ عـادةً رصينةً، متزنـة عـن الزراعـة، الأرض وحرثهـا، البغـال ومسـاعدتها، المطـر وهطولـه، الحشـرات والـتخلص مـن آفاتهـا، النـاتج وتسـويقه.. ثـم غـب تسـلل الخـدر إلى رؤوسـهم ينتقلـون مـن حـديث لحـديث عـن أعـوام خلـت، وحماقـات ارتكبت، وفكاهات حصلت.

ولقد صرفت عاماً غاسلاً للصحون بعدما طردني صاحبُ البـار بفعـلِ دفعـةِ بصـاقٍ وجَّهتهـا الى وجهـه جـراء شـتائم وكلمـات سـباب رشـق بهـا مسـمعي وظـنني عبـداً، أتقبَّـل وأتجاوز. عندما علِمَ صاحبُ البار المجاور بفعلتي، ولكونه ندّاً له استقدمني، مُطَبطباً على ظهري ومُشيداً بـردّي. ولأنـه لا يحتاج عـاملاً فقد أضافني لعمـالِ غسـلِ الصـحون نكايةً به، لا غير.

خمسةُ أشهر انقضت، ومعها ثمانية أيام عندما صارحني الرجل، وكان رحيماً معي، بكسادِ العمل، وليس من الحقِّ والأخـلاق صـرف غاسـل الصـحون الأقـدم. أعطيتـه الحـقَّ وسـعيتُ ابحـث عـن عمـل. تلقَّفـني صـاحب كشـك يبيـع الصحف، واتفقت معه على واجبٍ صباحي مُبكر أوصلُ فيه علـى دراجـةٍ هوائيـة صـحف الصـباح لنـزلاء فنـادق المدينـة

وبعض المحلات المتفرقة فيما أوصل صحف المساء لأماكن معدودة وإن كانت في أحياء متفرقة تتطلب نفس الجهد.

لفت انتباهي مساء أحد الأيام مجموعة خيام ملونة متنوعة الأحجام أقيمت على أرض معشوشبة وتحت سماء صافية ليست بعيدة عن الفنار الأبيض الذي يواجه البحر ويندّه على البحارة التائهين ليلاً.. ارض استأجرها صاحب سيرك متنقل جاء من العاصمة أثينا. بلدية المدينة منحته فترة ثلاثة أشهر قابلة للتمديد.

ركنتُ الدرّاجة على جدار جنب ملصقات ممزقة لجنود يمشون صفاً وقد اتكأت على مناكبهم بنادق بحراب طويلة فيما صور أخرى لجنود يستلون سيوفاً تبرق ويطالعون بعيون حادة عدواً لم تظهره الصور. عبرت الشارع مشحوناً بالفضول متوجهاً صوب الخيام. كانت حركة غير اعتيادية وطابور من أناس أثارهم المكان وهبّوا يدخلون عبر باب عريض يقف عنده قاطع تذاكر.

اتخذت مكاناً في الطابور ودفعت أجرة الدخول... كان ثمة صالات قمار متعددة وجدت، صالات رقص تراثي تقليدي، رقص غربي، تعري بطريقة الستربتيز، صالات اكروبات وألعاب سحرية، صالة سيرك واسعة يقدِّم فيها المروضون اسوداً ونموراً وفيلةً وأحصنةً مروَّضة، مُضافاً لها

وصــلات تســلية يؤديهــا مهرجــون. كشــفت ذلــك الرســوم الكبيرة على لافتات من القماش اسندت على أعمدة ترتفع عالياً .

أغرتني لافتة حملتها واجهة خيمة . دفعتُ سعر تذكرة الدخول إلى بواب نحيف، ودخلت. دخلت بعدما ازحت ستاراً يحجب البائع عن الداخل. والداخل فاجئني بحشد كبير من رواد يتكومون واقفين حول مناضد ليس من اليسر مشاهدة ما عليها إلا حين تخترقه. وهذا ما فعلت.

في الحشد الأول المتحلق حول المنضدة الأولى لعبة روليت. كان القرص الكبير يدور والكرة البيضاء تتلاطم مع دوران القرص والعيون قلقة تنتظر أين سترسي الكرة وفي رأس كل متابع وضع مالاً للمراهنة دعاء استقرار الكرة في حقل اختياره فيحقق الربح المُرتجى.. تركت عيونهم متصالبة والكرة تدور مع دوران القرص واتجهت لتجمعٍ ثانٍ. كانت العيون تتابع لعبة "فوق السبعة.. تحت السبعة". منضدة خشبية كبيرة فرشت عليها قطعة قماش بيضاء مستطيلة قطع وسطها خطٌ أفقي، ووسط هذا الخط في مركز قطعة القماش رسمت دائرة فيها الرقم ٧. كان المقامرون يضعون العملات وحسب حدسهم إما أعلى الخط الافقي أو تحته أو داخل الدائرة ذي الرقم ٧.. الذي يدير اللعبة كان شاباً

مفتول العضلات يرج علبة اسطوانية معدنية تصدر صوتاً ويقلبها على قطعة القماش ثم يصرف لحظات قبل أن يرفع العلبة ليظهر مكعبان عاجيان وقد بقعته نقاط سوداء محفورة على أوجهه. تبدأ من نقطة واحدة حتى ست نقاط. كانت العيون استقرت على المكعبين حمل احدهما نقطتان وحمل الثاني اربع. فجمع الشاب المال من الجزء العلوي ومن داخل دائرة الرقم السبعة ففهمت ان الرابح هو من وضع نقوده أدنى الرقم ٧. لم تستهوينى اللعبة ولم تثر اهتمامي.

وقوفي الثالث كان عند من أحببته. كانت كالتي كنت أشاهدها وأنا فتى يلعبها الكبار في مكان منعزل من أزقة الميدان في بغداد وعيون الجميع: مدير اللعبة واللاعبون في قلق. انتصب احد رفاق مدير اللعبة يراقب عن بعد. ولقد شاهدت مرة دورية للشرطة تظهر فيهرب الجميع خائفين هلعين. يومها عرفت انها ليست لعبة بريئة انما هي قمار. وذلك ما قالته أمي حين استفسرت. حذرتني من التقرب: "من يلعب القمار ينال غضب اللّٰه فيدخله النار.".

حبلُ الطمع قصير.. نعم؛ واللصوص في كثير من الاحيان لا تكشفهم سرقتهم الاولى انما طريق الطمع والاستسهال الذي يقلل من هاجس الاكتشاف هو ما يوقعهم في الفخ. طريق تُزرع على جوانبه عيون الرصد المُحكَم والإصرار على

الإيقاع باللص الذي تحايل وتحايل.. وكما هي عند مكاتب المباحث فإن الجريمة أو السرقة حين تحصل تذهب أصابع الاتهام أول ما تذهب صوب أصحاب السوابق من اللصوص والمجرمين.

لأن أولئك لا يُكتَشفون وهم يرتكبون الجريمة الأولى. وهو ما يخشاه ضباط مكاتب البحث الجنائي ذوو الحدس الدقيق والنباهة الثاقبة.

المهم أنني وقفت عند منضدة يجتمع حولها جمع غفير؛ ولاحظت المراهنين يضعون فيشات بهيئة أقراص. بعضها منفردة وبعض مجتمعة الواحدة فوق الأخرى. ورأيت مدير المنضدة يرج العلبة المعدنية بثلاثة مكعبات ثم يقلبها ويرفعها فتظهر أشكال المكعبات على مستطيل القماش المقسم إلى قسمين (علوي وسفلي) وفيه ستة حقول: الحقل الأول فيه مربع يشبه المنديل، أحمر باهت (ستكون الأشكال الستة في مستطيل القماش حمراء باهتة). يجاوره الحقل الثاني وفيه تاج؛ ثم الحقل الثالث وفيه صورة تفاحة. والحقول هذه تشكل القسم العلوي. أما القسم السفلي ففيه الحقل الرابع ويضم ثلاث دوائر، اثنتان متجاورتان وفوقهما دائرة، الثلاثة متلاصقة كأنها وردة ولها ساق ينزل إلى أسفل ثم ينشطر لثلاث سيقان لتكون قاعدة تحمل الدوائر. وهذا يكون

تحت حقل المربع شبيه المنديل.. أما الحقل الذي يقع أدنى التاج ففيه صورة أنكر، الكتلة الحديدية ذات الرؤوس التي تشبه الصنارة ويستخدمها البحارة في الرمي بها إلى الماء لتستقر في اليم لتثبيت الزورق.. أما الحقل السادس ويطلق عليه (آس) وهو شبيه بشجرة صنوبر... أشكال الحقول الستة مرسومة على أوجه كل مكعب من المكعبات الثلاث التي يرجها مدير المنضدة داخل العلبة المعدنية.

الغربة تفرض عليك في بعض الأحيان التحايل، وتدفع بك الى استنهاض نوازع الخداع.. لو كنت في الوطن لنهرت كل ما يثير في أعماقك رغبة ارتكاب معاصي لا يرضاها المجتمع وتحسها النفس فعلاً من أفعال العصيان على الضمير النقي، الصافي، الرائق.... كانت عيناي تتابعان حركة العلبة والأيدي التي تمتد لسحب الأقراص الرابحة وعيون قلق الخاسرين (القرص من المعدن المحزز الحافات؛ لونه اخضر داكن). استفهمت من مراهن أقف بمحاذاته عن مصدر شراء الأقراص فأشار إلى كشك ينتصب على مقربة. تقايض المال بالأقراص؛ ومن نفس المكان تعيدها فيعطوك مقابلها عملة بقيمة شرائها. لاحظت أن هذه الأقراص تشبه الأقراص التي تستخدمها فلورين صاحبة المقهى الذي نجلس فيه حيث تأتي بها من أصحاب الدكاكين القريبة

الذين يقتتوها منها فيردونها اليها مقابل شاي يشربونه بسعر أقل قليلاً من سعر شاي جلاس مقهاها.

سريعاً خرجت. حثثت القدمين، سالكاً درباً يوصلني الى المقهى.طلبت من فلورين عشرة أقراص وقلت لها سأكون زبوناً دائماً أتناول الشاي مقابل قرص أعيده إليك بدل النقد. قالت: لكنها للزبائن أصحاب الدكاكين المجاورة وأنت ليس لديك دكان."‥ ومعها ضحكت وقالت: لا بأس، سأعتبرك زبوناً في التسكع. وضعت الأقراص في جيبي، ومن جديد عدت إلى النادي‥ هناك وقفت مع المراهنين. وضعت قرصاً فوق التاج فأعلمتني المكعبات بعد رفع العلبة المعدنية بالخسارة‥ وفي المرة الثانية وضعت قرصاً فوق التفاحة فأعلمتني العلبة حال رفعها بتفاحتين سلمني مدير اللعبة قرصين. قلت في سري صار عندي احد عشر قرصاً. هممت بالخروج من الجمع لكن هاجساً منعني. قلت لأنتظر قليلاً دون أن أراهن كي اصرف شيئاً من الوقت... قليلاً وخرجت من بين صفوف المراهنين وتوجهت للكشك سلمته احد عشر قرصاً فسلمني إحدى عشر دراخما وضعتها في جيبي معلنا انتصاري، ونجاحي في حيلة انطلت وانتهت بمبلغ سيجعلني أعيش لأسبوع مرفهاً: ثلاث وجبات وقناني بيرة ومقرمشات وسبعة علب سجائر، لكل يوم علبة.

في اليوم الثاني ضحكت فلورين إذ طلبت منها تزويدي بعشر أقراص أخرى. ضحكت؛ وقد ظنتني ارتكب حماقة البله والبلادة.. ومع هذا أعطتني ما طلبت. وسريعاً حثثت الخطى كما فعلت البارحة.

ولقد دهشت لاستبدال الفيشات بعلب سجائر لف حولها شريط لاصق أزرق كالذي يستخدمه مؤسسو الخطوط الكهربائية في عزل التيار الحار عن البارد وتغليف الاثنين تفاديا للصعقة الكهربائية.. السجائر تباع في المحلات، كذلك الشريط اللاصق.

ومن جديد خرجت، ابتعتُ نصف دزينة، ومعها اشتريت شريطاً مشابه فألصقته حول العلب، ورحت ادخل واندس بين اللاعبين المنهمكين في متابعة دوران العلبة المعدنية وانقلابها ثم رفعها من قبل مدير اللعبة ومشاهدة ما استقرت عليه المكعبات العاجية الثلاثة.

في الخيمة وقفت بين الجمهور المشارك في اللعبة، وسط العيون المشدودة على العلبة التي سترفع لتكشف العلامات والأكف القابضة على حافات المنضدة بتوتر. كانت موجات من الضحك والصيحات المتقطعة تأتي من جهة خيمة السيرك الكبيرة بينما موسيقى فالس وضربات صنوج مصحوبة بأبواق حادة تسمع بوضوح قادمة من خيمة الرقص والتعري

في وقت كان التصفيق يندلع داخل خيمة السحر وألعاب الخفّة. وهناك صرخات متداخلة يطلقها الذين صعدوا في الصحن الطائر وهو يهتز ويتقلب كما تهتز المقلات بيد طباخ يسعى لجعل الزيت يشمل مساحتها بالكامل.. وضعتُ العلبة ذات الشريط الأزرق على صورة التاج. ولحسن حظي جاءت النتيجة ظهوره مرتين. تناولت ما رمى من علبتين على علبتي؛ وكنت على وشك الاستدارة والخروج من الجمع عندما أحكمت قبضة حديدية على رقبتي ووجدتني أُجرجَر بقوة إلى بائع العلب الذي يشتري منه الراغبون في اللعب.. أنكر البائع رؤيته لي اشتري منه؛ بل وقال: ركزت كما طلبت مني الإدارة على المشترين، وهذا لم يكن واحداً منهم.".. ذلك جعلني أطوق باثنين من الحرس الأشداء ذوي الأجسام الفولاذية والسواعد المفتولة.

ساقاني نحو بناية بطابق واحد وباب عريض مشرع على مصراعيه. على جانبي الباب كان ثمة هيكلان حجريان لأسدين يقعيان بالوصيد على قاعدتين حجريتين ترتفعان لأعلى من متر.

دخلا بي في مجاز طويل، على جدرانه لوحات من الفن الاسباني، ينتهي بغرفتين بابهما صاجيان يلتمعان. طرق الذي على يميني الباب ودخل. لحظة وعاد يكلم صاحبه فيدفعاني

للداخل.. أوقفاني أمام رجل مهندم يرتدي بدلة إفرنجية فاخرة يجلس وراء مكتب فخم؛ ثم تراجعا قليلاً.. أحسست بوقوفهما خلفي.

تناول الرجل من صندوق سجائر خشبي مطعم بالصدف النقي سيجاراً كوبياً طويلاً ألقمه فمه وراح بقداحة ذهبية يشعل رأس السيجار. ينظر لي بنظرات محايدة تخلو من الغضب مثلما تخلو من الشفقة. سكب من قارورة ويسكي رفعها من منضدة جانبية على يمينه قليلاً من سائل ذهبي وأخذ يرتشفه على مهل. يتسلى بدخان السيجار الذي ينفثه فيرتفع أبيض متخذاً شكل غيوم تتصاعد رويداً رويداً ، ما تلبث أن تتبدد وقد تركت رائحة شذية تستقبلها الثرية الكريستالية الهابطة من السقف، والقطيفة الحمراء كدم الغزال المغلّفة للجدران، والستائر الزرقاء ذات الأغصان البنيّة الداكنة وهي تعج بورود بيضاء ثلجية وصفراء ناصعة على جانبي نافذة ترتفع على يمينها شجيرة مطاط من مزهرية كبيرة لمعت أوراقها الخضراء يانعة تشي بمرور قطعة قطن مشبعة بالحليب، وتلك وسيلة يتبعها باعة الورد والجنائنيون لكسب ذائقة عشاق الجمال الذين يحتفون بالورد كما يحتفون بضيوفهم في حفلات الأعياد. ثمة مكتبة ذات رفوف أربع مليئة بمجلدات لا ادري إن كان

قرأهـا أم جعلـها اكسسـواراً يجمِّـل الغرفـة. علـى جانـب المكتبة قبعة جلدية كالذي يرتديها رعـاة البقـر وقد علقت على مسـمار جـوار مجموعـة مفـاتيح بحلقـة معلقـة في مسـمار آخر خلتها مفاتيح أبواب زنزانات سجن كبير.

أخــذ بــين لحظــة وأخــرى يطــالعني. يمســحني بعيــنين متأملتين، من هامة رأسي حتى قدمي. ما لبث أن انهـال علـيَّ بالأسئلة، مستقبلاً ردوداً جعلتها صريحةً علّها تشفع لي.. غير أنَّ ذلك لم يحصل. بدا كأنه لم يصدق ما قلته؛ تماماً مثلمـا يستهين ضـابط شـرطة لتبريـرات مـتهم يحـاول الـدفاع عـن نفسه.

الـذي حصـل هـو اللكمـات والـركلات الـتي انهالـت مـن قبضــات احترافيــة وســط لامبالاتــه، وتحــت خيمــة دخــان سيجاره وهـو يمـلأ الغرفـة برائحـة زكيـة ذكـرتني برائحـة الفانيلا التي كنت أشمها أثناء مروري بمعمل كعك السيد.

لا ادري كــم انصــرف مــن الوقــت، ولا كــم كميّــة اللكمات والركلات التي نلتها بامتياز.. فقط وجدت نفسـي مرمياً في غرفـة تنتشـر عنـد جـدرانها الأربعـة كـراس ذات مساند، مقاعدها ومتكآتها مبطنة بالقطيفة؛ وفي الوسـط منضـدة صـاجية مسـتطيلة معـدة للاجتماعـات فيمـا الارض مفروشة ببساط مخملي قهوي اللون.. على الجدران انتشـرت

صور مزججة عليها كتابات هي حكم ومقولات مما قاله السيد المسيح وحواريه؛ مشفوعة بأيقونات وصور له. وعلى طرفي الشباك العريض ستارتان من قماش الستن اللماع.

بعد ساعةٍ فُتِحت الباب؛ ودخل أحد الذين انهالا علي بالضرب. سحبني من يدي وهو يحدق بي غاضباً.. أدخلني على الرجل المهندم وقد ألبس وجهه هذه المرّة قناع السخرية وعجّت عيناه بما يشبه الضحك.

- "كيف تتحايل علينا في عقر دارنا؟.. من علمك ذلك؟"
- "............"
- "هل بعثك احد لتتحداني."
- "لا."
- "لقد صورتك في مخيلتي احد الشقاوات الساعين لكسر هيبتي."
- "............"
- "أراك صادقاً.. نعم أراك صادقاً. ولأنك صادق اعرض عليك انضمامك لعمّال المخيم؛ ما رأيك؟"
- "ستنتشلني من البطالة ، سيدي."
- "كراون.. نادني كراون."
- "سيدي كراون."

كان حفيف الأمواج في ميناء المدينة يتناهى من بعيد ،

والنافذة تستقبل نسمات باردة ومنعشة مختلطةً مع أصوات صيادين يصاحبهم أبناؤهم في رحلة إدراك عمق البحر، وارتفاع أصوات متحشرجة لشيوخ يتشاجرون يلعبون الدومينو بحماس في أقرب مقهى من صف المقاهي المتجاورة عبر الطريق، ونفير عبارات تتحرك من مرسى لمرسى تربط الأحياء بشبكة نقل مريحة، وضربات حدوات أحصنة عربات تجري على امتداد الطريق المحاذي للشاطئ الرملي. أصوات ذكرتني بما كنت اسمعه عند شاطىء مرمرة، في اسطنبول.

العرض أثار دهشتي بعظم ما أشعرني بالسعادة.. العمل وبأجر ثابت سيتكفل باستقراري ويعوض فقدان فيكتور كعامل طمأنة وشعور بأمان.

في اليوم التالي كنت واحداً من كادر المخيم. أوكلت لي وظيفة استلام بطاقات دخول صالة القمار بديلاً لعامل نقل لمكان آخر. وكنت صرفت الليلة الفائتة اتساءل عن تغير السيد كراون من رجل يأمر بعقابي بقسوة إلى شخص رحيم ورءوف يمنحني فرصة عمل لا تغدقها حتى الأحلام.

على أية حال، صرتُ أقوم بواجبي شاكراً السماء لأني استطعت الأكل والشرب والنوم بأجر يأتي من جهدي.

أحد الأيام فوجئت بزميلي بائع البطاقات الذي اشتريت

منه بطاقة أول دخولي يقترب مني بعد انتهاء عملنا وفي رأسه شيء ما يبغي طرحه عليَّ.. كان رجلاً أربعيني العمر. أطلعني مرةً ان له كلية واحدة ما أثار شفقتي وصرت أخدمه وأقف الى جانبه حين يشعر بوعكة متخيلاً أنه سيموت فأتألم لفقده. قال أن من الضروري استحصال مالاً مضافاً فالأجر اليومي لا يكفي للمعيشة، وعندما قلت له وماذا نفعل وكيف نتدبر الأمر أسر لي بأنه كان وفاحص البطاقات السابق على وفاق واتفاق حيث يعيد له بعض البطاقات فلا يمزقها بل يعيدها إليه فيبيعها مرة أخرى. وفي ختام العمل يتقاسمان ما جمع." بدا الاقتراح مغرياً. ووجدت في الرجل ذي الكلية الواحدة محتالاً مثلي. لماذا أرى نفسي المحتال الوحيد في الأرض مع أن الجميع محتالون وإن بدو مثاليين واتقياء يتظاهرون بالورع ويتصدقون بما ليس من جهدهم وعرقهم بل من خداعهم وأساليبهم الملتوية.

كنت على وشك الموافقة؛ ففي الموضوع اغراء وبمقدوري جمع ما يفيدني يوماً ان فكرت بالسفر الى الشمال وترك اليونان.. كنت على وشك الموافقة أو على الاقل الطلب وقتاً للتفكير بالأمر عندما دوت في مسمعي ما كان يرتله جدي من سورة يوسف ومحاولة زوجة العزيز اغرائه لنشوة مؤقتة ستمر كالغيمة.. تردد قول اللّه على لسان النبي يوسف:

"معاذ اللّه. انه ربي أحسن مثواي". أحسستُ أن شعوراً بالإثم سيبقى راسخاً في قلبي، وأنَّ ضميري سيعذبني عذاباً شديدا. عندها أعلنت رفضي وهددت البائع بإخبار السيد كراون على محاولته الدنيئة هذه إنْ كرَّرَ عرضَه.

في اليوم التالي استدعيت للسيد كراون وقد تفجرت في رأسي شتى الاحتمالات السوداوية والأفكار الرمادية. لابدَّ أن الرجل وشى بي للسيد كراون وقلب مقترحه الشائن فجعله مقترحي؛ تماماً كما فعلت زوجة العزيز مع يوسف عندما لم يجاريها ويلبي طلبها؛ وسيصدقه السيد كراون، منطلقاً من أني ارتكبت فعلاً قبيحاً يتيح لي ارتكاب افعالٍ على شاكلتها وأسوأ، أو سيعلمني بأنني فائض في العمل وسيصرفني فأسقط في بئر الضياع والتشرد. أو أن نحساً تبارى أمام حظي التعيس فجعل السيد كراون يتطير لوجودي فيمارس التعذيب اليومي بسادية دفينة لا يشبعها إلا بضربي الضرب المبرح من قبل حرّاسه؛ وما اكثرهم.

بيد أن ذلك لم يحصل!

الذي حصل انه استقبلني بابتسامة عريضة وقد نادى على بائع البطاقات الذي دخل ليروي أمامه كيف اني رفضت وبشده عرضه وإغراءه.

ابتسم السيد كراون قائلاً: "أردت اختبارك فنجحت

بالاختبار بدرجة امتياز.".

منذ تلك الحادثة او ذلك الاختبار صرت محط ثقة السيد كراون.. "الإنسان يمتلك خصال لا تتمكن الأحداث والأقدار من تغييرها حتى وإن تعرض لمطبات تتطلبسلوكاً لم يعهده." قال ذلك وهو يخاطبني أمام العاملين الذين تجمعوا عند باب المخيم قبل ان ينصرف ويدعهم يغلقون المخيم ساعة انتهاء عمل ذلك اليوم.

صار لطيفاً معي؛ على الضد مما جرى يوم وقفت مذنباً أمامه لأول مرة.. وفي يوم كرَّمني مع مَن كرَّمهم مِن المقربين له.

رافقته يوماً بناء على طلبه إذ جلستُ إلى جواره في عربته الفورد. انطلق عبر شوارع المدينة وصولاً الى المركز.. هناك أمر السائق بالتوقّف عند معرض كماليات؛ فاشترى لي بدلة افرنجية رمادية وقميصين وحذاء جلدي مع ربطة عنق قطنية توشيها خيوط حريرية لامعة.

- "سترتديها عندما ادعوك لمكتبي.. تجالسني كصديق وان تفاوتت أعمارنا."

ابصرَ الدهشة تنسكب من عيني والارتباك من ارتعاش شفتيَّ.

- "الأصيل أصيل" ، قال، "والإناء ينضح بما فيه "..

أغدقَ عليَّ بمطر الفخر.

قلت: "هذا مثل عربي."

قال: "بل مثل إنساني.

بعد يومين جاء من يعلمني بطلب السيد كراون لمراجعته في الحال.

وفي الحال كنت أمامه، راسماً ابتسامة ودود:

- "غداً بعد الظهر ستكون في استراحة. تهندم ببدلتك الجديدة ووافني في المكتب؛ هنا."

في اليوم التالي كنت ألقي التحية عليه في مكتبه.

نهض بعد ربع ساعة من انهماكه في تمشية مجموعة أعمال وتوقيع بعض أوراق ومستندات. قال: اتبعني؛ فتبعته. فتح باباً كانت مغلقة يوم أدخلوني عليه لأول مرة.

كانت غرفة ملحقة، مؤثثة بأثاث فاخر؛ أرائك وثيرة مغلفة بالجلد البني اللامع ومنضدة مكتبية فخمة، على طرفه الأيمن سمكة دولفين زجاجية بالأسود والأبيض والرمادي، قافزة من قاعدة كريستالية دائرية. وعلى الطرف الثاني ثلاثة هواتف. على سطح المنضدة لوح زجاجي صفت تحته صور له في منتجعات وجزر وشواطىء تشبه ما تعرضه الإعلانات المبشرة بالسياحة.. واحدة منها يرتدي الشورت ويتمدد على سرير تظلله مظلة تهمي عليه ظلاً وفي

يده كأس من الكونياك يرتشفه وقد استلقت على سيح الرمال أجساد أنثوية بالبكيني والمايوهات.. شحوم بيضاء تنده بالشمس ترجوها سحنة سمراء.. صورة أخرى تظهره يجلس في شرفة تطل من الطابق الخامس لفندق حملت لافتته الرئيسية اسم "كنج جورج بَالَس" في العاصمة أثينا ، وقد ارتدى بدلة أنيقة ونظارة دائرية كبيرة. جلسة توحي للناظر بهيئة رجل ينعم بالثراء آثر الابتعاد عن زحام عمل شركات يمتلكها ومستشارون يرهقونه بالمواجهات والاتصالات الهاتفية يطلبون رأيه في صفقات تتفاوت في أرباحها واحتمالات خساراتها فيما صورة ثالثة يركب زورقاً شخصياً كالذي كان يمتلكه سلاطين بني عثمان حين يخرجون بنزهة في بحر مرمرة أو يجتازون البوسفور ، ترافقهم نراجيلهم وهي تبث عطر التبغ المخمر بنكهة الليلك.

رحب بي وأشار بيده كي أجلس.

هز ناقوس الجرس فدخل علينا بعد لحظات شاب ذو لحية حمراء يرتدي قميصاً ابيض وبنطلونا رصاصياً ويعتمر طاقية قماش وعيناه على فم السيد كراون. أمره السيد بإحضار زجاجة ويسكي مع بعض المكسرات.

انهمك الشاب بإعداد ما أمره.. وبلحظات كنا أمام جلسة

شرب عامرة.

احتسى السيد كراون أضعاف ما احتسيت. وبدا أنه ارتاح للجلسة واستأنس. احمرَّ وجهُه أكثر وتوهجت عيناه الزرقاوان. البدلة التي يرتديها تعكس غناه وبذخه وتفشي ترافة وأبهة لا يمتلكها إلا المترفون من أمراء القرون الوسطى. وكان الخاتم الذهبي الضخم في بنصره يظهر كفّه الممتلئة كأنها كفُّ راهبٍ؛ وكان حذاؤه البني بالجوارب البيضاء لامعاً كأنه يلبسه للمرة الأولى.

بين فترة Sوأخرى. يحدِّق بي طويلاً؛ وتشرع ابتسامةٌ تنثرُ فراشاتِ الدعابة على وجهه فتَّتسع حتى اسمع قهقهة Wتتفجر في فضاءِ الغرفة، ويتمتم بعينين تعجّان بالدهشة: يا شيطان، كيف تحايلت فغلبتنا نحن الذين لا نُغلب؟ ومن علَّمك تلكَ الخدع؟!

سحب نفساً عميقاً من سيجار اشعله للتو؛ ثم أطلق ضحكة مجلجلة:

- "لو لم تكن غريباً لجعلتهم يكسرون عظامك ويرموك جثة في أحراش الغابة هنالك، فتصبح وليمة للكلاب السائبة."

وبروية وتأمل راح يقول:

- "ولو لم أكن غريباً عن هذا البلد، ولم أكن أشعر

بثقل الغربة المريرة لسحقتك تحتَ قدمي هذه."

كنتُ ظننته يونانياً.. نعم ظننته هكذا؛ لكنَّ اناقتَه وحسنَ هندامه وكلامه الذي راح يتطاير منغمِساً مع دخان سيجاره أعلمني انه من جزيرة مالطا؛ وأنّه قضى عشرين عاماً يتنقل بين مدن يونانية بعدما فقد والديه وهو في سن الثالثة عشر وعاشَ أربعةَ أعوام في ظل تعامل قاس من خاله الاسكافي.. الخال السكير الذي جلبه الى مدينة جوليان حيث يعمل.. الخال الذي تركه وسطَ احتقار زوجته، وتعامل أبنائه مِمَّن كانوا بسنّه بفضاضةٍ خارقة.. الخال الذي جعله يعاني الجوع والخنوع والإحساس بالمذلة بارتداء اثواب بالية وقذرة... إزاء ذلك لم يجد بُدّاً من تركِ بيت الخال ومغادرة المدينة في ليلةٍ ممطرةٍ فيذهب إلى الميناء ليختبئ كالجرذ في إحدى زوايا عبّارة تحمل الجلودَ المملحة النتنة الى اليونان... "هناك أقسمَت السماء ان تنصفني فوصلتُ ميناء كالاماتا اليوناني وعرفت من أحاديث سمعتها بين عناصر العبّارة من الإداريين والفنيين اسم التاجر المصدِّر، والتاجر المستورِد فنزلت مع البضاعة، ودخلت على التاجر المستورِّد بعد إفراغها. وقفت أمامه مدعيّاً حمل تحية التاجر المصدر وتوصيته في إيجاد عمل مناسب.. السماء واصلت إنصافها عندما أظهر التاجر الرحمة فقبلني أجيراً مع

العمال الأجراء... ما زلت اذكر ذلك اليوم الذي وقفت فيه على الشاطئ وقد استلمتُ أجورَ عملي لأولِّ مرة وأحسستُ أنَّ لي ملكية.. في جيبي حفنةٌ من نقودِ الدراخما؛ وفي يدي علبةُ سجائرٍ ابتعتها باعتداد. أستلُّ سيجارةً وألقمها ناراً. أسحب نفساً عميقاً وأطلق الزفير سروراً. مع الزفير أمسح من كتابِ ذاكرتي تاريخاً من المرارات والذلِّ والعذابات، إلى الأبد.. أصرفُ عشرة أعوام تأخذني أيامها عبر المدن الجنوبية اسبارطة، تريبوليس، لاميا، كاتريني، تريكالا؛ صعوداً باتجاه الشمال حيث مدن ذيسالونيكي، كافالا وصولاً الى الكسندروبولِي التي نقيم بها الآن. وها أنت تبصرني أجمع ثروة جعلت مني رجلاً غنياً، بارزاً يخشاه أثرياء البلدة فيتحاشون الصدام به مالياً وتجارياً.. صارت لي زوارق صيد بمحركات حديثة وشباك كبيرة. زوارق تجوب الميناء فتأتي بالثروة السمكية الهائلة، جاعلةً من الصيادين الآخرين مجرَّد أفرادٍ لا ينأون عن الشاطئ. يأتون بما يسدّ رمقَ أسرِهم، متفادين غدرَ البحر ومفاجأة عواصف أردت الكثير منهم غرقى أو مقذوفين بعد أيام عند رمال الشاطئ لتستقبلهم الأمهات باللوعة والزوجات بالدموع والأبناء بالفزع.".

سحب نَفَساً عميقاً من جديد.. تفرس بي؛ ثم ضرب

بباطن كفّه على نابض الجرس. سريعاً دخل الشاب ذو اللحية الحمراء. أمره بتحضير قدح، وسكب بعض الويسكي فيه، وجّه نظره إليَّ يؤمرني بالجلوس على الكرسي قبالته.

- "أفرغ قدحَك، وانسَ أنني عاملتك بقسوة. لا أحب مَن يخدعني فيسرق. حتى لو كانت الحاجة تجبره. سأمنحك غرفةً من البناية المستأجرة. غرفة مؤثثة بأحسن الأثاث. ستتولى من الغد وظيفة رئيس مراقبين كي تكون على اطلاع بمجريات العمل وتقدم لي كل صباح كشوفات عمل اليوم الفائت."

تساقط عليَّ مطر السرور ومرَّ بأعصابي المتوترة سيلُ من طمأنينة أغرقتني براحة مُفتَقَدة. لم ينطق فمّي بالشكر إنما حصد المستر كراون سنابل امتناني من حقل نظرتي المستحمّة بالدهشة، فرسم ابتسامة سمحة.

كان الصمت وراء الباب.. ووراء النافذة تطير النوارس فوق زرقة البحر، وصوت بحارة يتنادون قبل ابتداء رحلة الانطلاق لمشوار الصيد. لا يزال دخان السيجار يسبح قريباً من السقف، وما زالت نكهة التبغ تعطي فعلها على التقبل.. مستر كراون يواصل تفرسه بي كأنّه يقيس شبابه الذي ابتعد عنه منذ اعوام طويلة. أعوام يقدرها بعدد سنوات

عمري؛ أنا الذي دخلت قبل ايام السنة الخامسة والعشرين ولم احتف بعيد ميلادي كما يحتفي المسيحيون.

اشرع بمهمتي رئيساً للمراقبين. أتابع سير العمل ببدلة افرنجية وقبعة جلدية كالتي يرتديها رعاة البقر؛ ربطة عنق عريضة في وسطها حيك نورس أبيض صغير وقد فرش جناحيه على اتساعهما؛ حذاء أسود يبرق من شدة لمعانه.. يهابني العمال فيتكلفون في إظهار اهتمامهم بواجباتهم. لن استغل موقعي، ولن أخون سيد عملي.. أرى السكارى يخرجون يترنحون وقد عتعتهم الشراب المحلي؛ يصرخون ويتعالى صراخهم فينبري لهم حراس المخيم الأشداء. يسحبونهم ويرمون بهم خارجاً.. أرى المقبلين من الباب الرئيس يمرون بالمجاز الضيق المتَّسع لنفرين يقودهم نحو الفضاء المفتوح على السماء فيتفرقون كلٌّ حسب رغبته. يتجه بعضهم صوب خيام الرقص والتعري؛ وآخرون باتجاه مخيم لعب الروليت والقمار بينما العائلات المصاحبة للصبيان والصبيات فيأخذون طريقهم وقد هرول أمامهم الأطفال إلى حيث السيرك جذلين وسعداء يشحذون أذهانهم بخيالات الأسود التي تقفز مخترقة حلقات النار، النمور التي تتقافز وتتمدد على الأرض دون أن ترفض وتنفر وتهجم على من تراه أمامها فتفترسه. الخيول الخابّة بإيقاع منتظم وقد علت رؤوسها ريشات طويلة من ريشِ نسورٍ واعتلت ظهورها بالتناوب

الفتاة المروِّضة الفاتنة نصف العارية وهي تمسك بعصا تتحرك هاتيك الخيول وتتوقف بإشارة منها.. الأذهان متحفزة بشيء من البهجة لمشاهدة الأفعال والحركات والأداء البهلواني للأقزام والمهرجين ذوي الملابس المزركشة والوجوه المليئة بالأصباغ وقد رسمت ضحكة عريضة تمهد لإطلاق ضحكات متوالية ومتواصلة من قلوب المشاهدين.. إنهم متشوقون حسبما سمعوا ممن سبقهم بالدخول في الأيام الفائتة لرؤية الساحر وهو ينفث النار من فمه كالتنين؛ والحَمام وهو يخرجه من الصندوق الصغير حمامة فحمامة؛ والأشرطة الحريرية الملونة وهو يسحبها من اذنه فتمتد لأمتار. والأدهى من ذلك والأكثر حيرة هو كيف يُدخل فتاة شقراء في صندوق مستطيل ويشرع بقطع ذلك الصندوق من منتصفه، ثم بعدها يرصف الجزأين المقطوعين ويرفع غطاء الصندوق فتخرج الشقراء حيّةً لم يمسسها أذى، ولم تنزف قطرة دم.

بعد انتصاف الليل أعود لغرفتي متعباً. ابدد التعب بحمّامٍ ساخن وشطيرة لحم مقدَّد معجون بالبيض المقلي وحبّات زيتون اسود استطعمتها في اسطنبول عندما ألح عليّ سيمور مرةً بعدما رفضت مرات تناوله وهو يقدَّم ضمن الوجبات الرئيسية له ولفيكتور. كان فيكتور يعدد لي فوائد الزيتون الصحية وطيب طعمه فاعتذر معللاً اعتذاري بأننا لا

نعرفه في بغداد، ولم نتذوقه، سواء في البيوت او المطاعم.

أعـود لأتصـفـح كتـاب ويـتمَن وأقـرأ مـن شـعره.. اقـرأ استذكاراً لفيكتور وعشـقه لما اكتشـفه من نـزوع إنسـاني راقي لدى الشاعر. شاعر تغنى بالحياة، واتخذ درب التفاؤل والانفتـاح علـى الطبيعـة والإنسـان.. أُعجِبتُ بذائقـة فيكتـور وروحه الحيية النقية، أكبرت فيه عشقه لكل ما هـو بعيد عن التجني والاستحواذ؛ لكل ما يتجاوز العقبات والبرازخ. فالنكوص، كما كان يبوح أمامي، لا يقود إلا إلى تقهقر ذاتـي يصـنع حالـة مـن انهزاميـة تُـذل البشـري، محطمـةً كبرياءه؛ ومطيحة بهيبته.

أفتح دفتر مذكرات فيكتور على آخر صفحةٍ كتبَ فيها آخر كلمات... كلمات كانت تتناول اليونان، حضارةً وبنـاءً وأفكـاراً تعلـي هيبـة الإنسـان في سـعيه للبنـاء سـعياً لتخطي الحاضر وولوج المستقبل. المستقبل الغيب وهو يضم بين طياته ما يُدهش وما يثير فضول الإنسان المجبول على القفز الى أمام بوصفه سرّ لابد من فكّه وحل ألغازه:

"جئت الى الدنيا ونشأت على زقزقة عصافير وحفاوة أشجار. سلسلة الجبال من بعيد تبعث ببريق قبعاتها من الثلج الناصع .. ما كنت لأغادر بلدي لو أنَّ الحياةَ تطاق.. ما كان عليَّ التفكير بتركِ كارس ولا اسطنبول لو أني اشعر

بالرضا عما أنا فيه.

"أثينا ابنة الحضارة، ومنبت توهج العقل الإنساني.. الأثيني بردائه القطني الأبيض ونعليه الجلديين بالسيور الطرية؛ بخواتم الأحجار الكريمة والفضة التي تبرق فتضيء أصابعه وتطعم كفّه بنور السحر التي تنحت الحجر وتطوّع الفولاذ لإنتاج حضارة ترسم الإبهار في عيون المتطلعين وتفجر في قلوب المقبلين عليها جبال الدهشة.. أثينا الفتنة والكبرياء؛ والأثيني مهندس الجمال، ومعمار الألق.. الحجر بيده طينٌ مطواع، يحيله بنظرةٍ من عين وإشارة من عقل صرحاً للكبرياء والخلود. أنا وصديقي هاتف أخذنا جولةً على ما تركوه من إرث جميلٍ يحتفي بالإنسان ويمجد الطبيعة. أنا وهاتف صنعنا من الترجل أبجدية للمتعة. قرأت في عينيه بريق البهجة لِما رأى، وأظهر أسى لان في بلده ما يشبه آثار أثينا وانجازاتها لكنها مطمورة تحت تراب الإهمال والجهل والنسيان.. حدثني عن أوروك وسومر وأكد؛ عن البابليين والآشوريين، بناة حضارة وادي الرافدين. قال "دمرونا في بلداننا هؤلاء الترك مثلما أبادوا أهلكم الارمن. لهذا ترانا، أنا وأنت، كأننا واحدٌ.. أحب هاتف صديقاً".

***

مـع تعاقـب الاشـهر وتهافـت الايـام شـرع الضـجر يـدفع بمجسـاته تجـوب مسـارب الـروح، وصـار الاختنـاق وهـروب الهواء من رئتي حالة تتكرر؛ كأنني سأختنق؛ كأن البلاد تتكرس سجناً والكسندروبولي تضيق عليَّ فتغدو كهفاً يضـيق ويضـيق.. الـتفكير في تـرك المكـان صـار ديـدناً. الـتفكير ثـم الـتفكير وتواليـه اليـومي اسـتحال سـوداوياً ورمادياً يلـوّح لـي بـأذرع الجنـون.. تعـود دوردانـة لتتمثـل في أحلامـي. وكلما تذكّرتُها تراءت لـي بصورة الولهى فاتحة الذراعين وقد تنهدت تطالبني بضمها لصدري أو هي غاضبة تعبر عن زعلها بسبب تأخري في اللحاق بها والوصول اليها.. فكرت في أمر الفلاحين المنشدّين للمكان. الفلاحون الذين يقضـون العمـر علـى بقعـة محـدودة مـن الأرض، لا سـفر ولا رحيل. رائحة الأرض تجذبهم وتشدهم اليها فيرون فيها حبيبة لا بـدَّ مـن الإخـلاص لهـا والتضـحية بكـل المتـع مـن أجلـها؛ فكـرت في شـأن المـرأة في بلـداننا وهـي أسـيرة جـدران بيـت وخدمـة لا تنقطـع؛ فكـرت في أمـر الكـثير مـن ذوي الحـرف وهـم يسـفحون السـنين داخـل جـدران دكـاكينهم حتـى إذا انتبهوا لأنفسهم اكتشفوا أنهم لم يروا مـا يقـر بفيض نهلـهم من الحياة ونيل حصتهم المفترضة من السعادة والسرور.

احتسي كاس الكونياك فلا احظ بلذة كالتي كنت

استمتع بها. ألعب البوكر فلا اجني نشوة ما اربح، ويضحك السيد كراون فلا اقدر على مجاراته. وفي لحظة تيه ونظرات رحلت بعيدة انتشلني:

"- ما بك؟!"

- "الحنين"

- "اي حنين؟"

- "حنين العودة الى الوطن؟"

أدري انني اكذب. ولا يجب أن أكذب على رجل رأى شبابه بما فيه من صراع وجهاد مع الأقدار والزمن بمثل ما أمرُّ به الآن فقرر من صميم أعماقه تعويض ذلك الشباب من خلالي.. أدري أنني أتجنى على الرجل إن جانبت حقيقة بغيتي؛ فهل أصارحه بما في القلب، وأطلعه على قرار الوصول لدوردانة؟

أطلقَ قهقهةً.. سكب بقايا الكأس في جوفه، سحب نفساً من السيجار وبعثه أمام وجهه؛ احمرت عيناه:

- "أي وطن يا معتوه.. الأوطان كذبة يلقنها لنا الأوغاد كي نكون لهم عبيداً ويكونوا هم سادة نمسح لهم أحذيتهم ونربي لهم أولادهم."

نهض يترنح.. اقترب مني. دفع يده في جيبه.. اخرج دفتر الصكوك.

- "هذا وطنك."

وكنت أريد ان اقول؛ وقد لعب السائل السحري فعل الفتاة الغاوية حين تستدرج بريئاً لم يعشق من قبل وقد وضعت كفي على جيب قميصي حيث عنوان دوردانة يغفو على نبضات قلبي: وأنا وطني هذا.

عاد الى مكانه.. ملأ الكأس وارتشف بروية:

- "عندما رحلتَ.. هل نده عليك الوطن.. هل بعثوا اليك بما يعيدك الى حضنه وطلبوا بعين الرجاء الرجوع؟.. إنهم بخروجك حسبوك اكتشفت خداعهم واطلعت على أبجدية حيلهم، لهذا بتركك الوطن ما عادوا ينظروا لك مواطناً... سيرتابون منك ان عدت وسيلاحقونك أينما تحركت".

انها الفرصة التي عليَّ اغتنامها:

- "أعلن قناعتي بما قلت سيد كراون؛ وأراك تنطق الحكمة وتؤشر الرأي السديد.. سأتجه نحو الشمال إذاً. أريد الرحيل شمالاً."

- "لا!.. لا!.. ستندم.".. قالها من بين ثنايا الخدر.. "ستندم وستعود الى هنا."

- "لن اندم.. لا؛ لن اندم.. لي هدف هناك. فقط أكمل فضلك عليَّ وساعدني بما اطلبه منك."

وسع من نافذتي عينيه؛ وطرد الخدر المستأسد على

جفونه:

- "هدف؟!.. قل!.. لن اتوانَ عن مساعدتك."

- "اريد الوصول الى ألمانيا. هذا هدفي النهائي. ولكن قبل ذلك ساعدني بالدخول إلى بلغاريا... نعم بلغاريا؛ ومن هناك سأواصل.. ومثلما رحمتني السماء بشخصك النبيل وكرمك اللامحدود سترحمني بشبيهك هناك.. الدنيا لا تخلو من الرحماء."

صمت؛ وفكر. مرر أصابعه بين شعر رأسه. ضغط بإبهامه وإصبعه الوسطى على صدغيه كأنه يبحث عن جواب. أشعل سيجاراً آخر ونفث اول دفعة من دخانه.. تأملني بنظرة طويلة قبل أن يفوه:

- "هذه مغامرة كبرى قد لا تقدر على الخوض فيها واجتيازها، خصوصاً وأنت وحيد تفتقد الى اللغة والمال والتعامل كما ينبغي.. ثم أنَّ المسافة بعيدة!.. عليك ان تقطع الأميال تلو الأميال، وتجتاز جغرافية فيها مجاهيل.. انك لمن الضائعين."

- "روحي لا تطيق البقاء في اليونان بعد اليوم؛ والعودة الى بلادي مسحتها من رأسي. ودوردانة تنتظرني هناك.. أقصد قد تنتظرني."

- "دوردانة؟! مَن دوردانة؟!!"

قصصت عليه حكايتي معها. بل قصصت كل حياتي.. بغداد وما فيها. نشأتي وما دعاني للخروج منها. خشية جدي عليَّ وخوف أمّي من أن ينالني سوء مثلما حصل للآلاف الذين سيقوا الى حرب القفقاس وقُتِلوا هناك ولم يعد منهم أحد. قتلهم البرد والجوع والطاعون والضياع وسط لامبالاة جندرمة العثمانيين وقادتهم الذين يعتلون الجياد بالسروج الجلدية المريحة وهم يرتدون القفاطين الصوفية وينعمون بالدفء ويتناولون خيرة الأطعمة ويدخنون النراجيل ويتمتعون بأجمل المحظيات والجواري من النساء ويرتشفون النبيذ ارتشافَ مَن بيده الملك وهو على كلِّ شيءٍ قدير. بيدهم السلطنة والإمرة والباشوية، السرايا والثكنات والقلاع. يأتمر بإمرتهم الجلادون والعبيد والمخصيون، القيان والمحظيات في الوقت الذي يكثرون فيه من بناء المساجد ويعلون ارتفاع المنائر ويكبرون أحجام القبب واتساعها ويشيعون لبس العمائم والصايات وإطالة اللحى وحلق الشارب، ويدعون الناس إلى الإيمان والتقوى والتزام أحكام الدين وعدم الخروج على تعاليمه، فبالخروج كفر، والكفر يفضي إلى إباحة قتل الكافر بلا حساب ولا ذنب، وهذه تهمة وحجة وإدانة وظفوها لقتل مَن يعترض أو يحتج أو يتشكى من استحواذهم على ماله وعرضه وأطيانه.

هزَّ رأسه تململاً وجزعاً.. وكنت أريد التكلم بالكثير والكثير؛ ظلم ذوي القربى، وتجني الأخوة في الدين، السلب والهتك؛ المداهمات الليلية والاعتقال الكيفي؛ الاتهام بلا دالّة والحكم بلا ذنب؛ فرض الإتاوات واستحصال الجباية دون قانون؛ إشاعة روح الخوف والتلويح بعصا العقاب القاسي الذي ليس أقله التشهير أمام أنظار الناس في الأسواق والشوارع والجوامع، في المقاهي والتكيات، وحتى المقابر وتلويث السمعة بفعل مشين بما ليس واقع حقّاً.

هزَّ رأسه تململاً وجزعاً؛ وكأنه سمع ما قلت في داخلي.

أعلن موافقته على قراري. ووعدني بالمساعدة.

سألني عن جوازي، فأعلمته عن حاجتي لتأشيرة دخول الى بلغاريا وقلقي من اكتشاف عدم وجود تأشيرة دخول الى اليونان على جوازي.

بعد ثلاثة ايام؛ وأنا اجلس قبالته استخرج من جارور مكتبه جوازي وقد ختم بتأشيرة دخول الى اليونان بتاريخ سابق مع تأشيرة رسمية وأصولية الى بلغاريا. قليلاً واستخرج دفتر صكوك. دوَّن على صكٍّ اسمي ومبلغ مائتي دولار. تأملني بعينين فاحصتين لقياس مدى تأثري وما ازمع القول حيال هذا الفعل. تصرف كريم من نفس كريمة ماذا ترد عليه. وبأي الكلمات تستطيع رسم مشاعرك لتقدمها لوحة

شكر تحمل كل مواصفات الإعجاب لتعبيرك وأحاسيسك؟

****

في ليلة من ليالي انتظار السفر جمعتني الساعات مع السيد كراون.

بدا مرحاً كقمر وإن كان بريق عينيه يهرّب بعضاً من برقيات الحزن لفراقي.

مرحاً بدا وهو يطالعني فيحسبني هو، هو!.. الشاب الطموح آنذاك الذي سيشق بقلبٍ من تحدٍّ درب أيامه القادمات بالإصرار على النجاح.

"المنى لا توهَب إنما تكتسب بالتصميم، وتُدرك بالتعالي على الآلام والمصائب.".. راح يقول كما لو أنه أنا.. "النجاح من ديدنك إن أحكمت انطلاقتك وسلكت صحيحاً درب الحياة.. ستبلغ دوردانة؛ وستلتقيها."

كان اختار مكاناً تقل فيه الإضاءة في كازينو مطلة على البحر. نسمع تكسر الأمواج وقد تأهب لخدمتنا نُدلٌ كانوا يتحركون بوسامة بصداريهم البيض الناصعة.

كان عدد من أصدقائه ممن يمتلكون العقارات في الكسندربولي ويتحكمون بمال السوق يشاركوننا الحضور؛ وكنت أنا الفقير الأوحد بينهم. رصيدي السيد كراون الذي أظهرني أمامهم كشخصية لها ثقلها في

تجارته، ولم يتعال أو يظهرني كما لو كنت تابعاً.. هذه شيم كبار النفوس؛ خصال الكرماء الأعاظم.. اترك السيد كراون يتحدث واستذكر كلمات جدي حين تحكى على مسمعه حكايةً الناس الذين يتحلون بالإباء والكرم:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ // وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

كان سحرُ المكان كريحان القلب رغم ألم الوداع القادم، يشيع اريجه مُغرِقاً الحالمين في غفوة غيمة ستمطر بهرجة عندما تستيقظ الربوع بجبالها وسهولها ووديانها. كانت السماء كأنها أفرغت أناشيدها على قمم الجبال ودعت السهول للمراح، وقالت للبشر: وماذا بعد؟ وقالت لي: مسافة الألف ميل تبدأ بخطوة. إسطنبول ساحرة كانت وهي تخرج إليَّ من بستان الذاكرة. الكسندروبولي هي الاخرى كانت جميلة اشهد رؤيتها يومياً كأنها مراهقة ترفل بجسد يتلوى غنجاً.. وكانت أثينا أجمل كما صورها لي فيكتور. وكنت في الجلسة استرجع بغداد وأعيد صياغتها عبر كلمات فيكتور التي خطّها عن مدينته كارس بحبر الأسى على ورقِ مذكراته. أسترجعُها مدينةَ ألف ليلة وليلة لا بغداد الشوارعُ المتربة، العجوزُ المتهالكة وقد أرهقها الدركُ العثماني واستولى على حلمها في العيش الكريم وجثم على

صدرها فخنقها وتركها عليلة شقيّة. فأتساءل بلسانِ الوجع: مَن ينتشلُها من جُبِّ الشقاء ويعيد لها جبينَها الشمسي وكبرياءَها الجليل؟

أمسكُ القلم، وأكتب:

"التاريخُ أسئلةٌ فيما الجروحُ شعر.

بغداد لافتةٌ بينما الكلماتُ في طمث.

وجعٌ يحاور قدراً. وقدرٌ يتشفّى بساديةٍ مريعةٍ لروحِها المُترعة بالآه.. الحناجرُ صدئةٌ والأصابعُ مقضومةُ المخالب.. إنَّ المرارةَ لمذاقٍ يومي، يا بغداد، وإنَّ القلب لفي جمرٍ.

لا تغرقينا بالعويل أيتها النار المتسللة كأفعى، لا تحاوري لحمَنا بالشواءِ وعظامنا بالتفحّم."

في العربة التي انطلقت من المحطة كانت الحقيبة الصغيرة بين قدمي، وتحيةُ السيد كراون لحظةَ توديعي والشدِّ على يدي تتبارى في مسمعي كأنَّها شريطٌ تسجيلي كرر لعديد المرات، وكان الجوازُ الأصولي نائماً في جيبِ سترتي.

تذكَّرتُ فيكتور.. تذكرته بألم.. تذكرتُه شاباً ممشوقاً بوجه أبيض مائل للحمرة وخفة حركة تجعل من يواجهه يسعى لصداقته.. تذكّرته وهو يغفو وقد اتكأ رأسه على كتاب والت ويتمَن وراحت أجفانه تنطبق دون معرفته

بمتابعتي له وهو ينام.. تذكرت كلمات دوَّنها على صفحة من صفحات مذكراته:"لابد للبشرية من التلاقي ولابد من رفع الحدود. نحن نحيا لمرة واحدة فلماذا لا نرى العالم من أقصاه لأقصاه؟ ماذا فعلنا كي تقف الحدود برازخ تمنعنا نحن البشر من التواصل؟! ".. إنها رؤية والت ويتمَن الإنسانية. من هنا كان تعلّق فيكتور به وحفظ أشعاره وسعيه لتجسيدها واقعاً تفصيلياً.. تذكرته وهو يشكو متألماً ما يسمعه من دعاء كل جمعة بعد الخطبة وأداء صلاة الظهر، ويتساءل علّه يحظى بإجابة مني انا المسلم: "لماذا يشتموننا من فوق المنابر وقت الصلاة؟ من الذي علمهم ان يصرخوا: " اللهم العن اليهود والنصارى وأذقهم النار السعير؟.. ماذا جنينا فيتضرعون للرب كي يلعننا؟ ماذا ارتكبنا كي نُلعَن بهذا القدر من الغِلِّ والكراهية.".. لطالما كانت شكواه مرارة تقطر أسى من عينيه؛ ثم بعد قليل يهدأ، ويجيب كاليائس: "لا قدرة لنا كأفراد في تغيير العالم.. آه والت ويتمَن.".

(٥)

الشغف

كنت اريد تكملة القراءة لكن الوقت تجاوز الثانية صباحاً وأديب جرمانوس سيكتشف بسهولة سهري وعدم اخذ كفايتي من النوم بمجرد التحديق بي. سيقول هاهما عيناك منتفختان واجفانك مسبلة. سهرك يؤثر على وتيرة العمل ويجعلك ترتكب أخطاء. وأنت تعرف ان عملنا بالأرقام والخطأ في رقم يعني فخ سيوقعنا به مدققو الوزارة.. كنت اجد في كلامه حق؛ لكن الكتاب شدني؛ وخصوصاً كانت وجهة هاتف غازي هذه المرة صوب صوفيا، العاصمة البلغارية، مشيراً لها بالعام ١٩٢٦..

سأرقد أذاً؛ وغداً سألتهم الصفحات وأتلذذ بعسل كلمات هذا الرجل الذي صار نجماً شغفت في متابعته وهو يدور في مدارات نجوم أثيرة وفاعلة ومثيرة لقراء يعشقون ملاحقة مغامرات غيرهم ويحلمون بإتباع خطاهم في الحياة.

ليلاً.. وقد آب سكان النزل وهدأت حركة الأقدام وانتهى الكلام المتبادل عندما يلتقون بعد مشاوير عمل. أمسكت الكتاب وتوجهت مع هاتف غازي الى (صوفيا):

ودعني السيد كراون؛ شاداً على يدي، وعارضاً عليَّ العودة ومُرحباً بي إن أخفقت في مهمتي أو واجهتني عراقيل يصعب تجاوزها. ودّعني وهو يقول: ما يعجبني فيك مغامرتك واندفاعك، وشعورك بضرورة التغيير.

كان سفري عصراً. رحلة غامضة وغائمة ومليئة بالمجاهيل ستستغرق الليل كله.

مجموعة مسافرين انطلق بهم الباص من المحطة الرئيسية المواجهة للبحر قريباً من الفنار، على أن تمتلئ بطريقها في المدن والقرى التالية وهي متجهة نحو الحدود. حقيبتي على كتفي احتوت ضرورياتي.. على مرمى بصر أرى مجموعة صبية يتبارون في الجري والوصول لحافة سياج الفنار وفتيات مراهقات بتنورات قصيرة وقمصان مزركشة يستعرضن مشيهن بتناغم وهنَّ يشرن لمجموعة زوارق فيها بعض الصيادين الشباب من أعمارهن، يطالعوهن بوجوه مرحة وشفاه تحاول التحرك كتعبير عن التعليق. عجائز يلوِّحن لأزواجٍ وأبناءٍ صعدوا الباص واتخذوا مقاعدهم ووجوههم تشي بقلق من سفر سيبعدهم عنهن.. ومن هناك؛ من كشك بعيد يبيع المرطبات خرجت امرأة أربعينية ترتدي سترة رجالية وتنورة طويلة وتنتعل شبشباً أسفنجياً: لوحت بيدها وهي تهتف: لا تنس معطف الصوف، يا فاسيلي!.. فيأتي الرد

من شاب أشقر يلوّح بيده من النافذة الخلفية للباص: اطمئني يا أمي، يا كاترينا العظيمة! كيف أنسى وأنتِ أمي؟!..

في الجيب الجواز وأوراق الدراخما اليونانية ستعينني على تصريف المتطلبات طالما أنا على الأرض اليونانية. اختار مقعداً خلفياً، فلم يشغل الكرسي المحاذي لي أحد. أفضِّل النوم غير آبه لمطالعة جغرافية سيمسحها الباص، ولم يدفعني الفضول لمشاهدة القرى المنتشرة على جانبي الطريق ومصابيح إنارتها الصفراء يحتضنها الليل الأدهم. على يميني جلست عائلة بلغارية لفحت ريح البرد وجوه أفرادها وبانت ملابسهم رثّة يبدو أنهم فشلوا في كسب عيشهم في اليونان فآثروا العودة بخفي حنين. أمامي رجل ألماني بقبعة جلدية وغليون ينفث دخاناً برائحة محببة تجعل الجلاس يستنشقونها برغبة وهم يطالعونه بإعجاب بينما انطلق من خلفي عزف آلة هارمونيكا. حين التفت شاهدت فاسيلي الذي لوح لأمه ينفخ وهو يمرر الآلة يمينا وشمالا على شفتيه كأنه يقضم سندويشة، عيناه زرقاوان تعجّان بالحياة وشعره الأشقر اللامع مائل على خده الأيمن ورقبته حمراء محتقنة. يحاول دفع الركاب لطرد الملل واستبداله بإيقاع راقص؛ وهو ما جرى. فما أن قطع الباص مسافة حتى صفّق رجل خمسيني ببدلة إفرنجية وطاقية كالتي يعتمرها لينين زعيم

روسيا الذي شرع الكثير من اليونانيين الشباب يحاكونه في الملبس. نهض من مكانه يدور حول نفسه ويرقص، ما لبث أن أخرج من جيب سترته الداخلي علبة نبيذ معدنية فضيّة أحتسى جرعة ثم عاد يرقص ويصفق. رؤية الرجل بهذا الاحتفاء بالحياة واستدعاء المرح جعل مجموعة مراهقين يفتحون عيونهم دهشة ثم ينـدفعون من بين الكراسي مجتازين الركاب ليتحلقوا حوله فيجارونه في الرقص والتصفيق. تتداخل السنين وتتفاعل الأجيال ويتعالى الشعور الإنساني لضرورة حب الحياة وامتصاص رحيقها تجاوزاً على مآسي لم تفارق الأمم والقوميات المتنوعة، وتعالياً على جراح ظلت تنز في قلوب الملايين من الأوربيين المبتلين بحروب تترى.. ولم تنته هذه الملحمة الموسيقية الراقصة ولم يكف فاسيلي عن النفخ بآلته إلا عندما توقف الباص وصعد إليه شرطيان يتفحصان إشارات عبور الحدود ويختمان الجوازات.

كان جوازي وأختامي أصولية لا شائبة فيها. عندما وصل الباص مدينة بلوفديف ونزل إليها الركاب وتناولوا القهوة الساخنة في مطاعم الطريق ودخنوا السجائر بقيت أنا في مقعدي لم أتحرك.. تذكرت ما قاله لي احد العاملين في السيرك ممن عمل والده يوماً في بلغاريا وعاد يشكو من الضائقة الاقتصادية أن وصولنا لصوفيا سيكون في اليوم

الثاني، عند الغروب تحديداً.

- هناك انزل في فندق جيوفانا. فندق تديره امرأة أرملة اسمها كريستينا قتل زوجها في حرب البلقان الأولى عام ١٩١٢يوم تحالفت بلغاريا مع صربيا ومونتينغرو واليونان ضد الدولة العثمانية. وقتل ولدها الوحيد بوليسلوف في حرب البلقان الثانية في العام ١٩١٣ يوم خاضت بلغاريا الحرب ضد صربيا ورومانيا ومونتينيغرو واليونان على غنائم حرب البلقان الأولى. فقط ابنتها الصغيرة جيوفانا بقيت فسمَّت الفندق باسمها. لم يكن فندقاً بالمعنى البنيوي لفندق: صالة بأرائك وثيرة وغرف فخمة مجهزة بأسرة ودواليب ومرايا وثريات وثيرة بل بيت جعلت منه نزلا وأعطته اسماً بعدما استحصلت موافقة إدارة العاصمة في فتحه إكراماً لما وهبته للوطن من تضحيات مع انه لا يحمل مواصفات الفنادق المعتبرة. فندق يقضي العمال واغلبهم ذوو وجهات ريفية ليلتهم بأجر بسيط.

قال ذلك، وأضاف:

- وبإمكانك من هناك أيضاً مواصلة رحلتك بالقطار نحو هنغاريا. وإذا وصلتَ عاصمتها بودابست ستكون قريباً من النمسا.. السكك الحديد تختزل المسافات وتقلل المعاناة مقارنة بالباصات وعربات الحمل البطيئة المملة. القطار

سيوصلك إلى البلدان المحيطة تشيكوسلوفاكيا ورومانيا والنمسا. ومن عواصم تلك الدول تصبح قادراً على السفر بعيداً لدول أخرى.. الأرض واسعة، يا أخي، والجغرافية تفتح ذراعيها لمن يحمل في قلبه حب المغامرة ودماء فضول الاكتشاف.

(بعد إسهاب طويل ووصف لما مر به وما واجهه وهو يقطع المسافات الشاسعة وقد تجاوز الجبال والسهول، وشاهد وجوها بشرية ليتوانية واوكرانية وصربية وبوسنية ولاتفية، فرنسيين وايطاليين وانكليز وايرلنديين ومن الدول الإسكندنافية ذوي الشعور الشقراء والعيون الزرقاء يشير هاتف غازي إلى أنه سيلتقي أناساً لهم وسائلهم وطرازاتهم وتعاملهم في الحياة وطرقهم المتفاوتة في التواصل.)

في محطة الباصات الكائنة عند اطراف العاصمة صوفيا وبعدما رميت الحقيبة على كتفي وتحركت متخذاً الرصيف مديراً نظري بحثاً عمن يدلني على واسطة تنقلني لوسط المدينة. أشار احد الركاب الذين كان معي إلى التوجه صوب مكتب متخصص داخل المحطة؛ إلى الجهة المعنية بتلبية حاجات السياح الأجانب والمغتربين.. وجّه الموظف المختص سائق عربة أعطاه عنوان يوصلني إليه. كانت العربة بخمسة أنفار صعد إليها سبعة وراح السائق يوزعهم داخل

المدينة، قاطعاً شوارع معدودة. ثم أخيراً توقف عند مجمع سكني بثلاث طوابق جوار متنزه صمم حديثاً بشجيرات سرو ما زالت ناهضة تواً ومصاطب كونكريتية للجلوس وأقواس خشبية كصبغة جمالية؛ وهناك في واجهة المتنزه انتصبت قاعدة عريضة من المرمر ترتفع ثلاثة أمتار وقد هيّئت لاستقبال تمثالاً رخامياً نصفياً للملك بوريس الثالث. ارتقينا الطابق الثاني. طرق السائق الباب فتواربَ على امرأة ستينية طويلة ونحيفة، بشعر ابيض قصير. ابتسمت لمشاهدتنا، وردت على السائق بترحاب. ثم دعتني للدخول بعدما ودعت السائق.

صوفيا لها اسم ثانٍ. اسمها الحقيقي سيرديكا وتعني الحكمة في اللغة اليونانية القديمة قبل أن تأخذ اسم القديسة صوفيا.

في صوفيا صرفت أسابيعي الأولى متجولاً كما في أيام تجوالي عندما وصلت اسطنبول.. صوفياً التي نزل فيها العثمانيون لأربعة قرون فشيدوا المساجد والحمامات والنافورات مع ما بناه قبلهم البيزنطيون والرومان من كنائس وأديرة وما سيدخل إليها الروس ويبسطوا سيطرتهم عليها لوقوفها إلى جانب هتلر في الحرب العالمية الثانية ويقيموا نظامهم الشيوعي في ما بعد؛ صوفيا هذه

رأيتها مدينة صغيرة ليست بكبر وسعة اسطنبول. أناسها قليلون. مدينة تحيطها الغابات؛ وخلف الغابات الجبال.. يمكن مشاهدة جبل " فيتوشا" بقمته المكللة بالثلج اغلب أشهر السنة. معالم كنائس صوفيا تبرز كأكبر وأجمل أبنية عمرانية فيها رغم قدمها.. عاصمة يدخلها القرويون بأعداد كبيرة. يدخلونها بعربات تجرها الخيول وقد حملوا نتاجهم الزراعي والحيواني من فاكهة وخضروات ودجاج وبيض الدجاج والديك الرومي وخراف وماعز جبلي نزق صعب السيطرة عليه.

يشرع الناس حركتهم صوب أعمالهم صباحاً فيما تهدأ المدينة عصراً فيقل سكانها لأدنى من النصف.. في الأحياء المنعزلة أبصر الطرقات فارغة إلا من عجائز بلغن التقاعد وارتضين العيش مجبرات على الوحدة. لا أنيس لهن إلا الخروج عصراً نحو حديقة قريبة بُذل الجهد الكبير كي تكون روضاً مقتطع من جنة، فالأرض خضراء ينتعش فيها العشب ويينع اخضرَ، وأشجار كثيفة الأغصان والأوراق مشذبة بهياكل حيوانية: دببة وأفيال وزرافات بينما المصاطب الرخامية المستندة على عوارض وقواطع كونكريتية تتوزع على حافات ممرات إسمنتية أخذت لون لحاء الشجر، إضافة لمصاطب خشبية لها متكآت عالية

أعـدت خصيصـاً للكهـول والشـيوخ كـي تـدعم ظهـورهم وتسـمح برفـع أقـدامهم المتعبـة إلى أعلـى سـعياً لنيـل حالـة استرخاء. أما الـورود فقـد فعـل الـذوق الفـني فعلتـه إذ توقفـت شـجيرات اللـوتس متباهيـة بزهـور صـفراء كـأنهـا كـؤوس كريسـتالية تـدلق نبيـذاً معتقـاً. شـجيرات جمعـت لتأخـذ أشـكال هندسية مستطيلة ومربعة ومثلثة أريد لها أن تكـون أبوابـاً مشـرعة لمحـاورة نفـوس الـرواد بلغـة الجمـال ومصـادر الرهافـة.. تتبـارى الألـوان في هياجهـا وتبتسـم فتيـات الـورود باعثـة دفقـات متواليـة مـن أريـج لذيـذ ، وإيحـاء يقـر أن الشيخوخة بمثابة زمن الاستمتاع بعد عمر صرف بالجهد والشقاء والمثابرة؛ بالمطامح والأمل والبناء.

الطرقـات فارغـة ، والهـدوء أبجديـة لا يمكـن نكـرانهـا.. هناك قضيبان عموديان مثبتان بالأرض يبعد عنهما قضيبان بمسـافة مترين (أمـام كـل بيت يمكـن مشـاهدة مثل هـذه الأعمـدة الـتي تشـكل صـندوقاً قاعدتـه الأرض). ترتفـع هـذه الأعمدة لثلاثة أمتار أو أكثر. وتمتد أسـلاك متوازية متصلة بقاعـدة عليـا للأعمـدة تـدلت منهـا ملابـس غسـلتها الأيـدي المثابرة وتطلب تجفيفهـا؛ وليس غير السماء والهواء خير من يتولى التجفيف طبيعياً.

الطرقـات خاليـة ، والشـقق صـغيرة مخصصـة للعجـائز؛

نماذج لترتيب يبعث على النظام الصارم..

في الشقة التي نزلت فيها توجد أريكة وسط الصالة، أمامها طاولة مستطيلة واطئة؛ عليها مزهرية بشكل تفاحة من الزجاج الأصفر الفاتح المشوب ببياض ثلجي مصنوع محلياً، فيها ورود اصطناعية زاهية. غرفة النوم بسرير لنفر واحد وبوفيه بمرآة مستطيلة ناصعة. على صدر البوفيه اصطفت قناني العطر وعلب البودرة وأصابع الروج وأمشاط وملاقط وعلب تدخل من اكسسوارات الميك أب. ترفع العجوز إصبع روج احمر كالدم بعدما تنتهي من تمشيط شعرها رغم قصره وسقوط الكثير منه كضريبة يقدرها ويقتطعها زمن الشيخوخة. تطالع الصبغة الأخيرة التي ارتأتها بذوقها وأيدتها في الاختيار العاملة في محل الكوافير الذي لابد من المرور قربه كلما خرجت من الشقة أو عادت إليها. تضغط بإبهامها وسبابتها المرتعشتين وتروح تمرره على الشفتين المزمومتين (إنها تتحدى الشيخوخة كلما ظهرت لها من ما وراء جدار الزئبق الأبيض.. تقول: يجب أن أعب من الحياة جذوتها وعسلها، فهي من حقي ومن حصتي الزمنية التي منحتني إياها السماء.. لابد من الاستمتاع بها. ترسم الصليب على صدرها وتغمض عينيها وتتبارك من فيض رحمة الرب ودعوات يسوع لاغتراف الطمأنينة وإبعاد ما

يغيظ النفس ويؤلمها). ترفع البوم صورها جوار إنجيل تلتجئ إليه شأنها شأن كل من يرتئي الطمأنينة ويواصل تعلقه باللغة من خلال القراءة وممارسة طقس التوجه الأسبوعي للكنيسة؛ كل أحد... هناك تندمج مع جموع المصلين في رحلة روحية تغدق عليهم السيدة العذراء سماحتها، وينثر ابن الرب طمأنينته وتعهده في كسب رضا الرب عنهم ومحو خطاياهم.

مطالعتي لصفحات الألبوم عرفتني عليها كفتاة نشأت في عائلة كان الأب والأم رمزان للعمل والمثابرة مثلما كانا موئلان للعطف.. صورة بالأسود والأبيض كانت بعمر الرابعة تقف إلى جانب أخ يكبرها بعامين؛ وخلفهما على كرسيين يجلس الأب ببدلة سوداء وقميص أبيض وربطة عنق تقطعه عرضياً خطوط بيضاء فيما أمها بمعطف برزت من جيبه وردة جوري كبيرة اقتطعتها من الحديقة الأمامية لبيتهم؛ فقد لعبت كثيراً عند شجيرات الورد وكانت ترى أمها شديدة التعلق والعناية بالورود.. تسقيها وتسمد أرضها وتشذبها وتقاوم الحشرات بمبيدات تذهب خصيصاً بعربة إلى معارض مبيعات المبيدات والعدد الزراعية عند أطراف المدينة من أجل جلبها.. تراقب بزوغ ورود جديدة فتتفاءل وتسعد لجمالها وحيويتها وتوصيها وأخاها بعدم الإضرار بها

بينما تقطف الورود التي تراها آيلة للذبول. تأتي بها لتفرط وريقاتها على الطاولة الوسطية راسمة لوحة فنية جميلة وشذا يتعالى، فاتحاً أسارير الداخل إلى البيت الذي يروح يتساءل عن سر العطر الفاغم في الأرجاء.

في صورة أخرى ثبتت إصبعها على وجه طفلة يعقد جانبي شعرها شريطان أبيضان. كانت الطفلة تقف في الخط الثاني من ثلاثة خطوط لتلامذة الابتدائي؛ يمسك بها تلميذ من الخط الجالس على الأرض. أما الخط الثالث الخلفي فقد وقف معلم ومعلمة وعلى جانبيهما عدد من تلاميذ طوال القامة. قالت هذه ابنتي "ماريّا". ستزورنا يوم الأحد التالي مع زوجها، قادمين من منتجع بحيرة "فارنا". هناك يعملان في كازينو لخدمة السياح والمصطافين.

وجاءت ماريا. طويلةً ورشيقة، سارقةً بعضاً من ملامح أمها من حيث العينين الزرقاوين والشفّة السفلى الهادلة المكتنزة.. يموج الشعر الأشقر الكثيف، ويتلوى مع حركة رأسها ثم ينسدل على كتفيها يستقبله اخضرار التيشيرت وقد تهدلت بعض ذؤاباته على نهديها المتكورين فصارت تتراقص مع ترجرجهما أثناء المشي بتنورة تبرز ساقيها الممتلئين. ذكرتني ماريا بالممثلة "أيما بيل كليفتن" التي تشارك شارلي شابلن في فيلم (BETWEEN SHAWORS) الذي شاهدته في سينما في

حلب. يومها عشت الدهشة ورأيت الحياة سينما؛ والسينما خير تصوير للحياة.

كانت ماريا في الخامسة والعشرين وزوجها يكبرها سنّاً. يبدو نزقاً تحملت الكثير من سوء تصرفه. اكتشفتُ ذلك من انعزالها بأمها بعد ساعة من وصولها وتشكّيها وهي تشير بإصبعها باتجاه الغرفة التي يقبع داخلها الزوج وقد انهمك بشرب نبيذ العنب الذي جلبه معه من المنتجع.

صرف الزوجان يومي السبت والأحد عطلتهما المقررة ولم يخرجا معاً للتنزه أو للتسوق في صوفيا إلا مرة واحدة. مرة واحدة فقط عادا منها متخاصمين وقد علت وجهيهما مسحة من الكدر او الغضب او محاولة التصادم.. ثم عاودا السفر سوية فجر يوم الاثنين.. لم تتح لي الفرصة التعرف كثيراً عنهما؛ ولم تبد الأم رغبة الحديث عن ابنتها وعن العلاقة المتشنجة بين الاثنين. لكن غب شهر جاءت ماريا لوحدها: شاحبة، حزينة، منكمشة.. جاءت ولم يجيء الزوج بعد يوم او يومين ليعيد لحمة الزوجية، ولم تتلقَ منه نداءً هاتفياً حتى؛ ما يعني أنها في قطيعة ستطول.

أيامي الأولى في صوفيا كانت رتيبة، والدولارات التي منحها السيد كراون لي أعانتني على قضاء الأيام للعيش براحة وبلا ضائقة.. انقضت أيام الخريف وقدم الشتاء.

ووجدت نفسي كل يوم أتسكع في الشوارع أدخل المعارض، اجلس على مصاطب الرصيف واقطع الممرات في الحدائق؛ أقف طويلاً عند طيور مائية تتسلى وتسعد في دخولها ماء برك اصطناعية في الساحات المستديرة لوقت والظهور للسطح هازة رأسها بنفور ونافضة الماء عن ريشها. استرخاء أَنساني مهمّة الرحيل إلى حيث مقصدي؛ إلى درودرانة التي جعلتها هاجساً للقاء وهدفاً لابد من الوصول إليه وإدراكه.. لماذا؟! لا إجابة لدي سوى أنني عشقتها؛ والعشق يحتم عليَّ ملاحقتها حتى وان بعُدَ الأمل في نيلها. لكأنني قيس بن الملوح الذي جنَّ بحب ليلى وظل يناجيها ويلاحقها حتى وهو يدرك أن لا أمل في حيازتها فهي في كنف زوج ودار بينما هو تائهٌ ومشرّدٌ... كل يوم أتسكع متفرجاً. الأزياء الإفرنجية الفاخرة والأحذية الجلدية اللامعة، التقليدية منها وذوات النصف عنق أو العنق الطويل.. القمصان المترفة بألوان زاهية مخططة ومقلمة. صورة لألبرت آينشتاين يقف خلف منضدة وينظر باتجاه الكاميرا وقد ابتسم للعدسة والقميص الأبيض بالربطة الخضراء يعرض نصف قامة متأنقة؛ وصورة أخرى في مختبر الفيزياء وقد أظهرته اللقطة بقامته كلها والقميص يتآلف أناقة مع البنطلون اللميع.. وهناك الألبسة الداخلية القطنية منتجة من مصانع ألمانيا الفاخرة وقد

ارتدتها عارضة أزياء تنتصب بوقفة تُظهِر جسدها يسرق الفتنة والسحر من الأنظار بفعل السوتيان الذي يحتوي نهديها الممتلئين والسروال وهو يحاور البطن الضامرة والخصر الملموم مع الفخذين المشوقين والساقين المنحوتين بجمال يذكِّر المشاهد بمايكل انجلو ومنحوتاته التي تقترب بهياكلها المتكاملة، بأبعادها الساحرة، بدقة تجسيدها من الملائكة التي خلقها الله لتبيان عظمة حسّه ورهافة ذوقه.

لا قدرة للناس على شراء كل ما يبهرهم، لذا تراهم باستثناء القلة من الطبقة الراقية يطالعون المعروضات ويلوون خارجين. نساؤهم تلاحق الأزياء الجميلة فيتخيلن أنهن يلبسنها رافلات يتهايفن لحفلات أعياد الميلاد، يرقصن على نغم الفالس أو التانغو.

دخلت معرض نوفوتيه للملابس الجاهزة بعدما خلفت مقهى أثاثه عثماني بتخوته والسجاجيد التي على التخوت والمرايا المعلقة على الجدران وزخارف اطرها الخشبية احتسيت فيها قهوة مرّة وجلست لبعض الوقت. طلبت من البائعة المتوقفة إزاء معروضات بعهدتها أنْ تهيئ كوستماً فيروزيّاً وقميصاً بصفاء الثلج وحذاءً سماوي اللون. ذهبت لأدفع قيمتهما ووجدت البائعة بعد ذلك قد أكملت رزمها في حمالة من الورق الصقيل.. في البيت قدمت الجميع هدية

لماريا. ماريا اتسعت عيناها دهشةً، إذ لم يخطر في بالها أن سأقدم على فعل كهذا ، هي التي كانت تتعامل معي ببرود وكنت لا أتضايق من ذلك عازياً الأمر لمشاكل تعكر حياتها من زوج لا يقدّر هذا الجمال، ولا يعر هما لقلق زوجته.

في اليوم الثاني ابتهجت وأنا أبصرها تلبس الطاقم وتصاحب صديقتين من جاراتها وقد بدت منشرحة وسعيدة كأنها تتباهى بما تلبس وتتظاهر أنها سعيدة بزواجها؛ وربما قالت لهما أن ما ترتديه هدية من زوجها أو هي وإياه اشترياه سوية وعلى ذوقه.

بعد أسبوعين عادت ماريا على هدي نصيحة أمها إلى فارنا لمواصلة عملها؛ وغابت شهراً. لكنها عادت من جديد.. جاءت لوحدها.مجيئها لوحدها جعل الأم تكتئب. سمعتهما تتحاوران استشففت غضب أمها منها؛ حدستها ترمي عليها تبعات بُعد الزوج، وتلومها لعدم مجاراتها له.

كان الشتاء اقبل بارداً ، والريح العاصفة تضرب وجه صوفيا ساعة الغروب ويزداد مع قدوم الليل فيهرب المارة وتفرغ الأرصفة. يلوذ الناس بمآويهم اتقاء أمطار شرعت تهطل وبوادر سقوط الثلج ندفاً تتطاير في الفضاء القريب؛ فقط جبال "ستارا بلانينا" تبقى تحيط المدينة وتحتضنها

متلقيـة النسـبة الأكـبر مـن كميـة الـثلج والريـاح الصـقيعية العاتية وهـي تصفر وتدوم وتعول لساعات وساعات.

صـحبتني ماريـا ولم تـرفض دعـوة وجهتهـا لهـا في جولـةٍ اعتماداً على أماكن تعرفها تمنحنا المأوى الشاعري والـدفء المفقود. احتوتنا كافتيريا بمواجهـة نصب القيصـر الروسـي الكسندر الثاني الـذي يعتلـي حصـاناً ويقـف شـامخاً، يقـول عنه البلغار انه حررهم من سيطرة وهيمنـة الحكـم العثمـاني في الحـرب الروسـية العثمانيـة عـام ١٨٧٨. علـى مقربـة مـن النصـب تتـوزع الأكشـاك الخشـبية علـى الرصـيف تبيـع البوسـتكارد وكراسـات السـوفنير وأوراق الرسـائل الزرقـاء وأقـلام البـاركر ومحـابر بـاللونين الأسـود والأزرق، وأخـرى تعرض الكتب والمجلات المحلية باللغة البلغارية والمستوردة منها باللغات الألمانية والانكليزية والفرنسية والتركية وحتى الاسـبانية، الدولـة البعيـدة نوعـاً مـا والـتي لا يعتـد بأعـداد مواطنيها في البلاد. مصاطب خشبية فارغة قالت ماريا أنها تعـج بـالجلاس في الصـيف حـين تكـون الشـمس سـاخنة ومسـتطيلات الحـدائق ومربعاتهـا تتبـاهى بـالورود الـتي كوجـوه وأفـواه الفتيـات البلغاريـات الصـغيرات تحـاكي ضحك الطبيعة وسعادتها، وتكركـر للشـمس وهـي تنشـر ذهبها على شوق العيون التائقة للنور.

كنا مررنا من أمام حوانيت تبيع المعجنات والحلوى والسكاكر وتعرض خلف واجهاتها المزججة صواني البقلاوة والشعرية والكنافة بالقشطة. تنفذ من أبواب الحوانيت رائحة الفانيلا والحبَّهان.

يتحرك النادل الشاب الذي قالت ماريا ان اسمه توريس برشاقة وابتسامة لا تفارق محياه في صالة مستطيلة وهادئة؛ في وسطها ممر وعلى جانبيها كنبات قهوية داكنة؛ أغلفتها جلدية لامعة. المناضد مستطيلة، وضعت في وسطها زجاجات زيت زيتون وماستردا ومايونيز لسكبها على المقبلات حين يشتهيها الرواد. على الجدار شاهدت لوحات مستنسخة لرسامين لهم صيتهم وشهرتهم المتجاوزة حدود بلدانهم، كانت الكبيرة تحوي جانبياً امرأة ترتدي السواد جالسة عند البيانو تعزف بأنامل طويلة ونحيفة. لوحات يتباهى توريس انه جاءت باختياره ولم يعارضه كوسينين مالك الكافتيريا. خيل لي انني اسمع مُقدمة فيفالدي تجسِّد فصلَ الشتاء لسيمفونيته الطويلة التي سمعتُها كثيراً من فيكتور. كان فيكتور يعشقها بشغفٍ ويهيم بها إلى درجة انه اشترى المسجل والشريط، كما سرّني يوماً، من أجل الاستماع لها دون غيرها من الموسيقى... في اللوحة صبيّة ترتدي ثوباً ابيض وشعرها أحمر يسترسل على كتفيها تتكىء بذراعيها على

صدر البيانو تتابع قسمات وجه المرأة أثناء العزف.

من بين اللوحات كانت واحدة تعرض سفينة شراعية ترجّها الأمواج ويحاول العاملون فيها جاهدين البقاء على توازنها من خلال السيطرة على أشرعتها وتثبيت صواريها بينما يفوِّضُ الركّابُ، على قلَّتِهم، أمرَهم لشفقة السماء. كانت هذه اللوحة اقرب إلى نفسي لأني وجدت موضوعها وتفاصيلها بما يشبه حالتي، فأنا في بلدٍ لا أعرف عنه شيئاً، مثل سفينة وسط عاصفة عاتية أطلقت العنان لريح مجنونة لا تأبه بالمصائر، وعليَّ التأني لأعرف مصيري.. وما حيلتي غيرُ التأني؟!

كان جلوسي في الوسط.. أمامي انتصبت ماريا بجلسةٍ تشبه حركة فتاة موديل وقد خلعت قلنسوتها الصوفية السوداء ونزعت معطفها الذي بأكمام من الفرو الصناعي ووضعتهما جانباً.. أمامنا وخلفنا وعلى يسارنا يجلس الزبائن بينما الجهة اليمنى تنفصل عن الشارع ورصيفه القريب بزجاج صاف يشعرك كما لو كنتَ تجلس على الرصيف في الهواء الطلق. كان المارة يخطون بمعاطف صوفية وقلنسوات ثخينة ذكرتني بصور عديدة لكمال أتاتورك شاهدتها في اسطنبول على جدران الدوائر الحكومية والمقاهي وحوانيت الذين يحبونه ويرونه المُحرِّر، باني تركيا الحديثة. السماء

تبعث نديفاً من الثلج يتطاير على إيقاع الهواء الخفيف ثم يهبط فيصبغ إسفلت الشارع بالبياض.. إنها صوفيا!.. بدت لي كأنها قرية منسية يطغي عليها الهدوء وقد هجرتها السيارات وحافلات نقل الركاب. فقط أناس فرادى يحثون الخطى وعربات الترام بين وقت ووقت تمر ببطء كأن الثلج النازل يعيق حركة عجلاتها على السكة؛ والجالسون هنا ندامى يتحادثون بهمس. عيونهم تبعث بريقاً من الألفة، والعاملون يتحركون ببنطلونات زيتونية قاتمة وقمصان بيض حيكت على جيوبها وردة قرمزية بغصن أخضر داكن هي نفسها الوردة وغصنها المرسومة على واجهة المقهى في الخارج. رائحة البن هي المتسيدة على المقهى، وحتى على الروائح التي تفح من معاطف وملابس النساء حين يدخلن والتي تتلاشى بعد لحظات من جلوسهن.

احتست ماريا البيرة الذهبية برغوتها البيضاء من القدح السميك ذي القبضة السميكة. احتست فترقرقت عيناها بسائل يشي بحزن ويبوح بألم.. حدست أنها تمنت لو كانت تجلس وزوجها في هذا المكان؛ يعبّان الهدوء وينعمان بألفة. لكنه الألم والشكوى المرة منه تشكوها للأم. لا تعرف ما تتبعه معه كي يعيشا متآلفين.. هي تريد العمل والتواصل في بيت كالعش يجمعهما، وهو يريد العمل وحيازة الوقت

للشرب كوسيلة للراحة.. أتـألم لألمها ، وأقدّر عظم فراغها لغيـاب زوجهـا. فـالأزواج كمـا شـاهدتهم في أسـواق وشـوارع صوفيا يخرجون متناغمين؛ يبتاعون سوية ويتبادلون الرأي في شـيء إن أرادوا شـراءه أو مكـان خطـر علـى بـال احـدهما ارتياده أو الجلوس فيـه ، علـى عكس ما يعيشـه البغداديون حيث السطوة للرجل، والمرأة عالمها بيتها.. أتـألم لماريا؛ ولم أدرك أنَّ ماريا الجالسة قبالتي لم تعد تعر همّاً لزوجها. لم أسألها عن مسببات تركه ولا هي أباحت عن مشكلتها..

بعد أيام صرت أبصرها تكثر من مبارحتها الشقة؛ حتى فوجئت بها يوماً تصاحب شاباً يرتدي الجينز وقميصاً ازرق بمربعـات حمـر كـبيرة متشـبهاً بمـا يرتديـه الأمريكـان، واضعاً ذراعه حول خصرها وهـي منتشية كأنها تـرى فيـه الزوج المبتغى. لم تفاجأ بي عندما لمحهتما سوية؛ بل توقفت وألقت سلامها عليّ وقدمتني لصديقها طافية على موجة من المرح.

صدمت لمرآها؛ وكنت أظنها تعيش المرارة بسبب البعد.. مـن ذلـك اليـوم صـرتُ أجاريهـا كسـاكنة معـي في الشـقة لـيس غـير. تخـرج مـا بعـد الظهـر لتـأتي مسـاءً وقـد تقـاطرت البهجة من عينيهـا. وإذ حضـر الـزوج يومـاً لم تبـال بحضـوره. وجدتـه يجلـس مـع أمهـا ينتظـر عودتهـا وقـد احمـرت عينـاه

غضباً. ولم تمر دقائق حتى سمعت صوت شجار وشتائم متبادلة، ثم صراخ وصيحات طلب النجدة من الأم، اندفعت خارجاً من غرفتي. كان الزوج ينهال على زوجته وهي تحاول الاحتماء بأمها وترد عليه بالشتائم والبصاق. حاولت الفصل بينهما، سحبته خارج الغرفة، ثم دفعته خارج الشقة وسط نظرات الرؤوس المطلة من أبواب الشقق المجاورة. لم ألحظ غرابة على وجوه الجيران ولا شاهدت احد ينبري لفك النزاع، ما يعني ان مثل هذا العراك حدث لأكثر من مرة بحيث كان مألوفاً ومعتاداً؛ لا يتطلب غير نظرات قليلة من أعينهم... في مركز الشرطة الذي توجهت إليه ماريا وأمها عرفت انهم كالجيران اعتادوا على الشجار والحضور للشكوى فكانوا يأخذون تعهداً من الزوج بعدم الإساءة وتكرار الاعتداء على الزوجة.

بعد الحادث وما جرى اكتشفت أن الأم شرعت تضمر وتتألم وتنظر لي نظرات حزينة. لازمت الفراش ولم تستطع الخروج لابتياع متطلبات البيت، ولم تقدر حتى على إعداد الطعام؛ وكثيراً ما قمت بنفسي وسط لا مبالاة ماريا بالقيام بحاجات البيت. وفي يوم ساد البيت صمت مريع يعلن موت المرأة وسط عدم الرضا على ابنتها... إزاء ذلك فكرتُ بالانتقال.

تذكرت عامل السيرك الذي حدثني عن فندق جيوفانا وكيف كان أبوه يسكن فيه ويفضله لوجوده وسط العاصمة وفي حي شعبي.

ضحىً تركتُ المجمع السكني ومشيت حتى ساحة تجمع العربات. عربات كانت تقف صفاً؛ تقودها خيول ضخمة تفوق حجم الخيول العربية. لفضت اسم جيوفانا هوتيل على مسمع الحوذي فهز هذا رأسه وأشار عليَّ بالصعود... بعد عدة شوارع قطعها وحدائق بعضها مسيجة وأخرى عارية دخلت العربة شوارع ضيقة وحركة كثيفة. ثم وجدنا انفسنا ندخل سوقاً مزدحماً بالمطاعم الصغيرة ودكاكين تبيع المعجنات والأكلات السريعة: سندويشات بيض وسندويشات كبده وسندويشات نقانق وأقراص همبورغر، وسندويشات يختلط فيها شرائح الباذنجان والبطاطا المقلية يضاف لها الكجب أو الصاص، وأمام الجائعين المنهمكين في تناول السندويشات وضعت أواني المخللات وحبات الزيتون وثوم العجم ذو الطعم الحريف، وصحون تكومت عليها أصابع الفلفل الحار بلونيه الأخضر والأحمر. نساء يفترشن مساحات من الرصيف يبعن البلوفرات واللفافات الصوفية المحاكة يدوياً والطاقيات الجلدية المبطنة بجلود الحملان الصوفية الرقيقة والناعمة والقماصل ذات الخميلة الثخينة والأخرى الجلدية منها باللونين

الأسود والجوزي.. وأنا في خضم التطلع وشم رائحة المشويات والمقليات توقفت العربة. التفت الحوذي مشيراً بيده إلى باب فوقها لافته كتب عليها بحروف لم تكن عربية ولا إفرنجية.

نزلت؛ توقفت عند الباب.. وددُت لو أستدير وأدخلُ مطعماً من المطاعم المجاورة تلك التي تنبعث منها رائحة مشوياتها ومقلياتها. رائحة بدا تأثيرها جارفاً على شهيتي التي استحالت طفلة نزقة، ومعدتي وهي تعلن شراهتها لوجبة دسمة.

في الفندق استقبلتني المرأة الأرملة؛ كريستينا وكانت اصغر مما تخيلتها عندما أخبرني عنها عامل السيرك.. كانت شقراء ورشيقة. لها ابتسامة تدفع الشاعر النزيل لكتابة قصيدة عصماء والمغني للانطلاق بموال تطوح له الرؤوس والفنان التشكيلي لرسم امرأة يمنحها خلوداً أبدياً.

وقفت تتلقى جوازي. قدمت استمارة طالبتني بملئها بمعلوماتي الشخصية. خلفها كانت شموع لم أُشعَل من قبل مثبتةً على شمعدانات برونزية لامعة، وعلى يمينها برج من الصاج بلون حناء فاتح في واجهته العليا ساعة بعقربين معدنيين أسودين وأرقام لاتينية. وكان الوقت يشير إلى الساعة العاشرة وأربعين دقيقة.

وضعت الحقيبة على المنضدة جوار النافذة المطلة على السوق. كانت المطاعم التي مررت بها قبل قليل تعج

بالجائعين التائقين لإشباع النفس بالرائحة المشتهاة قبل المعدة الخاوية. حسبت نفسي محظوظاً عندما حصلت على غرفة في الطابق الثاني وعلى سرير حين أجلس فيه أستطيع رؤية السوق وسماع حركة الناس.. ولقد حظيت أيضاً بنزيل دائم كان يتخذ السرير المقابل، عرفت اسمه: بينكوفسكي، من سكان الأرياف البعيدة. وبينكوفسكي هذا استلطفني من أول مشاهدة فجاء بوجبة عشاء تناولناها في الغرفة كعربون تعارف. عرَّف كل منّا نفسه للآخر... عرفتُ من خلال كلامه الموزون والمتقن ومخرج حروف يشدد عليها في الحديث انه كادر نقابي نشط وبارع ويتمتع بكاريزما سأكتشف تأثيرها عند العمال النزلاء في الفندق وهم يلتقونه باحترام وينظرون له بنظرة مثقف عمالي يلتجئون إليه كلما حصل لهم موقف شائك يشمون فيه رائحة الضرر أو واجهوا مشكلة تتطلب الحل السريع بعيداً عن العواقب السيئة.. ولأن بينكوفسكي كان يخرج للعمل صباحاً ويعود قبل حلول الظلام كنتُ أشعر بالفراغ تائقاً للقائه، منتظراً عودته... أتناول فطوري في الغرفة يأتي به عامل الفندق ثم أهبط فأجلس في الصالة.. هناك؛ من على الأرائك التركية الأبنوسية أبصر كريستينا تتحرك كنحلة وقد عقصت شعرها بهيئة ذيل حصان وتركت نهديها يترجرجان

حتى ليعتقد المشاهد أن لا سوتيان يحتويهما بينما تنورتها الفضفاضة تترك الحرية للورود بألوانها المتفاوتة والأوراق الخضراء بيناعتها أن تتمايل وتتمايل مع حركة مؤخَّرتها. يتوجه عمالها لتنظيف الغرف ومسح أرضية الممرات. تأمر بنشر المطهرات في دورات المياه، وتروح تحمل بيدها إبريق ماء متخذة الممر وخارجةً كي تسقي المزهريات الكبيرة المتوزعة على جانبي باب الفندق وبمعدل ثلاث مزهريات في كل جانب. تمسح بعينيها واجهة الفندق وترفع نظراتها للقطعة الحاملة اسم ابنتها جيوفانا، ثم تدخل عائدة فتواجهني بابتسامة تحلّيها شفتاها المتلئتان ورفرفة رموش عينيها.. أكبر فيها هذا النشاط والمرح، وأعلي حسن إدارتها بجعل النزلاء عائلة واحدة لاسيما واغلبهم من دائمي الإقامة.

***

اشارت كريستينا عليَّ بالذهاب الى شارع كتبت اسمه على قصاصة ورق وقالت عليك بزيارته فهو يمثل وجه صوفيا الحضاري والحديث. قالت: "اعطه لأي سائق عربة سيوصلك الى مدخل الشارع؛ ومن هناك ابدأ التفرج ثم عد عند الوصول لنهايته بعربة من هناك فالشارع طويل وتتفرع منه طرق عديدة. التفرج سيأخذ منك وقتاً وستتعب".. ولكي لا تبعث الخوف في قلبي ابتسمت قبل ان تقول مواصلة: "ثم ان الليل مخيف للغرباء

لذلك يتفادونه بالعودة بعربة بدلاً من الترجل مشياً."

كـان الشـارع يغـرق ﰲ فـيض مـن الإضـاءة المبهـرة؛ والمـارة كالسـكارى يتمايلون من المرح ثملين بخمر السعادة وخلو البـال من كلِّ هَم بينما الحوانيت تبعـث إضـاءة صـارخة عـلى ملابـس حضرية خلف معارض زجاجية؛ وفي الطرف ثمة أسـتوديو لمصـور جعـل معرضـه المـزجج عالمـاً مـن حيـاة تمـور بالبشـر والابتسـام.. فتيات عرض الأزياء وقد ظهرن بوقفات إغراء تتباهـى بالفسـاتين الكومونو وبالبناطيل الضيقة الملتصقة عـلى أجسـادهن النحيفـة وقـد انتصـبن عـلى أحذيـة بكعـوب عاليـة جـداً فيمـا الشـباب يرتـدون الكنـزات الصـوفية ويلفـون أعنـاقهم بلفافـات هـي الأخرى صـوفية منتصبين بوقفـة أريد منهـا إبـراز سـحر المشـهد وجمـال الموديـل وحداثـة الملـبس. كانـت السـماء تحـوي غيومـاً داكنة شرعت تهمـي رذاذاً منعشـاً ومحببـاً رغـم الـبرد؛ وكانـت السـيارات الصـغيرة تمـرق لامعـة تضـفي عليهـا إنـارة الشـارع وواجهات المحلات فيضاً من النور بينما رواد المقهـى الـذين فضـل البعض منهم البقاء جالسين في المناضد الخارجية التي لا يصـلها يطالعون المطـر غـير آبهـين بـالبرد. بقـوا يمتعـون النظـر بمشـاهدة العربات المارة؛ يتهامسون ومـن ثـم يطلقـون ضـحكات وتعليقـات لأمـورٍ يجـدون فيهـا نوعـاً مـن المفارقـة.. مـن شـارع فرعـي ظهـر عاشـقان يشـتركان بمظلـة ويتلاصـقان كـأنهمـا جسـد واحـد

يمشـي. ومـن نافـذة مضـاءة، انفتحـت فجـأة، ظهـرَ وجـهٌ لامـرأة عجـوز ترفـع رأسـها تطـالع السـماء وتخمـن الأنـواء مـن كثافـة المطـر. النوافـذ تـتكلم. نافـذة المـرأة قالـت لـه أن العجـوز ليسـت فضـولية في النظـر إلى النـاس أو التطلـع إلى كثافـة المطـر إنمـا الشعور بالوحدة يضيق عليها أنفاسها ويهاجمها بالضجر. لـذلك هـي تعيد ترجمة أن الإنسان اجتماعي بـالطبع والحيـاة في الغـرب تحـارب الإنسـان بالوحـدة. فلكـل فـرد عالمـه، والعلاقـات الاجتماعية تقلصت. حتَّمتها الحضارة وأمرضتها الفردانية.

تشـيع في المكـان رائحـة المطـر والأشـجار والجـدران ومطّـاط عجـلات السـيارات المـارة. والعشـب في الجـزرة الوسطية للشارع يثقل وتميل رؤوسه وقد أثقلتها قطرات المـاء الـتي كـبرت فلـم تسـتطع تحمـل الثقـل؛ لكـن دفقـات الهـواء التي تحدثها السيارات المارة تهزها فتعود لانتصابها؛ لحظـات وتعود تتثاقل فتميل؛ وهكذا.

النثيث استغرق ساعةً وأكثر.. مطر ملائكـي يشبه رذاذ بارد ينهال على وجه محموم.

المطر يقول سيحوا وامرحوا، حلِّقوا وانتعشوا.

لم يكـن لـيلاً بـل عالمـاً مقتطعـاً مـن تـدوين ربـاني يرسـم صورة مصغرة او شريحة مما يغري المؤمنين به ويدعوا إنسانه إلى فعل الخير نأياً عن خلق الأذى للغير.

دخلت مقهى اعلمتني عارضاته الزجاجية العديدة بسعته وحفاوته وأثاثه الراقي وعماله المهندمين. مقهى يضج بالرواد.. موسيقى تنبعث من حاكي يطلق السيمفونية الخامسة لبيتهوفن.. دخان السجائر يرتفع فيشكل سحابة ضبابية لم ينتبه لها الجلاس أو هم اعتادوا على مثل هكذا أجواء تحدث يومياً أو على الأقل في المناسبات التي تفتح باب البهجة والاحتفال.. رأيت وقد أذهلتني الرؤية ماريا تصاحب شاباً غير الذي كنتُ أراه يصاحبها من قبل. قليلاً وخرجا سوية لتعود بعد وقت صحبة شاب آخر.

تلك الرؤية وذلك المشهد جعلاني أستنتج سلوكها طريق الدعارة واقترافها فعل الخيانة. جعلني أوقن خسارتها حياتها وإضرارها بزوجها. جعلني اصر على ارتكابها خطيئة، بل جريمة موت أمها التي غادرت الدنيا حزينةً، كسيرة.

***

تنبه بينكوفسكي إلى أني صرفت ما يزيد على الشهر في الفندق مثلما حدس أنني اوشك على العيش في فاقة لذا سألني يوماً إن كنت ارغب في العمل واتقن القراءة والكتابة. ولما كان جوابي بنعم؛ ولما قرأ بعين النقابي الحاذق الثاقب العارف بمعاناة الانسان من ثقل البطالة حثَّ خطاه وجنَّد جهده.. وفي يوم جاءني متسائلاً: ما رأيك لو تنظم الى جموع العمال وتعمل

في مطبعة جريدة مُصففّاً للحروف الطباعية؟

قلبي قفز فرحاً كطفل، وهاتفاً: ولم لا!

سعدت كريستينا لتسديد اجور ما بذمتي، واكبرت في بينكوفسكي نكران ذاته بحصولي على عمل يجعلني أتواصل معه في غرفة كأخوين وصديقين وعاملين.

عملي في المطبعة أغدق عليَّ جذلِ حبِّ القراءة والنظر للحياة بعين تقرأ وتطالع وتترجم افكار الناس ومعاناتهم، ما يمرون به وما يحلمون، ما يريدونه وما يسعون لنيله. فالقراءة والكتابة بمعزل عن التفاعل مع حياة الناس تغدو مهارة ناقصة.

سأكون كوالت ويتمَن، عامل طباعة. سأتقمص أيام الشاعر وساعاته وخلجاته وهو ينهمك في عمله. ولكن هل سأكتب الشعر مثل ويتمَن؟ أأحاكي الطبيعة بطراوتها وجمالها ولطفها؟ هل سأنهمك في وصف حياة البسطاء والمكافحين في سبيل ترجمة أبجدية الحياة لإنتاج يعتز به ويشاد بعظمته؟.. هل سأتمكن من رسم الحرية بريشة منسابة وألوان مشرقة بحيث تأتي اللوحة بياناً للمحبة والبساطة والنقاء؟

رحت التهم ما احيله من كلمات خطت باليد الى كلمات بحروف طباعية ستصل بعد مراحل الى صحيفة تتلقفها الاعين وتتعامل معها الذائقات. ازددت تعلقاً بوالت ويتمَن

وتجولت بروح سمحة ومنفتحة كروحه وهو يحيل اعماقه نصوصاً تتحاور مع مهج الناس ودواخلهم.

ازداد ارتياحاً وسرورا حين ارى الناس في كل مكان يطالعون صحيفة صفَّفتُ حروفَ كلماتِ اسطرها.. يسودني السرور لرؤية كريستينا تمسك بالصحيفة وتروح تقرأ وتقرأ.. احس انها تقرأُني أو انني ألج روحها فانثر فيه عطر روحي.

***

إحدى الأمسيات، وأغلب النزلاء يصرفون ليلة الأحد في البارات والمراقص الشعبية كنت أعيش أجواء قصيدة "أغنية نفسي" لويتمَن (كان فيكتور يرددها بجذل في حوش الدار في اسطنبول حين نكون وحيدين) عندما تسلل إلى الغرفة عزف بيانو: عذباً، رخيماً، متماوجاً قادماً من الطابق الأرضي يطرق باب الروح ويقدم رسالة نغم استجبت لها سريعا. نغم أعادني لطفولتي في الدنكجية، وعدوي في جادة خليل باشا، والي بغداد وقائد الجيش العثماني. ذلك اليوم الثالث والعشرون من تموز ١٩١٦ الذي عُدَّ عيداً لافتتاح الجادة رسمياً، تيمناً بيوم إعلان الدستور.. نغم أحضر ذكرى مرحي وأنا أرمي كتاب طفولتي مع اقرأني في ماء دجلة وأقفز من تلك الصخرة العالية التي جعلناها مثابةً للارتماء في النهر جذلين بمتعة العوم ومنطلقين في مضمار البراءة..عزف أرجعني لتكتكات ساعة

برج القشلة ووقوفي صبياً جوار جدي المنشغل في أعلى البرج لتنظيمها وتقليل جزء الدقيقة التي تحصل كزيادة كل ثلاثة أشهر.. عزف قالت لي ذبذباته أنها الوجه الآخر لترنيمة أمي أيام كانت تهزني في المهد "دللول يالولد يا ابني دللول// عدوك عليل وساكن الجول".. من يكون هذا العازف الموهوب؟! ومن هذا الروح البهي الذي يحاور الوقت فيجعله يذوب كالشمع ليضيء ويُبهر؟!.

استأذنتُ ويتمَن فتركتُ الغرفةَ متخذاً مسار الروح المتوهج. هبطت السلم؛ وكان العزف في تظاهرة ملائكية، وكان البيانو يحترق ليضيء، وكانت المفاجأة حين أدركت نهاية الممر الطويل واستدارتي يميناً فمشاهدة كريستينا تكتب بأناملها مهجة يوهان سباستيان باخ المتوزعة في سوناتات للألم والحزن. تطوّح برأسها يميناً ويساراً، هائمة في رحلة طويلة تجسِّد حبها السرمدي لزوجها، وشوقها الأمومي للابن وهما يعيشان في جنان الخلد... قرأت الحزن مطراً يهطل من عينيها، واكتشفت بما لا يقبل الشك لقائها بهما. اكتشفت ذلك من عدم انتباهها لوجودي حتى وأنا أقف خلف البيانو، بمواجهتها تماماً. ولم تكلمني في اليوم التالي بما يؤكد رؤيتها لي عندما ألقيت عليها التحية.

عندما انظر الى وجه كريستينا يشبّه لي انها واحدة من

شخصيات لوحات تشكيلية كان مسؤول الصفحة الفنية في الجريدة يقرنها مع مقالات تتناول الفن التشكيلي، وخصوصاً الفن الانطباعي.

كانت كريستينا امرأة الاعتداد بالنفس؛ الكاريزما الباعثة على الاحترام ورغبة ان يجالسها كل من نظر للمرأةِ على انها ملاك وملكة.. جمال ورزانة، بهاء وألق.. عيناها الزرقاوان بالشعر العسلي اللامع، بالرقبة البيضاء زبدة وقشطة.. والقوام الممتلئ وسامة يمنح الناظر هوية الاعجاب، سمة الاندهاش، خلاصة الامنية بصداقة خالدة.

وكنت ما زلت مذهولاً بتلك الانامل المتراقصة على درجات السلم البيضاء وقفزها الى البيمولات السوداء التي تعطي نصف درجة صوت السلم الابيض؛ مندهشاً لذلك العزف المتقن يرسم خارطة الروح فينتج حزناً صوتياً يعدو في دروب العاطفة ويقول الشقاء الدفين في مكامن الروح.

وفي الأسبوع الثاني، وفي نفس ليلة الأحد تكرر العزف. وكالمرة السابقة نزلت من غرفتي وتوجهتُ نحوها.. هناك، قالت اجلس مشيرةً لكرسي من الخيزران بعدما انتهت من عزف سونيتة أخرى لباخ أكثر حزنا. "تراني اعزف على آلة البيانو، واقرأ في عينيك غيوم الدهشة.. هذا تقليد اتبعته منذ استشهد زوجي ميلان في حرب البلقان وتبعه فقد ولدي

بورسلاف.. في العزف فعل تبديد ما في هذا القلب من وجع وما في الرأس من هموم. ولولا هذا الرفيق الصديق - ووضعت كفها بحنان على خشب البيانو الأسود الصقيل - لما بقيت حيّة حتى اليوم.".

تفجّر النوح داخلي، وهتفت أفواه الألم: "يا لحزن الزوجات الأرامل وكمد الأمهات الثكالى!.. إنَّ الروح ليدمى بعاديات الزمن، والقلب لينطعن بخنجر غدر الأقدار"..

أستعيد موت أبي المبكر وحزن أمي على غيابه الأبدي، استعيد يتمي وافتقاد حنانه ودفء ذراعيه وهو يرفعني ويضمني لصدره.

حرب البلقان

على مدى ٦٦ عاماً بسط فرانز جوزيف المنتمي لعائلة هابسبورك الملكية العريقة سطوته المزدوجة على النمسا كإمبراطور وهنغاريا كملك. عجوز أوصى ابن أخيه فرانز فريدناند بضرورة فرش جناحيه على الإمبراطورية الثمينة، مردداً بتحذير عينين حمراوين: إياك!.. إياك من التفريط بالإرث، وحذارِ من التراخي والتهاون أمام القوميات بنزعة أبنائها الفوضويين النزقين.".

رجل متوسط القامة أشيب الشعر، أقرب للصلع، لكنه كث اللحية وثخين الشارب. تتكوم أعوامه السبعين على

جفـنين هـادلين وخـدين عجفـاوين. فقـط البريـق النافـذ مـن عينيه يفشيان ذكـاءً ثاقباً ودهـاءً سياسياً لا يجاريه فيه احد؛ هـو المنـاهض لأي تغـيير في خارطـة سـلطته والـرافض لكـل إصـلاح سياسـي. ولـولا استشـعار بـروز الأصـوات الجديـدة المناهضة مـن قبـل للقوميـات المنضـوية تحـت جنـاح هيمنتـه لما حذَّر ابن أخيه. التمعت أزرار الجاكيتة العسـكرية صـفراء وبحجـم كـبير كأنهـا نياشـين مضـافة لنياشـين الانتصـارات الملتصـقة بـدبابيس ذهبيـة علـى الجانـب الأيسـر مـن صـدره.. يميـل برأسـه مزهـواً ويقـرب فمـه مـن أذن تيـودور روزفلـت، ويهمس "من خلالي بإمكانك مشاهدة المدرسـة التقليديـة في السـلالة الملكيـة لأوربـا الشـرقية". بعـد تأمـل خـاطف يـدير الـرئيس الأمريكـي رأسـه ويـرد علـى الهمـس: "لا ثبـات للمـوازين؛ الخشـية مـن انقلابهـا.. نعـم، فنحـن في عهـد جديـد سيشهد متغيرات مهولة.".. يمتقع وجه الإمبراطور وتروح عيناه تمسـحان خارطـة إمبراطورتيـه الخضـراء، فيرتعـش خوفـاً ويتهجس الخشية فعلاً. فقائد كروزفلت لا ينطق عـن هـوى. لذا رقد تلك الليلة مهموماً وقد توالت عليه الأحلام كوابيس نهشت هناءه وهدوءه المعهودين.

***

راسلت أمي أُعلِمُها بوجودي وأقلل في التعبير والوصف عمّا بدرَ مني. ولم يمضِ أكثر من شهرين حتى وصلني ردّها تتمنى فيه العيش الرغيد لي، لكنها تعلمني بدنو أيامها الأخيرة؛ فقد داهمتها ثلاث ذبحات صدرية متتالية وباتت لا تستطيع النهوض من فراشها وأداء أي فعل في المطبخ، حتى لو كان إعداد شاي.. كما أعلمتني بما اعتصر له قلبي ووجدتني اترك لعينيَّ ان يفيضا بالدمع: "إن لم تجيء رسالة منّي خلال شهرين أو ثلاثة فاعلم أنني مت.".

وكان إن مرَّت أربعةُ أشهرٍ، وخمسة، وعام ولم يرُد منها شيء. عندها بكيت، وحزنت، وتأسيت.. تذكرتها بعين الطفولة أمّاً حنوناً تتشمم رقبتي وتشبعني بالقبل. تمشط شعري بمشطها الخشبي الذي تمشط به شعرها الاسود الفاحم الطويل اللامع والمسترسل. طويلة القامة كانت ورشيقة؛ تتباهى بمشيتها وعنفوان جبهتها. تزهو وتحتفي وتهتم بصندوقها الصاجي المطعم بالمسامير الفضية؛ فما أن ترفع باب غطاءه حتى تفح رائحة الدارسين من اثوابها المصففة في جوفه. تروح كلما فتحته ترفع خاتماً ذهبياً بفص عقيق يماني أحمر. تلقمه البنصر وتتأمله ثم تشرع عيناها بفيض من الدمع المنساب بهدوء. فهمت في ما بعد يوم سألتها عنه انه خاتم اهدته اليه امها قبل ان تلفظ انفاسها

الاخيرة بساعة، راجيةً منها الاحتفاظ به لأنها هدية من امها وطالبتها ان تهديه بدورها لابنتها يوماً ما.. بكيت، وحزنت وتأسيت. تذكرت وصيتها بأن اكون سويّاً لا أسرق ولا أؤذي ولا أظلم، وأن اتدرع بالصبر حين تواجهني المشكلات والمعضلات فلكل مشكلة حل ولكلٍّ معضلة انتهاء.. بكيت وحزنت وتأسيت وأنا اتخيلها تغمض عينيها وتموت وحروف اسمي تتردد على لسانها وفي عينيها صورتي كآخر طيف تطبق عليه رموشها...وكانت ثمرة بكائي وحزني وأساي قصة بعنوان "رسالة أم"؛ تلك كانت اول محاولة للكتابة جاءت جادة وصادقة. قصة تحكي انتظار ابن يعيش في الغربة يقارعها بالخمر الذي يحتسيه. ابن يقيس سعادته وطمأنينته من رسائل تأتيه من أمه. وحين استمر انقطاع رسائلها أيقن غيابها الأبدي، فانقضت أيامه بلا طعم ولا شعور بما يستحق الحياة؛ غير انه بات يداوي جراحه بكتابة الرسائل؛ رسالة فرسالة تلوَ رسالة. قرطاس يلفه ويضعه في قارورة الخمر التي ينتهي منها فيرميها في النهر واضعاً في ظنه أنها ستصل إليها يوماً ولو دام ذلك دهوراً، ستقرأ كلماته بلسان ملاك وهي تعيش رافلةً في اعالي الفردوس.

جيورجي ديمتروف

كانت الجريدة تصدر يومياً ومعها ملاحق أسبوعية. كنتُ أقدر عظم مهنتي وأرى ان الكلمات التي أشكلها حرفا حرفاً وتطبع ويقرأها القراء إنما تأتي من بين أصابعي فأنا الذي أصفف الحروف المدونة على المكعبات الرصاصية لتصنع كلمات وجملاً. وكان مدير المطبعة اخذ عليّ عهداً ان أطبع ما مطلوب دون حذف أو إضافة لانَّ عملا كهذا سيلحق الضرر بي ويقودني الى السجن.

خاطبني المدير المهندم بشعره الأشقر اللامع المدهون بالزيت والمدفوع للوراء. كان يطالعني بعينين زرقاوين حادتين من وراء منضدة عريضة عليها ثلاثة هواتف ومجموعة صحف ذلك اليوم، موجها عبارات التحذير: "لقد كان في مكانك هذا قبل أكثر من ثلاثين عاماً عاملا اسمه جيورجي؛ جيورجي ديمتروف. وهو الآن سجين في ألمانيا لحرقه الرايخستاغ الألماني. انه عميل سوفيتي ولسان حال ستالين في أوربا. كان ديمتروف هذا يتلاعب بالكلمات فيحذف ويضيف. عمله هذا جلب له الويلات رغم صغر سنه. فلا تكن مثله حتى لا تلاحقك العقوبات وتضيع في المنافي ايها العربي."

اسم جيوجي ديمتروف رن في مسمعي كرنين مدوٍّ. لقد

صففت اسمه كثيراً؛ ولم أعرف ان الحروف الرصاصية التي تمر أصابعي عليها الآن تعاملت معها أصابعه يوماً. لقد صففت أول أيام عملي الجمل الطويلة والشتائم المقذعة بحقّهِ مثلما صففت أخيراً أخبار إدانته بالخيانة العظمى غيابياً. إذاً أنا أجلس على الكرسي الذي كان ديمتروف يجلس عليه، وأتناول الطعام بنفس المقصف الذي يتناول فيه العمال وكان ديمتروف واحداً منهم، وعلى المنضدة التي كان ديمتروف يجلس عندها يحتسي القهوة ممزوجة بالحليب والتي يوصى بها لتجنب عمال الطباعة خطر المعدن السام.

صرفت الأيام أجمع وأرصف مكعبات الرصاص، والصحيفة تصدر فيتناولها القراء بتعامل يتفاوت من قارئ لقارئ، ومن موضوع لموضوع كلٌّ حسبَ اهتماماته ورغباته ومراميه. الملك بوريس الثالث يشغل الصفحة الأولى في كل صحيفة. وكانت أوربا بطبقتها الارستقراطية وأصحاب رؤوس الأموال الضخمة وأصحاب المصانع ومديروها المترفون في حمّى إدانتها للشيوعية؛ وكانت بلغاريا بالملكِ وأتباعه ومريديه يغازلون ألمانيا محاولين التقرب منها من خلال الصحافة والإذاعة بإدانة لا تنقطع وسيل شتائم ترشقه بوجه ستالين. إدانة نظام يجاهر بلا حياء بقتل ذوي التطلعات القومية وخنق أنفاس كل مَن يفاخر بإرث أسلافه العظام.

وهناك في الصفحةِ الثانيةِ والثالثة التحليلاتُ السياسية التي تتضمَّن حسنَ سيرِ سياسةٍ الملك العقلانية الصّابّة في مصلحة الوطن البلغاري...

كان مثار اهتمامي ينصب على صفحتين:

- الصفحة الثقافية، وكنت أعشق متابعتها. عشقٌ ابتدأ من يوم تلقيت كتاب والت وتمَن. وصارت قراءتي المستمرة له تبلور رغبة بوح أدبي وجدت نفسي مع الوقت أكتب قصاصات تضم اسطر أدبية. ولأن الحروف والكلمات بيدي فقد تحايلت كثيراً على دفع ما أكتبه من خواطر وتعليقات للنشر بأسماء مستعارة. فمثلاً أثارتني صوفيا بعد جولة طويلة بمصاحبة عمال الطباعة في الأسواق والطرقات وأنا أشاهد النساء تعمل في المقاهي والبارات نادلات يتهايفن شقراوات ورشيقات ووسيمات وكنت أرى صوفيا فأتمثلها فتاة تتماهى مع ما يرى من فتيات يتمايسن في كل مكان. فكتبت تحت اسم لويز:

"كانت عيناها تجمع الغابات، وتنده على الحمام ليدنو وتدعو البلابل لتعرض غناءها الباذخ.. قوامها قصيدة كتبها شاعر جمع كل شوق قلبه وسكبه على كاغد البوح ثم مات ميتة صامتة، وحيداً إلا من إصابة يلوثها حبر الكتابة. وجهها لاحقه القمر ليسرق شيئاً من بياضه وشعرها حزم من

عسل يتلولب ويسيل على الكتفين المطعمين برمانتين قال عنهما ذلك الشاعر: جبلا زبدة يتهامسان مع هواء دافئ وعدهما بالحفاظ على فخامتهما فلن يدعهما يذوبان.".

على اثر نشر هذه الأسطر وردت رسائل التثمين لرئيس التحرير الذي طلب من مسؤول الصفحة الثقافية معرفة كاتب السطور ومن أي مدينة يكون. ولقد دهش المسؤول الثقافي عندما لم يجد الورقة التي تحوي الموضوع ولم يخطر على باله مثل هذا الاسم، فهو يعرف من يبعث له ولا ينشر لأحد دون معرفته.

- صفحة الاستطلاعات. كنت أرى فيها السياحة المثلى. سياحة تفتح أمام الروح كتاباً من معلومات كالعسل الملوكي يطعم اكسيراً لإدامة حياة الاكتشاف غير المنقطع، وصوراً تتنقلك على جنح غيمة محلقة فوق جغرافية تكمن في تضاريسها كنوز المعرفة.. ولقد لفت انتباهي يوماً صورة ضغطت أصابع شيئياتها على مجسات القلب فأججت الذاكرة وهيجت لواعج الروح.. صورة لبعثة استطلاعية أمريكية زارت العراق تؤسس ليربورتاجاً صحفياً لمصلحة "مجلة الجغرافية الوطنية الأمريكية" مشفوعة بصور يراها المحررون داعمة ومعززة للكتابة تتعالى على الوصف وتتجاوز تأثير الكلمات.. فتحت عيني على سعتهما لاستيعاب فحوى

الصورة:

الصـورة احتـوت مجموعـة صـحفيين يرتـدون المعـاطف الكـاكيـة والبيريـات السـوداء جـوار أرض زرعـت بالحنطـة الناهضة سيقانها توّاً بينمـا المصـور بـالمعطف الكـاكي والقبعة الدائريـة اللدنـة يثبـت عينـه في مربـع عدسـة كاميرتـه الصندوقية، المستندة على مثلث خشبي، الموجهة لشاب ريفي ينتصب معتمراً عقالاً يميل يميناً على رأسه ويشماغاً يهبط على صدره من جهة الشمال، وعباءة فاتحة اللون تضمُّ كتفيه وتهدل حتى الأرض. يطالع عين العدسة وقد آثر وضع يده في جيب سترته.. على يمين المصور المنهمك في تصوير الفيلم المتحرك تقف سيارة مجنزرة تحمل الرقم (٩٤٢- **WI**). هناك عربة ملحقة بالمجنزرة تحمل عفش البعثة ومقتنياتها. وعلى الشمال يقف احد أعضاء البعثة وفي فمه سيجارة يرتفع دخانها أبيض وبيده سجل يدون أسماء صف من الرجال الريفيين بملابسهم القروية وهم يقفون في طابور.

وتكـرر النشـر بأسمـاء مسـتعارة وتكـرر قـدوم رسـائل الإعجاب. وصار نشر المادة والاسم لغزاً لدى رئيس التحرير والمسؤول الثقافي.

ولقـد حـدثت غلطـة الشـاطر عنـدما نشـرتُ يومـاً قصـيدة لويتمَن تقول:

تعالوا
سأجعل هذه القارة خالدة
سأخلق عليها أسمى جنس طلعت عليه شمس
سأخلق أرَضين سماوية رائعة
بحب الرفاق
بحب الرفاق الدائم معنى الحياة.

الاعتقال.. كشف اللغز

صبيحة الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٣٣ مجموعة كبيرة من عمال المطابع يتظاهرون في ميدان "نارودنو سابراني" وسط صوفيا وقد رفعوا صورة ديمتروف، مستنكرين محاكمته في برلين يوم جاءها زائراً فالقي القبض عليه وقررت محاكمته بتهمة حرق البرلمان الألماني. (بينكوفسكي اخبرني بأمر التظاهرة أمس ونحن على اسرَّتِنا في الغرفة؛ اقترح خروجي معهم دعماً لمواقفهم وتضامناً؛ قال: سأكون في مقدمة المتظاهرين وستراني معكم). وهناك من ساحة سلافيكوف قدِمت جوقةُ عمال تؤيد الملك وتناهض الشيوعية ومن يمثلها من العمال. اولئك يرون في هتلر الصاعد نجمه حديثاً بطلاً قومياً وأوربياً بينما يحسبون الشيوعية وباءً يسعى للتغلغل في الجسد البلغاري

اليافع لإرهاقه وزرع علّةً مستديمةً ستدفعه يوماً ما للارتماء في كنَف الروس، وعندها يدخل البُلغار كهفَ الإذلال الروسي بعدما تحرروا من نيرِ الإجحاف العثماني.

كادَ الجوقان أنْ يصطدما فتتساقطُ الضحايا وينشأ العِداء الاجتماعي تصنعه السياسةُ اللعينة. وكان الملك بوريس على حصانه في أعلى القاعدة المرمرية وسطَ الميدان يطالع صوفيا ويمجِّد بلغاريا. يخاطب البلغار: بلغاريا لشعبها؛ المملكةُ ضمانُ صيانةِ الوطن، ورفاهيةُ الشعبِ مقصدي.

اندفع رجالُ الأمن يطوِّقون التظاهرةَ ويلقون القبض على المتظاهرين. بينكوفسكي ورفاقه من عمال صوفيا وقعوا في دائرة الاعتقال. أنا حاولتُ الانسحاب والتواري؛ وكنت على وشك دخول زقاق فرعي عندما تفجرَّت خلفي صرخةٌ، ووجدتني حين الاستدارة بمواجهة شرطيين يحملان الهراوات ومتحفزان لأي تصرف سلبي يبدر مني.

بتوقيفي، وتثبيت مشاركتي في التظاهرة حُلَّ لُغز ما نُشر بأسماء مستعارة؛ وأيقن رئيس التحرير أن قصيدة وتمَن التي تسببت بإزعاج الملك بوريس نفسه إنما نشرت بتصفيفي وبكلماتٍ جمعتُها عن قصدٍ.. (زارني السيد خواكين في السجن لا ليلومني بل ليمطرني بكلمات عتاب وأسف، وسؤال ذكّرني بدعوته لي ونصيحته المهنية الخالصة).. بهذا صرتُ

عدوّاً بنظرهم؛ حسبوني متآمراً. بل وأشّروا في تقريرهم المدوَّن بعدَّةِ أوراقٍ انتمائي للتيار الموجّه من موسكو، وارتباطي بديمتروف ورهطه الخونة، بائعي البلد للأجانب. وما دخولي صوفيا والعمل بها إلا لإعدادي عنصراً مُفكِّراً ومُنظِّماً لتيار الحركة الروسية ونظامها الفوضوي. أتلقى تعليمات ستالين في نشر الشيوعية في ذلك البلد البعيد الذي اسمه العراق، وثمَّة احتمالٌ كبير أنْ أنشط فأمدد الفكرَ الفوضوي اللينيني إلى البلدان المجاورة.. واستَجَدَّ احتمالٌ آخر لديهم هو ارتباطي ببطرس فاسيلي، الضابط الروسي الذي دخل جنوب العراق من إيران فبذرَ أولَ بذرةٍ للشيوعية في الناصرية متَّخذاً من المدينة بؤرةً لنشاطه. والغريب أنهم ذكروا اسم يوسف سلمان يوسف وطلبوا مني الإدلاء بما اعرفه عنه.. من هو يوسف سلمان يوسف؛ ومن هو بطرس فاسيلي؛ وأين تكون الناصرية؟ أسئلة وأسئلة أمطروها على أرض ذهولي وحيرتي.. كل ذلك كتبوه في تقرير إدانتي، ولم يدركوا أنَّ فكري ونظريتي وفوضويتي ونظامي وإعدادي وتياري الذي رميت نفسي في جريانه واندفاعه وهديره إنما تكرس لأجل اللحاق بدوردانة.. دوردانة التي لا ادري أحيّةً الآن أم ميتة؟.. أأجدها حين أحقق حلم الوصول لألمانيا أم سأفقدها للأبد؟.. أتعرفني إن وقفتُ إزاءها أم يغيب عنها وجهي مُظهرةً النكران؟... ويوم كشفتُ للمحقِّقِ

ذلك ضحِك.. أخرجَ لسانَ سخريته مُعتبراً قولي من باب التمويه، فتجاربُهم وتعاملُهم مع السياسيين وأصحاب الأفكار الكبرى علَّمتهم أنَّ الاعترافات ما هي إلا كلمات تلقَّنوها لإبعاد الهدفِ الحقيقي للسلوكِ المناهض للمملكة.

قرين جان فالجان

عندما ادخلونا السجن لم يكن في الزنزانة غير سجينين موقوفين.. كان الاول ملتحٍ تجاوز الاربعين عاماً. في عينيه غضبٌ دائم. يتمتم كما لو كان يجالس احداً. وجدناه يتَّخذ من أخر سرير في الزنزانة مكاناً لرقاده. قضيته أنه تشاجر مع جار له خلال لعبة ورق الكونكان ادعى أن جاره غشه بتمرير ورقة لرفيقه في اللعبة. الشجّار قاد إلى ضرب الجار بعلبة مرطبات زجاجية سبَّبت شج الرأس فقاده إلى السجن انتظاراً لما سيؤول اليه الحال. أما السجين الثاني فكان يتخذ السرير المجاور لي. اسمه فريدناند متّى. شاب بعمر العشرين؛ قصير القامة وممتلئ. عيناه خضراوان يقول انه ورثهما من جدِّه لأمّه الدنماركي الأصل الذي جلبته ظروف العيش شابّاً للمجيء لبلغاريا ممثلاً لشركةِ جنرال الكتريك الأمريكية فتزوجَ من فتاةٍ والدهاُ راهبٌ في كنيسة القديسة صوفيا. آثر العيش الدائم فيها حتى توفي ودُفِن في الساحة

الخلفية للكنيسة مع أسلافِ والدِ زوجته متوارثي الرهبنة وخدمةِ الرب. لفرديناند شعرٌ اصفر ذهبي يفضله طويلاً. مكتئب على الدوام ويميل للعزلة؛ ترك للحيتهِ وشاربه الحريةَ في الاستطالة حتى غدا ككاهنٍ هندوسي. فريدناند هذا لا يلقى من سجّانيه غير نظراتِ الشزر وكلمة حرامي.. تكمن قضيتُه ورميه في السجن لمحاولاتِ سرقةٍ ارتكبها ويراها من أجل المحرومين تماماً كما فعل جان فالجان بطل رواية البؤساء للفرنسي فيكتور هوجو.. والحكاية تبدأ هكذا:

عاد إحدى الليالي مخموراً فسمِع من أحد البيوت في مدخل الشارع حيث يسكن على بعد خمسة بيوت واربع محلات خضرة وعطارة صراخاً يصدر من افواه اطفال فيما امرأة تحاول تهدئتهم يسمعه من يمر في الطريق.. تنصته قريباً من النافذة المُطلة على الشارع اعلمه ببكاءِ الصغار جُوعاً والامُّ تحاول انامتهم دون جدوى.. لحظتها كسرَ قفل محل البقالة المغلق ودخل فحمل كيساً ملأه بالفاكهة والخضروات وراح يطرق باب المرأة ويسلمها الكيس مدعياً انه من صديقٍ لزوجها التقاه في الطريق ولأن الصديق لا يعرف العنوان جيداً تولى هو المهمّة.. سعدت المرأة لكلام فرديناند وشكرته مثلما حمّلته شكرها لصديق زوجها

المُفتَرَض.. وحين استدار ليغلق المحل انقضَّ عليه رجلا شرطة وقاداه الى السجن.

وفي المرة الثانية دخل عراكاً تعرض فيه رفيقان له في العمل لكلمات تحقير قاسية نطق بها مراقب العمل فما كان منه الا أن جاء من خلف المراقب فانهال على قفاه بالكف ثم اشتبك معه وسط ميدان العمل. ذلك كلّفه الطردَ من العمل وتوقيف الشرطة له انتظاراً لمحاكمته. أما المرة الثالثة فجاء دخوله السجن اثر فعل ظنَّهُ خيراً فانقلب عليه وبالاً يومَ خرجَ من بيته فشاهد على مرمى النظر رجلين يمسكان بتلابيب فتى من سكنة المنطقة ويجرانه والفتى يقاوم. تفجّر الدم في صدغيه واندفع صوب الرجلين في محاولة فك الفتى عنهما. ولما تشبثا بالفتى ودعياه الى عدم التدخل استخدم قوته ويديه فانهال عليهما بقبضته. أدمى الاول واسقط الثاني ارضاً داعياً الفتى للهرب. ولم تمضِ ساعة حتى طوقته مفرزة شرطة القت عليه القبض مصحوباً باللكمات واللطمات.. في مركز البوليس اكتشف أن الرجلين اللذين اشبعهما ضرباً كانا عنصري أمن جاءا للقبض على الفتى لتمزيقه صورة الملك أمام الأشهاد.

***

معظمُ سجناءِ زنزانتِنا التي بطولِ عشرة امتار يحملون أفكاراً ليبرالية؛ عمال ينشدون السلام ويرون في هتلر زعيماً عدوانياً سيقود العالم نحو الدمار وينتظمون في حركة اكتشفتُ مع تعاملي معهم ارتباطهم بالشبيبة العمالية في روسيا. يتلقّون البيانات السرية من هناك فيدخلون نقاشاً ويمارسون سجالاً، ثم ينتهون برؤية يدوّنونها على الورق فتُنقَل خفية إلى موسكو. كانت أغلب الآراء تقر بنوايا هتلر نحو تصفية الأحزاب والحركات المناهضة لتوجهاته وتحقيق الهيمنة التامة على الشعب الألماني برمته عبر اثارة النزعة القومية. النزعة التي ستقود صوب شوفينية وعدائية تجاه الآخر، مُحذرينَ من سياسةٍ مراوغةٍ سيتّبعها في وقتٍ يخفي في رأسه نوازعَ مهاجمة روسيا وتدمير نظامها البروليتاري. إنهم يخشون هتلر مثلما يتوجّسون استعداد الملك للانبطاح أمامه وإقحام بلغاريا في أتون صراع لا ينتهي ودمار ماحق سيدمر البلاد بشراً واقتصاداً وجغرافية.

****

من يضع في حسبانه أنَّ موقوفاً غريباً في سجنٍ ستمتد إليه يدٌ ملائكية تسحبه من بين القضبان لتضعه في فضاءِ حريةٍ رحيمة؟.. مَن يأمل في حركةٍ يومية بلا قيود يعيشها فردٌ زُجَّ في السجن لأنَّه تظاهر مع أقرانه العاملين مُطالباً

بالسلامِ ليس غير؟.. مَن يصدِّق أنَّ بابَ الحلم بالانعتاق يُفتَح ويقالُ له خرجت بكفالةٍ ضامنةٍ هو الذي ظنَّ أنَّ نهايته ستكون على هذه الارضِ الغريبة وفي مكانٍ معتمٍ ومجهول كما هو حال السجن؟!

كانت اليدُ الملائكية يدَ كريستينا.

كريستينا هيَ مَن حقَّقت إطلاق سراحي بكفالةٍ واعلان براءتي بإصرار.. فقد شفعت مراجعاتُها المتكررة، دون علمي، وتوسلاتُها لدوائر البوليس والمحققين وشهادتُها الموثَّقةُ بصفائي من كلِّ شائبةٍ سياسية تدينني. براءة استندت فيها على عدمِ ما يشير لارتباطي بأيِّةِ منظمةٍ أو تيارٍ يُناهض المملكة. "هذا شاب لا يعرف السياسة؛ وحتى لو عرفها لا يأبه بها. له همّ واحد هو اللحاق بامرأةٍ عشِقها؛ فهي هدفُه ودنياه.. عندَهُ، يا سادة، دوردانة!.. دوردانة سياستُه وحزبُه وتنظيمُه.. دوردانة أرضُه وشجرتُه وبستانُه؛ أما علاقته ببينكوفسكي ففرضتُه الصدفة... كان السرير الفارغ الوحيد يومَ قدومه في غرفة بينكوفسكي.. الصدفة وليس غيرها حتَّمت وجودهَما وتعارفَهما.

وقعت كريستينا بالحبر الازرق على ورقةٍ ذُيّلت باسمِها وشهادتها وخرجت. مرّت من أمام قضبان الحديد العازلة بين القيد والحرية؛ همست: "ستكون لشهادتي وقعٌ، واثباتُ

براءة. كُن صلباً؛ فأنت بريء.".. أطلقت شرارةَ الإصرار من حدقتيها البحريتين: أنت بريءٌ فعلاً.".

فعلاً! كان لشهادة كريستينا تأثير، أو لأقل عامل مساعد؛ لكن ما شفع لي وبشكل حدّي هو جوازي الذي أظهرت التأشيرات على صفحاته مغادرتي العراق عام ١٩١٦، ولم يوجد ثمة ختم يؤشر دخولي إليه منذ التاريخ المذكور... عندها أطلق سراحي، وختم عليه ختم المغادرة الإجبارية خلال ثلاثة أيام.

عدت إلى غرفتي فوجدت كريستينا قد هيأت مراسيم حفلة صغيرة شارك فيها معظم النزلاء، وعزفت للمرة الأولى منذ غياب عزيزيها مقطع الربيع لفيفالدي. كان فيه المرح ظاهراً، والنزلاء الذين ثملوا بعدما عبّوا مجّاناً من نبيذ فرنسي تولت هيَ تهيئته على حسابها الشخصي انغمروا في رقصة تشابكت فيها أذرعهم وضربت جزمهم الأرض بإيقاع واحد. لم تبخل كريستينا على المحتفين بما احتسوا من النبيذ غالي الثمن. فمناسبة تراها ذات اهمية تتراجع عندها "الليفات" النقدية، المعدنية منها والورقية.

منتصف ليلة الرحيل وقفتُ عند النافذة. أزحت ستارة الساتان وما وراءها من ستارة قطنية تتوازى فيها الخطوط الخضراء الداكنة والحمراء الفاتحة عمودياً.. ستة اعوام

صرفتها في صوفيا حرّاً وثمانية أشهر سجيناً.. كان الشارع يغرق في الصمت وليس غير عربات تحمل سكارى شبعوا من الرقص في زوايا المقاهي التي تستحيل قاعات للرقص ليلاً.

كنت أريد الوصول الى دوردانة.. لابد من الوصول اليها.

ما زلت احتفظ بالعنوان الذي كتبه أخوها لي بخط يده.

(٦)

رغبة في الدراسة..
رغبة في المطالعة

في صبيحة أوائل ايلول موشكة على الانسلاخ من نهارات آب اللاهبة.

اقتنصتُ فرصة خروج فوزي جابر وعباس أغا لتناول الفطور ففاتحت السيد أديب جرمانوس برغبتي في اكمال دراستي الجامعية.

ما أن انهيت كلامي حتى نهض من مكانه وقد تفتحت اسارير وجهه وعلت ابتسامة عريضة لم اشهدها طيلة عملي معه.

- هذا ما اتمناه لك.. اين ستدرس؟
- افتتحت الجامعةُ المستنصرية كليّة مسائية وافضل الالتحاق بها بعد العمل؟
- يسعدني ما اسمع، و...

قاطعته:

- لكن الدروس تبدأ في الساعة الواحدة؛ أي اثناء

دوامنا الوظيفي؟

- وما الضير.. اكمل واجباتك اثناء الدوام وسأحصل لك من السيد مدير الضريبة على موافقة ترك الدوام في الثانية عشر والنصف.. ونصف ساعة كافية للوصول من شارع الكفاح الى الاعظمية.

يا إلهي!.. كيف تحول هذا الرجل الذي رسمته في رأسي متجبراً وحازماً وصارماً الى رحيمٍ ودافئ ورؤوم ؟ كيف بدا أباً حنوناً يعاملني كما يعامل احد اولاده؟

انشغل قليلاً في توقيع وتذييل بعض الاوراق التي امامه ثم رفع رأسه:

- هل لديك وثيقة التخرج من الاعدادية؟.. يلزمك املاء استمارة جامعية وتهيئة شهادة الجنسية وعدم المحكومية والقسط الاول.

- اكملت كافة الاوراق؛ ولم يبق غير التقديم.

كلامي امطره بالسعادة.. ردد متهللاً:

- عظيم.. عظيم. هيئ الملف وغداً سنذهب سويةً الى الجامعة. هناك لي صديق سيساعدنا على اختصار المسافات.

كان قبولي سهلاً وميسوراً.. وكان جرمانوس خيرَ معين.

لكن ما فعله وما يسَّره لي برحابةِ قلبٍ وهدوءِ فكر حيَّرني!

أتـراه يعـيش ازدواجيـة العـراقيين الـتي يؤكـدها علـي الوردي في كتابه لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث أم أنَّ تقييمي للرجل فيه الكثير من التجني؟

استعيد تقطيبة حاجبيه ونظرات استنكاره لمشاهدتي امسك كتاباً فتشتعل الحيرة في نفسي عن ماهية وتركيبة هذا الرجل اللغز.

تلك الليلة شعرت أني سأدخل ميدان الدراسة الجامعية، وهو مشوار زمني له مساس بطبيعة التحدّي والمجازفة. فدخول عالم جديد نوع من المغامرة المقرونة بالتصميم.

نعم؛ التصميمُ قرينُ المغامرة.. ألم يغامر هاتف غازي بالرحيل من مدينةٍ لمدينة ومن دولة لدولة مشحوذاً بالتصميم على الوصول لهدفه؟ ألم يخلِّف وراءه ما يثير الخشية والتبعات ويندفع بقلب الواثق من الوصول لمبتغاه؟..

مجيء اسم هاتف غازي في حواري مع الذات جعلني ارفع الكتاب من المنضدة وأقرأ وصوله الى بودابست.

بودابست ١٩٣٣

الرياحُ عاصفة.. المطرُ يرشق الوجوه بقوّة. أغصان شجرة الجوز الضخمة بأوراقها العريضة في الحديقة المستديرة تتصافق الآن، كأنها تتشاجر. الأشجار الناهضة توّاً تميل هاماتها وتلطمها الريح؛ احسبها وجوهَ فتياتٍ تُصفع بفعل

انفعال أخرق. كنتُ أطيل النظر لهذا المشهد الشتوي المجنون وأنا أجلس عند منضدة من خلف زجاج نافذة غرفتي.

غرفتي جزء من شقة في طابق كتب على واجهته الرقم ٤ من بناية هي واحدة من ثمان بنايات تشكِّل مجمعاً سكنياً بمواجهة حديقة واسعة.. ما وراء الحديقة المستديرة غابة مصغّرة. لقد مرَّ أسبوعان على وصولي إلى بودابست، واستطعت بهدي عبد الله، النادل المغربي المهاجر الذي جلبتني إليه الصدفة تحقيق استقرارٍ مريحٍ طيلة الأسبوعين. فقد جلست ضحى يوم وصولي في مقهى محطة "الكلتي" فتوجّه لي شاب يقاربني العمر، طويل القامة ونحيل يرتدي صدرية بيضاء وربطة عنق بهيئة فراشة، ينتظر طلبي. كان ذا وجه أسمر مليح وعينين واسعتين ورموش طويلة هي صفات الأفارقة وكنتُ رأيت الكثير منهم في اسطنبول يعملون في تنظيف مداخن البيوت والأبنية الحكومية وآخرون يجيدون العمل في الكازينوهات والمطاعم السياحية. طلبت قهوة ثقيلة وسمعته يتمتم بكلمات عربية تشتم صاحب المقهى الذي كان يضغط عليه ويطالبه بسرعة تقديم الخدمة للزبائن حالما يجلسون. سعدت لسماعه ينطق بعربية شمال أفريقيا. أعلمته بوصولي للتو قادماً من صوفيا ونيتي الإقامة، قال انتظرني بعدما عرّفني باسمه، "اسمي

الحقيقي عبد اللّه لكني هنا اتخذ اسم أبراهام" قال. ضحك كما لو أراد القول: "ماذا نفعل! الغربة تجبرك في كثير من الأحيان على تغيير جلدك وتستدعيك إلى الاندماج.". أظهر وداً بثته عيناه؛ وحين شاهد حقيبتي جوار الكرسي وقرأ شحوب السفر على وجهي وعرف أنني قطعت الليل كله في قطار تدوي عجلاته الحديدية وتدمدم قال: اذهب وتجول في الشوارع القريبة وعد لي عند الثالثة، ساعة انتهاء عملي. سأصطحبك إلى غرفة ضمن شقة اسكنها أنا وصديق موريتاني اسمه عبد الوهاب. إذا أعجبتك انضم إلينا، أو لك أن تستأجر غرفة بمفردك، ففي الشقة غرفة مغلقة. إن ارتأيت اكلّم المؤجر لتكون قريباً منّا."... أعجبني المقترح؛ ووجدت نفسي تلك الليلة أبيت معهم بعدما دفعت مصاريف تأجير الغرفة الثانية.

بخار القهوة يرتفع خيطاً بعدما سكبت من إبريق معدني بانت عليه حبيبات قهوة فاحت وتشبثت على جداره. لقد غدت حلب واسطنبول والكسندروبولي وصوفيا ومدن أخرى مررتُ بها لا تعدو محطات توقفت عندها ثم غادرتها مخلفة ذكريات حفرتها على جدران الذاكرة ستأتي يوماً مدونةً على الورق أو سأرويها شفاهاً. إنها المرة الأولى التي أشعر أني على مقربة من دوردانة؛ فقد أعلمني عبد اللّه يوم أمس ونحن

نتجـول نطـالع حوانيـت السـوق الكـبير "الكوزورتـات" المخصصة لبيع الخضار والفواكه في بودابست، المشيَد عند قناة مائية في نهاية القرن التاسع عشر على مساحة إحدى عشر ألف متر مربع وبطابقين وتأتيه الكثير من البضائع عبر هذه القناة أنَّ ركوب أربع ساعات بالقطار من بودابست سيوصلني إلى فينا، العاصمة النمساوية الفاتنة. فينا التي قال أن نابليون دخلها منتصراً في ٢١ نوفمبر ١٨٠٥ فتناول أول وجبة للسجق المغموس ببهارات هندية حارة ألهبت لديه أحشاءه وأشعرته بدفء ناهضَ البرد القارص يوم هجمَ على المدينة وكساها بالثلج وربما سيدخلها يوماً هتلر زعيم الحزب النازي الذي بزغ نجمه وعينه الرئيس الألماني هندنبيرغ قبل أيام مستشاراً فنادى علانيةً بتحقيق المجال الحيوي **ESPACE VITAL** المتضمن التوسع على حساب ما يحيط ألمانيا من دول مجاورة بهدف توفير الحاجات الأساسية للألمان وهو ما يدلل أنَّ النمسا واحدة من هذه الأهداف... قال عبد الله إنّه زارها أربع مرات؛ فهي المدينة الحلم بنظره. دخل متحفَها فشاهد سريرَ نابليون وفراشَه؛ الصحون التي كان يأكل منها، الشوكة والسكين، مناشف الحمام وشبشب كان ما يزال كأنه لم يلبس. قال "وقفتُ عند المرآة المستطيلة التي كان يقف أمامها نابليون

وهـو يتأمـل بدلتـه الرسميـة القتاليـة.. رأيـت نفسـي نـابليون؛ وكـان زوار المعـرض ينتظـرون تحـرّكـي ليتخـذوا موضـعي ويطالعوا عبر المرآة متأملين انتصاب القائد الفرنسي المنتصـر كنسـرٍ وهـم يتسـاءلون في سـرّهم بمـاذا كـان يفكّـر ذلـك القادم من باريس مزهواً وقد سـحق القـوات النمسـاوية فأسـر منها ثلاثين ألفاً ، وأمر بسوقهم إلى بـاريس يتقـدمهم قائـدهم مـاك مطأطـأ الـرأس ذلاً وخنوعـاً ، بمـاذا كـان يفكّـر وقـد استعدَّ لملاقاة الجيوش الروسية القادمة لنجـدة النمسـاويين؟.. أتراه وقف أمـام المـرآة هـذه يتأمـل مـا سـيحدث بعـدما وصلته توّاً أنباء من هناك.. من البحـر تحـرك قائـده فيلينيـف ليواجـه نيلسـون وأسـطوله البحـري الضـارب في معركـةٍ حاميـةٍ الوطيس عند الطرف الأغر؟ أحدسَ أنْ سينتصـر قائـدُه علـى الادميـرال البريطـاني نيلسـون فيطـيح بهيبـة الانكليـز وينهـي سـطوتهم وتبجحهم بسيادة البحـار أم تـراه وقـفَ هنـا جزِعـاً وهو يستمع لأخبار انتصار نيلسـون وانتحـار فيلينيـف لهزيمتـه وعدم تحقيق حلم انتصار نابليونه؟

أعجبتني دماثـة خلق عبـد الله مثلمـا أدهشـني أسـلوبه في الحديث. شاب يتحلى بشخصية تبعث على الإعجاب.. حدثتـه عـن وجـودي في صـوفياً وعرَّجـتُ علـى ذكـر كـريسـتينا. وعندما قلت أني مدين لها باتصـال هـاتفي رجتني إجراءه حـال

وصولي بودابست وثبَ متحفزاً. "لابد من الإيفاء بوعدك" قال "هات الرقم الذي تحتفظ به". زاد من اتساع خطواته ونظراته الباحثة عن مقهى أو حانوت فيه هاتف عمومي.. بعد عدة مكاتب تجارية وصالونات كوافير وقفنا عند حانوت يبيع الفواكه وجواره هاتف. وضع عملة معدنية من أجزاء الفورنت وراح يدير القرص بعدما حصل من صاحب الحانوت على مفتاح بلغاريا الدولي. قليلاً وجاء صوت كريستينا منغماً كأنه مازورة موسيقية: هالو..! هالو.... رحتُ أمطرها بالتحيات مُعلناً وصولي ومجسِّداً اشتياقي بكلماتٍ فيها من الاحترام والود ما جعلها تبكي، راجيةً الاهتمام بنفسي وعارضةً مساعدة مفتوحة متى احتجتها؛ عرضاً سخياً وصل حدَّ استعدادها للمجيء إلى بودابست والوقوف بجانبي في أمر جلل إذا اقتضى الحال.

أرى عبد الله الشاب المثالي الذي يسعى لزيادة ثقافته. ميالاً كان للقراءة وبشغف الملهوفين. قراءة لا يقرنها بالكتابة والنشر كما تمنيت. فما يقوله أمامنا شفاهياً يمكن أن يكون مادةً تتلقفها الصحف وتعتد بها المجلات. تحت سريره الحديدي تتكوم مجاميع الكتب باللغات السلوفينية والفرنسية والألمانية إضافة للعربية. لغات يتقنها برمَّتِها؛ وكتب طالعها والجاً عوالم أمم يدرس أسلوب

حياتها وتفكيرها ومطامحها فيتعلمها ويتحدث بها. عندما قلبت صفحات عدد منها وجدت خطوطاً رسمها تحت جمل وعبارات لابد أنها تمثلت برأيه مهمة ومؤثرة. كانت كتباً فلسفية لفريدريك نيتشه ويوهان فولفغانغ غوته وغيورغ كريستوف ليشتنبرغ وآرثر شوبنهاور، وأخرى سردية: الأرض الطيبة لبيرل بارك ومذلون مهانون لديستوفسكي والأحمر والأسود لستندال والزنبقة الحمراء لأناتول فرانس. وهناك مسرحيات هاملت وعطيل وهنري الرابع لشكسبير تعرض انتصار هذا الملك على الفرنسيين، وأجا ممنون لأسخيلوس والفوضويون لاوسكار وايلد. ومن كتب الشعر وجدتُ قصيدة فرجيل لهوميروس وشمشون الجبار لميلتون وأخرى لوليم بليك وكيتس وكولرج.

ما اكتشفته في عبد الله هو صمته الطويل وشروده.. اكتشفته في كثير الأوقات يتوشح وجهه بمسحة حزن ما جعلني يوماً، وكنت على سريري أحدق في سقف الغرفة ذاهلاً وحائراً اقرر الاستفسار من عبدا الوهاب. أبوح له بقلقي.. تلك اللحظة كان عبد الوهاب منهمكاً في كتابة رسالة ينوي بعثها لأهله يخبرهم انه ضاق العيش في الغربة وانه يفكر في العودة إلى موريتانيا وإن عانى فيها الفاقة والفقر؛ وطالبهم باختيار فتاة من قريته يتزوجها حال عودته

فقد آل على نفسه ألا يقع في حب لا يجلب له سوى القلق واللوعة (لقد كان بإمكانه الارتباط بواحدة في البلدان التي مر بها وعمل لكنّه يرى الأمر طريقاً للفشل والخيبة، ذلك أن بيئتيهما مختلفتان جذرياً، تضعان احتمالية عدم تجانسهما ودوام ارتباطهما على سكّة الافتراق، وهو ما لا يريد خسارة حياة بل ما يريده عش زوجية دائم وأولاد يرى فيهم صورته.). كان عبد الوهاب الصديق القرين لعبد اللّه؛ رافقه من كازبلانكا وعبرا سوية مضيق جبل طارق صوب اسبانيا ثم ايطاليا وفرنسا حتى انتهت رحلتهما المشوبة بالكثير من العوائق ابتداءً من قلّة المال والتشكيك بجوازيهما وأوراق سفرهما وصعوبة التفاهم وهما يعبران من بلد لبلد ثم أخيراً وصولهما بودابست صارفين سبعة أعوام عاصرا فيها تقلبات المناخ ونزق الطبيعة وخصوصاً فصول الشتاء وهي تحاربهما بالصقيع والثلج والرياح المتجمدة.. يحتفظ عبد الوهاب بجهاز حاكي ومجموعة اسطوانات ابتاعها خلال وجوده في مدريد أو باريس او روما. ما ان يختلي بنفسه ويأخذه الحنين للوطن حتى يستل اسطوانة من غلاف مقطوعات عزف على البيانو لشوبان، لكنه حين وضعها في المكان المخصص ثم أنزل الإبرة انطلقت موسيقى لآلة هوائية ذكرتني بالناي العراقي. ابتسم لمشاهدة سحنة

المفاجأة توشّح وجهي. قال: هذه آلة نفخ موريتانية نسميها " النيفارة "؛ هي قرينة الفلوت لدى الأوربيين. عزفها يعرض لون تقليدي نعشقه نحن الموريتانيين. يجري في عروقنا مشعلاً الحنين والطرب.".. ثم راح يتمتم مع أغنية " باغزية " التي استجابت للعزف وانطلق صوت بدوي حاد، ترنّم له وهام هيام طفلٍ بتغريد بلبل على شجرة.

عبد الوهاب هذا كشف لي قصة مأساوية جرت لعبد اللّه كانت نهايتها خنجراً غرسه القدر في قلبه فأفقده "هانا" إلى الأبد ".. من هي هانا؟!". نهض من سريره وتوجه لمرآة مستديرة تستند على قاعدة معدنية فضية يضعها عبد اللّه فوق منضدته المقابلة لسريره من جهة قدميه. أدارها فأظهر الدوران صورة فتاة شقراء بعينين شهلاوين وشعر عسلي: "هذي هانا"؛ قال متحسرّاً.

فتاة عشرينية ترتدي بلوفراً صوفياً رمادياً بعنق طويل حيكت عليه بخيط حريري أسود جانبياً عربة ملوكية بحصانين، وخُطَّ على بابها المواجه لعين الناظر العام ١٦٧٩ بخيط ابيض، ما يشير إلى أنها عربة قد تعود للويس السادس عشر الرسمية أو هي خاصة بزوجته ماري أنطوانيت.

هانا .. الكبد الطعين

تربت هانا وكبرت في كنف جدّها بنجامين فيردناند الرؤوم.. عطف عليها عطف الأب وأذاقها عسل حنان الأم. آل على نفسه ان لا يشعرها بفقد والدها ميهاجلوفيتش ولده الضابط الشاب وأمها المهندسة سلافكا اللذين ماتا مع احد عشر رجلاً وامرأة غرقاً بعبّارة كانت تخترق نهر الدانوب في ليل شتائي من ليالي يناير عندما كانا عائدين من سهرة عيد الميلاد أقامها مدير شركة الملاحة النهرية لمنتسبيه وكانت امها من أعضاء الشركة النشطين. ليلة ثمل الجميع فيها وقضوا نصف الليل الأول على موسيقى صاخبة ورقص أطلق فيه المدعوون العنان للغة الجسد في التعبير؛ وكانت البهجة كشيء مفتقد جاء بما يشبه الحلم السريع ذلك أنَّ بودابست والوطن الهنغاري برمته كان ينام ويصحو على أخبار الحرب يوم قررت النمسا وهنغاريا الحرب على صربيا. حرب اقليمية قادت إلى حرب كونية كبرى، الحرب العالمية الأولى.. جدُّ هانا يحمل رتبة ميجر، يتولى قيادة فرقة فرسان أنيط بها احتلال العاصمة سراييفو.. الجدُّ حدس ومنذ بواكير الأزمة مع صربيا أن أوربا ستقبل على حرب ستعم وستطول إنْ أطلقت أولُ قذيفة مدفعية.. حرب ستقتل الملايين وتجرح وتشوه الملايين المضاعفة. وكان والد هانا الضابط المتخرج حديثاً من

الأكاديمية العسكرية يقود سرية مدفعية ترابط عند الحدود بمواجهة القوات الصربية المتحصنة في مواقع جبلية لا تؤثر بها المدافع النمساوية التي صنعت لترهب الأعداء. ويوم أطلقت أول قذيفة مدفع من قلعة زيمون النمساوية على الجانب الثاني من الدانوب حيث بلغراد تفجّرت الحرب. ومعها فجّرت منظمةُ "القبضة السوداء" جسرَ السكة الحديد الرابط بين صربيا والمملكة النمساوية- المجرية.. تلك الليلة انتفض الراقدون في أسرتهم عند القرى الحدودية لكلا البلدين وكانوا يغطون بنوم عميق، فنهضوا هلعين.. صرخ بيتر رون، البريطاني الكهل الذي يرابط في مصحَّة قريبة مصاباً بالتدرن: "إنها الحرب إذاً **THE WAR HAD BEGUN**!.. بدأت ولا ندري متى وكيف ستنتهي.. الحمد لله أن بريطانيا ملتزمة الحياد!". وهتفت جيوفاني معلمة اللغة الألمانية في المدرسة الابتدائية لقرية باكيبيرغ: يا إلهي! ما الذي يفعلون؟!".. وكانت شظايا زجاج النوافذ تنتشر على أرضية غرف وصالة التراتيل للكنيسة التي يديرها القس ستيفن بطرس وسمع الناهضون المرتعبون في بيوتهم أصواتاً عشوائية عالية لأرغن الكنيسة الكائن في طرف الصالة اثر سقوط قطع الزجاج على سلالمه الموسيقية. وكانت تيارات الريح الباردة تهجم عبر النوافذ فتهفهف الستائر وتطفئ شموع الشمعدانات المنصوبة في زوايا الغرف

والصالة بينما يسمع انتوني المجذوم المعزول بكوخ عند أطراف قرية حدودية صرخات أطفال مذعورين تأتي من الأكواخ الريفية البعيدة مقرونة بنباح فزع تطلقه كلاب حراسة معسكر المشاة النمساوي الذي كان لحظتذاك يغرق في العتمة ويتأهب الجنود لتلقي أوامر عبور النهر نحو الجانب الصربي.

ورغم أن الميجر بنجامين فيردناند كُرِّم بحفاوة بعد انتهاء الحرب هو وبضعة قادة حربيين لا يتعدّون أصابع اليد وقام الملك جارلس الرابع بزرع الأوسمة على صدورهم وعاد لقصره العامر المطل على الدانوب إلا انه طعن بعد ساعات بوفاة حفيدته هانا؛ وكان اطمأن عليها فجراً قبل الاستعداد لحفل التكريم واخبره الطبيب المشرف أنها استيقظت بشيء من النشاط، وأنها تعافت قليلاً؛ وتلك بشارة سعيدة للشفاء التدريجي؛ فالتدرن الذي قتل جون كيتس الشاعر الانكليزي الذي يعشق الجدُّ شِعرَه ويردد نصفَ قصائدِه عن ظهرِ قلب بحزن ولوعة هو نفسه الذي سيفاجئه بعاصفة من الكمد والأسى عندما تردد صوت الطبيب المشرف وتهدّج معلنا انتقال هانا إلى الرفيق الأعلى تلك الظهيرة.. وكان جمع الممرضات يتهامسن في ردهات وممرات المستشفى عن علاقة الشاب الأسمر الذي كان يبكي تحت سرير هانا وهو يفترش الأرض ويتضرع

للسماء أن تشفيها. همست إحداهن: قد يكون خادماً في بيت جدِّها الميجر، وهمست أخرى: لعلّه عاملٌ في مشغلِها الفنّي، وارتأت ثالثة: قد يكون حبيبَها فقد رأته ينحني على وجهها الشاحب وعينيها الذابلتين ويقبلها في شفتيها فتشهق من عظم الوفاء وعدم خشيته الاصابة بالمرض القاتل الطائر مع أنفاسها.. صمتن لرأي الثالثة وفي نفوسهن كلامٌ عن جرأتِها وشجاعتِها وتمثلِها بالشاعرة إديث سورد رجران، الفنلندية الشجاعة وحبها لشخصيتها الكارزمية، وسماعهن لها تتمتم من بين محفّات المرض "أنا تاجُ الشرفِ لكلِّ النساء" فعرفن بعد حين انه قول الشاعرة الفنلندية كانت تجابه به أمواج النقد وعواصف الازدراء من الآخرين.. قالت رابعة: نحن لا نعرف عنها شيئاً.. قد تكون تعشقه فعلاً رافضة انتقادات قريناتها أو امتعاض الأمهات ممن يرين في عشق الغريب الأسمر شتيمة وخروج عن الأخلاق. لم يكنَّ يَعلمنَ أنَّه دخل قلبَها من أول حوار قصير جرى بينهما يوم افتتحت أول معرض لمنحوتاتها احتوته الصالة الملحقة بمتحف بودابست التاريخي؛ وكان هو يحاورها بأسلوب ثقافي ولغة قرائية عالية. رافقته مع كل قطعة نحتية معروضة وكان يقرأ ما وراء فعلها النحتي فتندهش لرؤيته الحداثية. تصورته بادئ الأمر فناناً يتقن لغةَ الفن وأبجدية النحت لكنَّها حين فهمت انه مجرد نادل وليس غير

قارىء مثقف تعلَّقت به. لم يكن يومها يعرف أنها حفيدة ميجر جنرال ورمز سلطة كبير. تعلقها (هيَ) به، وإحساسه (هو) بضرورة دعمها اقتضيا حضور أيام المعرض الخمسة... ما بعدها كان اللقاء يحصل في مشغلها.. مشغلها كوخ صغير في أدنى القصر العامر. كانا يشربان القهوة معاً ويدردشان في سحر مايكل انجلو نحاتاً ورساماً وشاعراً. (هي) مندهشة لتمثاله "بيتيتا العذراء تنتحب" حيث الأم مريم تحتضن المسيح بعد صلبه وإنزاله من الصليب؛ و(هو) معجب حد الوله بمنحوتته "ولد يجلس القرفصاء".. (هي) تزدهي بـ"معركة القناطرة" وتتمنى ان تنجز منحوتة تضاهيها؛ و(هو) يمجّد "العبد الثائر" ويعده تحدياً من لدنه في تناول هكذا موضوع ذلك الزمان.

وكانت اللقاءات تتكرر؛ والاثنان في غمرة فضاء فني ونقدي قادهما صوب بستان الحب. لكن تجشآت هانا المتكررة واحتقان رقبتها وجحوظ عينيها أطلق صيحة قلق في سمائه. لم يكن فقدها إلى الأبد يأتي احتمالاً في ذهنه. ولم تتوقع لمعرضها الفني ان يكون الأخير في مشوار موهبة كانت ستجلب لها الشهرة وتفجر فيها الإبداع ليكون حفراً على ذاكرة الزمن.

****

أنا الآن في بودابست. نهر الدانوب يمر هادراً ، وجسر الشين الذي أقطعه رواحاً ومجيئاً أراه عجوزاً يحدثني عن تاريخ المدينة واصفاً طبيعة الأقدام التي مرت عليه والعربات؛ عربات الموطنين الخفيفة الحميمة وعربات غزاة ومحتلين أثقلت عليه. وكان ينوء بعنجهيتهم وأذاهم وهمهماتهم الشبيهة بشتائم ثقيلة تخدش مسمع النهر.. تمر في السماء جوقة غرانيق بسيقانها الطويلة راحلة شرقاً فتذكرني بلقالق كنا نشاهدها في مواسم الربيع تحلق في سماء بغداد؛ ما تلبث أن تتخذ من منائر وقباب الجوامع وهامات الكنائس محطاً لبناء أعشاش لها. نراقب بناء العش عوداً فعوداً مسروقة اغلبها من حطب تجمعه ربات البيوت تضمّه أسطح الدور للطبخ وصناعة الرغيف، ونرى بعد أسابيع لقالق صغيرة نمت وكبرت وراحت تصفق بأجنحتها اليافعة إيذانا برحلة طيران مغادرة بغداد صحبة أقرانها إلى حيث لا ندري.

الآن أنا في بودابست.

بودابست الآن تعيش الترقب عبر أخبار تتناول ألمانيا والحزب النازي وبزوغ نجم هتلر وظهوره قبل أيام يقدم التحية للمشير بون هندنبيرغ في احتفالية نصب معركة تانبيرغ شرق بروسيا يوم انتصر الألمان على الروس مؤسرين تسعين ألف من جيشهم ومميتين ثلاثين ألف. رفرفة الأعلام

التي تحمل الصليب المعقوف كانت الظاهرة المثيرة للانتباه وشعور أنَّ هتلر يعد العدة للانقضاض على كل شيء.

****

لقد رحل عبد اللّه إلى براغ وعاد عبد الوهاب إلى موطنه موريتانيا كما لمّح لأهله في رسالة سابقة ووجدت نفسي عاملاً في نفس المقهى التي عمل بها عبد اللّه نادلاً بعدما اقترح على رب عمله أنَّ أكون بديلاً ولم يعارض الرجل؛ ولم يكن فظّاً كما تصورته مع عبد اللّه يوم سمعته لأول مرة يشتمه إنما كان عبد اللّه بفعل مزاجه المتعكر جراء موت هانا وذكراها الناقرة صدغيه دوماً لا يروق له كلام رئيسه... خطط عبد اللّه للعيش في براغ من أجل خلق عالم من الرضا تفادياً لجراح فقدان هانا التي لم تندمل. جاء ذلك على هدي رسالة وردته من صديق ترعرعا سوية في مدينتهما كابزبلانكا يعيش في براغ.. في الرسالة حثّه الصديق على ترك بودابست والمجيء لبراغ ، وعده بعمل ينتظره في دائرة بريد المدينة كساعٍ، وهو عمل أفضل من خدمة المقاهي.

مهنة الساعي حسبها عبد اللّه تمنحه التعرف على أحياء براغ فتجعله مشروع دليل سياحي بعد وقت إن فشل في العمل أو نفذت رغبته. مهنة الدليل تغدق مالاً وفيراً.

****

تركت غرفتي متخذاً من غرفة عبد اللّه وعبد الوهاب نزلا. وهبني ما جمع من كتب دون مقابل. فكانت تلك فرصة آليت على نفسي أن التهم فحواها جميعاً. انهل من عسل عناوينها وفصولها نهلاً. فعكفت على القراءة بشوق وقد وجدت كتاباً يسلمني لكتاب، وعنواناً يقودني إلى عنوان. أقرأ أنا كارنينا تولستوي ومعطف غوغول وآباء وبنون تورجينيف وعودة مواطن توماس هاردي. أثر بي جوته كثيراً بروايته آلام فارتر والثلاثي المنكود البرت وشارلوت وفارتر، مثلما أثرت بي قصائد الفريد تَنيسن وكولرج؛ ناهيك عن كتب فلسفية مكدَّسة صارت قرينةً لأوراق عشب والت ويتمان.

وعلى عكس عبد اللّه رحت أدوِّن آراءً تفرزها ذائقتي، ووجدتني أميل إلى السرد أكثر من الشعر. يزداد وعيي للأشياء فتتفكَّك مغاليقُ الكثير من أبواب الإبهام وتأتي الإجابات وافية لعديد الاستفهامات. صارت الأوراق الممتلئة بآرائي وتحليلاتي وما اكتب من قصاصات لقصص متنوعة من الخيال تتراكم على المنضدة وتتناثر طائرة إلى زوايا الغرفة خصوصاً حين افتح النافذة ويدخل هواء بودابست تياراً قوياً متلاطماً. تأخذني شوارع المدينة وطرقاتها؛ تتده عليَّ الأشجار. تبتسم الحدائق منشرحة فتشملني بانشراحها.

يداعب نسيم صيفها وجهي ويلاطفني بدعوة إجراء مقارنة بين لفح صيف بغداد وعذوبة الصيف هنا. وأزور الدانوب لأفيض إليه بما في القلب من رغبه في الكتابة عنه، والتغني به. أحدثه عن أمّي التي لابد أنها لفظت الأنفاس الأخيرة وفي عينيها صورتي، وفي قلبها لوعة مشاهدتي للمرة الأخيرة قبل اغماض العين؛ أو تمنت أن تمر كفي على عينيها لتقوم بالمهمة. أحدثه عن جدّي الذي أجهز على أعوامه من اجل تنشئتي واظهاري للوجود علماً بعدما فقدت أبي وأنا طفل لا أتعدى السادسة. أسرُّ إليه بحبي لدوردانة.. على غرار فيكتور رحت اكتب خواطر أطلقت عليها "في فضاء الذاكرة". تلك التي حين أعود لقراءتها بعد أيام أعجب!.. لا اصدق أن روحي هي التي سكبتها بذائقة خرافية، ولا أصابعي التي نحتّتها على الورق.

****

لابد من تذكُّر كريستينا، ولابد من استرجاع مواقفها الإنسانية وشجاعتها في مواجهة الأقدار والصراع مع الظروف المستجدة في فندق، هو بمثابة كيان اجتماعي، وهي ذات السلوك الصلب بقدرة وتمكن تترك لدى المقابل انطباع الإعجاب ممزوجة بالدهشة.. أتذكّرها وهي تلتقي ثلة نساء يقاربنها العمر: مارثا، زوجة آدمز الحداد المتخصص

بصناعة أبدان التراكترات والمحاريث ذات الشفرات الحادة والدوّارة.. أليسا أرملة إليوت بلاكسمث، الايرلندي الذي جاء صوفيا يوماً ففتح كشكاً لبيع الصحف واغرمت به وعشقها شابة يتناثر النمش على خديها الحمراوين فيراها كما يرى بنات ايرلندا ذوات النمش الغزير على الوجه والرقبة فيتزوجها بوله ويترك لها الكشك بعد رحيله إلى بلده زائراً على أمل العودة؛ بيد أنه لم يعد؛ فالزحار الذي أصيب به لم يمهله غير أيام أبعده عن أليسا إلى الأبد. لذا بقيت الزوجة وفية له تبيع الصحف وتدفع اجر الكشك السنوي لبلدية صوفيا وتنضم لجمعية كريستينا.. معها شابات محتشدات بطاقةٍ يسعين لسكبها في بوتقة نقل المجتمع النسوي البلغاري إلى طبقة النساء الفرنسيات والبريطانيات، إلى توهج النساء الألمانيات وهن يفتحنَ طريق البناء، وتنقل الصحافة البلغارية يومياً برامجهن في التصنيع الثقيل أو التوجّه نحو الحقول؛ شعارهن "كل هكتار نزرعه يغذي شعباً كاملاً". كانت كريستينا تفيض دعماً لهن، وكنَّ يبصرنها قائدة تتحلّى بكاريزما يتمنين لو كانت الطابع الشامل لشخصيتهن. كان وجهها المُحمر يُذكِّر بوجوه نساء اوغست رينوار أطلعني عليها يوماً عبد اللّه في جولة قادني بها عبر أروقة المكتبة الوطنية وأطلعني على

مجموعة كتب مشفوعة بنماذج للوحات تتخصص بالمرحلة الانطباعية. لقد هتفت وأنا أطالع احد الوجوه: هذه كريستينا ، نعم هذه كريستينا! هذا شعرها ، هذه استدارة وجهها؛ هاتان عيناها الزرقاوان؛ هذه رقبتها الشمعية الساحرة.. وعند صورة للوحة "طاحونة غاليت" رسمها رينوار يوم كان يعيش في ضاحية مونمارتر الباريسية وقعتُ في بحيرةٍ من الجذل وغصتُ في غِمار الدهشة عندما صرت أرى كل وجه من وجوه المحتفيات في اللوحة وجه كريستينا.. " لابد أن كريستينا فعلت فعلها على عاطفتك فجعلتك تراها في امرأة رينوار"قالها عبد مبتسماً.. والغريب أنني فعلاً رأيت في امرأة رينوار وجه كريستينا؛ بل تعدى ذلك لكل امرأة رسمها رينوار كانت بنظري كريستينا؛ حتى خشيت من أن يوصمني عبد الله بالخَبَل.. أتذكر كريستينا وقد تركت جيوفانا تدير الفندق بدلها وخرجت مع جمع النسوة لنشاط نسوي اجتماعي. كانت تلك المرة الأولى التي أرى جيوفانا وأتعرف عليها.. كانت الفتاة تحمل الكثير من ملامح أمها الجمالية ، لكنها أكثر رقّة. لها صوت خفيض يعبر عن خجل يترك خديها يحمرّان لحظة الشروع بالحديث.

ولابد أيضاً من تذكّر ديمتري؛ السجين الأربعيني الصامت على الدوام. كان يكتب الشعر ويمزقه فلم نسمع

منه بيتاً.. تعرفه صوفياً أديباً يكتب الشعر المحلي. يقوله أكثر الأحيان في البارات وحفلات يكون شرب البيرة والبراندي حلقة وصل المحتفين. يكره المراسيم ويبغض البرامجَ المُعدَّة مُسبقاً.

شاهدته مرةً في أكثر حانات العاصمة ارستقراطيةً يرفع الكأس يهجم سهم ضوئي من المصابيح على حافته فيرتد إلى عينيه، فيهتف كمخمور يريل في كلامه: "شير ديمتروف.. المجد للعمال بناة الحضارة؛ الخلود للفلاحين عشّاق الأرض.. شير بلغاريا أم العمال والفلاحين.". فعله هذا استفز بعض المتأنقين. أظهرت امرأة بفستان فيه من الأبهة ما يظن أنها أميرة قسمات امتعاض، وتمتم رجل يشاركها المنضدة وكان متأنقاً بسترة صوفية شمعية اللون وربطة عنق زرقاء موشاة بخيوط حريرية لامعة بكلمات تذمر بينما من آخرَ منضدةٍ رفعَ رجلٌ ستيني يعتمر قبعة سوداء كفّاً كأنها الإدانة الصارخة. وكان الآخرون وجدوا فيهَ مهشم كريستال هدوئهم ومحطم رحلتهم الرومانسية فاكتفوا بتخفيض نظراتهم الغاضبة وهم يهزون الرؤوس تململاً.

رفع مدير البار وراء مصطبة إعداد الطلبات سماعة الهاتف وتكلم. من الزاوية البعيدة وسمع من ورائه من يصرخ:" ياللاوغاد المتخلّفين! ".. ربع ساعة لا غير اقتحم

المكان رجلا شرطة بهندام أنيق. سحباه إلى سيارة بوليس انطلقت به صوب مركز الشرطة.. هناك أصدروا أمراً بتوقيفه بدعوى إساءة السلوك وانتهاك حرية الآخرين.

((يكتب هاتف غازي عن ديمتري فيقول انه شاهده في احد شوارع صوفيا بعد خروجهما من السجن. كان يائساً ومكتئباً. لم يكلمه حين بادره بالكلمات؛ وبدا انه يجهله ولم يشاركه المعتقل أو يتحدث معه يوماً. كان مشوش الذهن وشارداً.. وغب أيام تناهى لمسمعه انه قضى منتحراً. وسمع بعد شهر أن صحيفة البرافدا الروسية شرعت بنشر قصائده تباعاً ، وأنها عازمة على إصدار كتابٍ يحمل أشعاره مثلما أمرت بإطلاق اسمه على احد شوارع موسكو.)).

لم تكد تمضي ثلاثة أشهر على سفر عبد الله؛ ولم أكد أتشبع بما قرأت من كتب أغدقها عليَّ حتى وجدت نفسي أحد الأيام استلم رسالة بعثها من براغ. كانت مليئةً بالحنين. فيها وجدته يعيش أزمة مالية؛ إذ أن أجواء الحرب كانت تخيم على الشعب التشيكي ويخشى السلوفاك من تطورات الوضع. كان صديق عبد الله الذي دعاه للمجيء قد صُرف من العمل وعاش بطالةً. شممت من كلمات عبد الله حاجته للمال، لكن من أين آتي بالمال وقد اتخذت

سلوكاً حياتياً فيه من الازدواجية ما قد يثير الضحك عند من يشاهدني او الامتعاض لتصرف لا يليق بي كمغترب؛ إذ كنت حين انتهي من عملي أتخلى عن المريلة والقبعة القطنية البيضاء فارتدي بدلة سموكن وربطة عنق زرقاء مطعمة بوردة لها لون الثلج وحذاء لماع اشتريته من معرض ملابس لا يدخله إلا ارستقراطيو المجتمع الهنغاري. أقف أمام المرآة اصفف شعري بعد تزييته فأبدو كدوق انكليزي. اغرب ايها الفقر، يا مذلي ويا سارق تطلعي.. ابتعدي ايتها الفاقة القبيحة وانكفئي على عقبيك، يا عاهرة!.. وأنتَ يا حرمان ما لك تتعقبني بظلك الليلي وانفاسك البغيضة لتسرق متعتي وتتركني بئراً للآهات والشكوى؟!

استأجر عربة تعبر بي جسر الشين من بودا لجانب بَشت؛ هنالك اختار مقهى ارستقراطياً يرتاده العسكريون ذوو الرتب الكبيرة.. كثيراً شاهدتُ الأمير ستيفاني حفيد الرئيس الهنغاري ميهالي كارولي يجلس في جناح خاص مؤثث بأرائك وثيرة وكراسٍ ومناضد تعبر عن أبّهة وفخامة. ينظر من بعيد؛ خلته يبغي السؤال عني والتعرف بي؛ خمنته يرغب ترك منضدتي والانضمام إليه في جناحه فيكون لقاءً تاريخياً بين أمير يُخدَم بأبهة ودوق مزيف يجهل هويته.. تشاركه منضدته فتاة خلتها الفنانة مارلين ديتريش التي

شاهدتها قبل أيام في فيلم "الملاك الأزرق" تؤدي وصلة غناء عامرة بالسبرانو والكورال الأدائي الفخم. كانت الفتاة فاتنة بمعطفها الصوفي الأسود والوشاح الأحمر الدموي المتدلّي على جانبي صدرها بينما السيجارة بغنج بين السبّابةِ والوسطى ترفعها بأداء تمثيلي فتمتص شفتاها دخاناً تدفعه كتلةً واحدة إلى أعلى.. شاهدت الشاعر "آتيلا جوزيف" الذي سيموت شاباً بعمر الثانية والثلاثين في العام ١٩٣٧ بعدما اصطدم بعربة قطار منطلق فيما الشائعات التي سادت بعد موته رجحت انتحاره؛ يجلس في ركن منزوٍ يكتب قصيدة حداثية ويدخن بشراهة؛ يعيش عالماً خاصاً به كأن ما حوله ليس لهم وجود أو كأنه يقول: من لذة الجو الارستقراطي اكتب عن المُعدمين والمسحوقين وأتغنى بهنغاريا أمِّنا اللدود.

كان للكتب التي قرأتها تأثيرٌ كبير. فمع كل كتاب أطالعه تزداد ثقتي بنفسي، ويبزغ الإنسان القوي والمعتد بكاريزما مثيرة للانتباه. تأتيني مقولة نابليون بونابرت "الخيالُ يحكمُ العالم" فأجدها صميمية صادقة؛ إذ لولا الخيال لما استحال الحلم واقعاً لدى الكثير من الناجحين في الحياة.. ومع كل رواية انتهي من مطالعتها انتهي من الإحساس بالغربة الملازمة للغريب في غير محيطه. اهدم

جدران صخرية احسبها تعيق نزوعي لإدراك ذروة الإنسان السوبر. لقد دعا نيتشه وهو يخاطب ذوي القلوب الضعيفة لتغذية الروح بالجرأة وشحذها بالقوة فـ(لا شيء يمكنه أن يُكلَّل بالنجاح إنْ لم يكن للجرأةِ من يدٍ فيه. وإنَّ فائضاً من القوة لهوَ وحدُه المؤشر على القوةِ. قلبٌ لكل القيم "... " مثل هذه تفرض على صاحبها أن يركض في كل لحظة إلى الشمس)؛ هذا ما قرأته في كتابه غسق الأوثان وتأثرتُ به. من هنا؛ من دعوته النارية وهتاف تحدّيه رحتُ احرق كل ما احصل عليه من أجر وإكراميات على شراء العطور والقمصان والبلوفرات وأربطة العنق ودهون الشعر، والعصا التي اجعلها رفيقتي كإكسسوار ارستقراطي وقبعة اللوردات الانكليز، والساعات السويسرية الثمينة بسلسلتها الفضية المثيرة للانتباه وهي تتدلى على الياقة، والأحذية الجلدية اللميعة... تكريس جل ما احصل عليه من مال للمظهر والركض وراء شمس التطلع إلى النور هما الحلم لإدراك النجاح لذا صرت بتأثيره أرى الحياة الناجحة هي أن تعيش الحلم؛ فليس بغير الأحلام تتحقق النتائج المرتجاة.

بين الحين والحين ابعث لعبد اللّه ما أظنه بائساً ولن يسد رمقه ولكن ذلك ما اقدر عليه؛ أما الباقي فلإيجار الغرفة ووجبات غذاء صارت مع الأيام فقيرة لا تتعدى أرغفة الخبز

والجبنة وبعض الفاكهة، تجاوزاً على اللحوم الحمراء والسمك والدجاج حتى غدوت نحيفاً يظنني الرائي مصاباً باللوكيميا أو بفتك عصيات كوخ لرئتي دون علمي.

زياراتي المتعددة للمقهى أرست نظراتي على قوام امرأة كانت تحضر أيام الآحاد فيحتفي بها الجلاس من عليّة الدرجات الحكومية ويهب عمال المقهى لخدمتها. قال لي احد العمال أن اسمها كارمن، صحفية حكومية تتولى كتابة تقارير استثنائية تحظى باهتمام الملك. مغامِرة ترمي بنفسها في بقع ومواقع خطرة ومتوترة يخشاها معظم الصحفيين. تولت لقاءات الزعماء والقادة الذين يزورون المملكة؛ صاحبت الملك في عديد زياراته خارج البلاد؛ كتبت عن فضائح مالية وعلاقات سرية وسلطت الضوء على خيوط قادت لشبكات تجسس؛ كتبت يوم كانت بعمر العشرين عن أحداث المعارك في الحرب العالمية الأولى وهزيمة ألمانيا وسقوط مملكتها، واكتسبت جراء ذلك شهرة استمرت تكبر وتتسع.

هي الآن أربعينية ممتلئة قليلاً لكنها ممشوقة خداها تشوبهما حمرة تأتي نسائم البرد وشفتاها ممتلئتان دماً كأنهما متورمتان يزيدهما لمعان الرضاب حجماً أقرب للحظة الانفجار. في عينيها بقايا نزق مراهقة تتحلى بشجاعة.

فساتينها الثمينة وتسريحة شعرها الطويل المنسرح وخطوها المتناغم هوية شخصيتها المعتدة رغم بساطة تحاول إظهارها لتبعد صرامة تُقرِّبها من صفة الرجولة... رفعت نظرها تبغي الإشارة لنادل مرَّ عبر مناضد في طرف المقهى فانتبهت إلى أني أطالعها. ارتشفت من فنجان القهوة رشفة ثم عادت ورفعت عينيها فوجدتني ما زلت أطالعها. ابتسمت لها وطأطأت رأسي علامة التحية والاحترام وربما الإعجاب لو خمنت ذلك.. ردَّت بابتسامةٍ اعرض مع بوادر استفهام طفقت عيناها تطلقه إن كانت تعرفني أو أنا مَن يعرفها.

الأحد الثاني كان مبتدأ علاقة أنتجت لقاءات كانت فيها كارمن المرأة التي اصرف الكثير من لياليَّ معها.. مرةً حضرت الى النادي متأخراً لأجدها في منضدتها المعتادة. نظرت لي بشيء من القلق. حدستُ مرد ذلك خشية عدم مجيئي. يجلس معها اثنان من الرجال المهندمين. يحادثونها بمرح وقد بدوا سعداء للجلوس معها. طأطأت رأسي من بعيد تحيةً. ولحظة كنت ارتشف فنجان القهوة وأومئ للنادلة ان تأتيني بقدح ماء إضافي لحظتها تهمس بأذن نادل تسلَّم منها قصاصةَ ورقٍ نقلها إليَّ. "انتظرني.. لا تبرح المكان.. اليوم سنعيش صحبة حميمية.. وقتي هذا اليوم لكَ؛ وأرجو أن يكون وقتُكَ لي".

التقينا في باب المقهى.. خطت أمامي مشيرة الى سيارة فورد فضية فخمة الطراز خصصتها لها الوكالة الصحفية في حركتها ومهامها الصحفية. انطلقت بي صوب كازينو تطل على الدانوب.. هناك شربنا خمسة أقداح من النبيذ. ارتشفتُ القدحَ الأول ارتشافاً. اتلذذ ببرودته وبفقاعات هوائية تقافزت فوق السطح مصحوبة برغوة بيضاء. افرغتُ نصف القدح في جوفي ورأيت كارمن تسعد باللقاء وتعبر عن هنائها بالصحبة.

بعد قليل حضر الموسيقيون. سحبوا ستارة ذهبية كانت في الطرف البعيد من الجدار ثم أزالوا قطعة قماش تغطي آلات موسيقية تحتل ركناً. أشعلوا المصابيح فتوهج الذهب مضيئاً المكان بشكل كرنفالي بدا كأنه مسرح وبدا الرواد كأنهم حضور قدموا للمشاهدة والاستماع.. شرع الموسيقيون يدوزنون آلاتهم الوترية، الكمانات والقيثار، على آلة اكورديون فيما أحضر ضارب الجاز عصاتي الضرب على الصفائح البرونزية وأغشية الطبول. قليلاً وانطلقوا يعزفون لحنا رومانسيا هادئاً، ما لبث ان تولى عازف الجاز دوراً بمصاحبة آلة الترامبيت أشاعت جوّاً صاخباً، تلته موسيقى راقصة كان لرقصة التانغو الهامش الواسع.. نهض الأزواج يرقصون بمرح وكل زوج يظهر

مهارتـه وقـد ضـجت الأجـواء بأنغـام المـرح. راحـت اكـفُّ الجالسـين تصـفّق بتوافـق تزيـد مـن حمـى الـرقص وحسـن الأداء.. قليلاً وعادت الموسيقى الهادئة فعاد الجميع يتحلقون حـول مناضدهم، يرتشفون النبيذ وقد اشبعوا الجسد بما اشتهى وما أراد.

بعد الثانية عشرة، وليل بودابست يمتص الصمت وينزع نحو الهدوء انطلقت بنا العربة تقطع الشوارع وتمر عبر استدارات وانعطفات حتى انتهت ببناية ذات ثلاثة طوابق حديثة؛ مظهرها الخارجي يفشي موهبة معمار صممها بفنية عالية.

أدارت كارمن بمفتاح كان يتدلى من سلسلة تجمع عدة مفاتيح في ثقب مفتاح شقّة في الطابق الثاني، فخمة بغرفتين مؤثثتين كما في الأحلام؛ وصالة واسعة بنافذة عريضة تطل على ميدان قالت كارمن حين وقفنا معاً نطالع الخارج انه ميدان الأبطال، نهاية طريق اندرساي. " الميدان هذا أنشئ في العام ١٨٩٦ واكتمل في ١٩٢٩."

****

صارت لقاءاتنا تتم في الشقة.

أنقر على الباب ثلاث نقرات حسبما أتفقنا كي تميزني عمن يطرق فتواربه بابتسامة وعينين تمسحان قوامي بابتهاج.

يراودها إحساس بطمأنينة تفتقدها كما صرحت لي وتتمناها بعد مشوار طويل من العمل الصحفي المرهِق. أهدتني ربطة عنق أشترتها من أفخم معارض برلين يوم غابت أسبوعاً في مهمة صحفية للعاصمة الالمانية صاحبت خلالها كادر من خمسة صحفيين انتشروا في مدن ألمانيا يلتقون ويصورون لإعداد ملف كبير عن ألمانيا في زمن الرايخ الجديد، ضمته في ما بعد جريدة (المراقب الشعبي) واعتبر وقتها أضخم ملف أطلع الهنغاريين على ما يجري في ألمانيا من هياج بشري تقوده قيادة سياسية تتخذ من كتاب "كفاحي" الذي كتبه هتلر في السجن هدياً وأبجديةً لإمبراطورية عظمى تُمجِّد العِرق الآري؛ عرق الألمان العظام كم يصرحون ويهتفون... وفي مرة أخرى جلبت معها من باريس دبّوساً ذهبياً قالت انها اشترته من هناك ليتوافق مع ربطة العنق؛ فالرباط والدبّوس واجهة القوام، وهما ما يلفتان نظر القادم فيزرع في قلبه بذرة اللقاء السعيد.

تخطو أمامي متنقلة بين المطبخ وغرفة التموين. تستخرج من دولاب ابنوسي له عدة رفوف وعليها قناني ويسكي معتق مصنَّع محلياً قارورة سوداء يعود تاريخ عمل محتواها للعام ١٩٠٠ بالتمام فتقول: "ثلاث وثلاثون سنة نستحق احتساءها سنةً فسنة.. تستطلع ردّة فعلي ثم تضحك بعينين يشع منهما

إشراق البهجة."

بعد الكأس الثانية وتجاوز عشر دقائق عن الكأس الاولى تضع رأسها على كتفي. تغمض عينيها لثوانٍ ثم تفتحهما لتهمس في أذني: الآن أعيش معك كما لو كنا في جزيرة على شاطئ.. أرى السماء رائقة.. آ.. ها هي تمنحنا شهادة السرور؛ اسمعها تقول: اذهبوا فأنتم السعداء."تقرّب وجهها من وجهي فتقبل خدي ثم تذوب فتدنو بشفتيها لتلصقهما على شفتي وتغرق وجهي بأنفاس حارة.. تهمس من بين ثنايا الذوبان واللذة: نتبادل القبل كميراث تركه لنا الأسلاف.. القبلة لدى أسلافنا مُقدَّسة؛ لذا تراهم يتباهون أمام الأشهاد بتبادل القبل." "تمرر أنفاسها على وجهي وتتساءل:" هل أسلافكم يتبادلون القُبَل في الشوارع والطرقات.. أيتباهون أمام الأشهاد في الحدائق وفي الحفلات؟".. اضحك؛ فتتراجع. تضمني بذراعيها وتتركني أعانقها والثم عنقها أشمُّ عطر شانيل تحت شحمة أذنها.. تفهم أن الأقوام تختلف بعاداتها فلم تسأل مثل هذه الأسئلة في لقاءاتنا اللاحقة.

نهار بودابست عمل وحركة لا تنقطع وصحف تتوزع مع الفجر فتنهال عليها الأيادي لتستلمها والعيون بشرهٍ تتابع أخبار ما يجري في العالم. أخبار أحداث دراماتيكية

متسـارعة تحصـل في ألمانيـا القريبـة. البلجيـك يتوجسـون؛ الشيك يتابعون بحذر؛ بولونيا خائفة.. معاهدة فرساي التي أجبرت عليها ألمانيا بشروط قاهرة وفرضت تعويضات ثقيلة واقتطعت منها مقاطعة ثمينة تعود.. أوراقها تلوح طائرة في سماء المجهول الذي يُنبئ بشر وشرر يتطايران من عيني هتلر.

العراق بعيد عني.. لا أخبار عنه إلا نتفاً.

استرعى انتباهي يوماً في زاوية اجتماعية نقلاً عن صحيفة البلاد البغدادية خبر تأسيس نادي للمعلمات في بغداد. كان الخبر بمثابة احتفاء الصحيفة في انبثاق مثل هكذا نادٍ في بلد تهيمن عليه الذكورة وتحاط المرأة بأسوار عاتية وجدران صماء.. يحتفي الخبر بوزارة الداخلية التي أجازت افتتاح هذا النادي في كانون ثاني ١٩٣٢ (إذاً أصبحت لنا وزارة داخلية في مملكة يقودها ملك يجاهر بالحضارة وهيكلية وزارية كالتي في الأنظمة المتحضرة! هذا يثير العجب والفرحة). أسهمت الهيئة الإدارية كما احتفت بها الصحيفة في العمل على تثقيف المعلمة وإعلاء مستواها العلمي مثلما أسهمت في الجوانب الإنسانية بتهيئة فرص لعمل للمتعلمات ومساعدة المحتاجات والتنسيق مع المفاصل الصحية في معالجة المريضات من النساء.. سعدتُ كثيراً إذ وجدتُها مملكة تنحو باتجاه بناء وطن يتمتع

بسيادة غير منتَهَكة عكس ما كان ذليلاً خنوعاً إبان هيمنة العثمانيين.

****

في هذا الخضم من التظاهر بالفخامة والسمو حدث ما لم يخطر على البال.. حدث أن طُرِق الباب يوماً.. من يكون؟ وماذا يريد؟!.. رجلان يرتديان معطفين صوفيين رماديين. ابتسما وهما يسألاني إن كان اسمي هاتف غازي. عندما قلت نعم طلبا مصاحبتي لمكتب أمن العاصمة في شأن يتعلق باستيضاحات ومن ثم العودة لمهجعي.

الاستيضاحات قادت إلى التوقيف؛ ثم جرَّت إلى السجن.

غرفتي التي عدت إليها بعد شهر وجدتها في حالة من الفوضى. لا فراش على السرير، لا ملابس على مسامير التعليق، لا مشط على قاعدة المرآة. أواني المطبخ وجوارير خزن البهارات والحبوب الجافة مرمية أرضاً، والحبوب مبعثرة. لا كتاب في مكانه.. مذكرات فيكتور اختفت. كتب احتوت خطوط عبد اللّه على بعض من اسطرها لا اثر لها.

كان السجن طيلة فترة الشهر رديئاً ولم يكن لدي ما اشتري به علبة سجائر. غريباً كنتُ؛ والغربة تقتص منك مقداراً من الكرامة أينما رحلت أو حللت.. الغربة تسحب من

رصيد اعتداد الإنسان بنفسه ما يفاقم لديه، في بعض الأوقات، الشعور بالدونية؛ وهو ما حاولتُ تجاوزه في الأشهر السابقة والانتفاض عليه بما ارتديتُ، وتظاهرتُ، وسلكت.. عندما تكون غريباً في وطن غير وطنك تغدو مصدرَ شكٍّ ومنبتَ ريبة.

تعيدني الذكرى إلى العامل الذي تركه فيكتور وسيمور يعيش في غرفة تخصه وجعلاني ثالثاً معهم.. أذكره يأتي مخموراً يقول عنه سيمور ضاحكاً: "طالما عاد يترنح فهذا يعني خسر الكثير. وحين يخسر الكثير يدخل البار العتيق فيشرب حد الثمالة. ومن هناك يُعرِّج على القره كوي فيضاجع مومساً حتى لو لم يتملّ ملامحها. المهم انه يفرغ سائله المنوي كتعويض عن تفريغ خيبته في الخسارة".. يعود لغرفته فلا يأبه لمنضدته التي ترك فوقها بقايا غدائه؛ صحن فيه بقايا مرق فاصوليا ورائحة عطنة تبعثها شرائح بصل مبعثرة، وعلى الأرض فُتات خبز من وجبات سابقة. كان فيكتور يبغضه لأنه يبذر أجر جهده في القمار تاركاً زوجته وأولاده الأربعة يتضورون جوعاً... كلام سيمور لا شائبة عليه ولا هو تجنّى بحق الرجل. فكم من مرةٍ جاءت زوجته تصحب طفلة خرقاء الثوب تبكي أمام رب العمل تشكو وتطالبه بالضغط عليه كي يعتني بهم ولو بربع ما يتقاضى...

كنت أرى مثل هكذا نماذج فأتألم؛ يتمزق القلب للإنسانية المعذَبة وأرثي البشر البؤساء.

****

في السجن وبعدما آب السجناء للرقاد وتجاوزت الساعة منتصف الليل حدث ما يشبه نزول الوحي يدعوني لاستنهاض طاقتي الإبداعية. أمسكت القلم ورحتُ اكتب ما يشبه القصة ذات البطل الواحد.. بطل جعلته يعيش في معتقل روسي ويُسام العذاب لأنه لا يؤمن بالاشتراكية ويعتبرها زائفة بينما يُمجِّد ملك المملكة النمساوية الهنغارية ويعزو سبب استقرار البلاد لحنكته وعراقة أصوله (التي سمعتها مدوية في البار من فم ذلك الرجل المتزن) ويدعو لأن يعيش الإنسان حراً في كل مكان. واستطاع من خلال وجوده في السجن الروسي التأثير بشرطيين من حرس السجن وجعلهما يرفضان الفكر الاشتراكي ويعتبرانها مصدر تهديم للنظم العريقة.... بعد خمسة أيام رأيت القصة تنشر في صدر صفحة ثقافية صحيفة (**MAGYAR HIRLAP**) ورئيس التحرير يشيد بموضوعها وفكرتها؛ ويدعو القراء للاطلاع عليها لاستلهام أفكارها ومضامينها.. وكنت قد ذيلت القصة برموز خاصة... وفي اليوم التالي وبدفع معنوي من المادة المنشورة كتبت قصةً أخرى عن فتاةٍ تعيش وسط عائلة

تعشق ستالين متأثرة بفكره الماركسي اللينيني. استطاعت هذه الفتاة بحكم حدسها جمع ما في الكتب من وثائق تدين ستالين شخصياً وتظهره شاذاً ترعرع في كنف واقع وضيع.. تؤثّر الفتاة بعائلتها فتجعلهم يغيّرون رأيهم، فيصبح لديهم كابوساً؛ وصورته تصبح كصورة شيطان يتعوذون من النظر إليه ويتجنبون ذكره على ألسنتهم... ومرة أخرى قُدِّمَت القصةُ في صدر الصفحة الثقافية. ومرة أخرى أيضاً راح رئيس التحرير يشيد ويفاخر بان لديهم في المملكة كتّاباً يكتبون بهذا الخيال الخصب المفعم بالإقناع والتصديق.

وأمام عدد من القصص التي نشرتُ أفشيت لأحد عناصر شرطة السجن بأن هذه القصص تعود لي. عرضتُ عليه تقاسم مكافأة ستسلمها الجريدة له يوم يراجعها. حين اقتنع الرجل بعد خوف وتردد كتبتُ رسالةً إلى رئيس التحرير وذيَّلتها برموزٍ وضعتها في ذيل القصص كدليل رمزي لي.

في اليوم التالي قصد الشرطي الصحيفة. هناك عرضَ الرسالة فرحَّب به رئيس التحرير مدعيّاً أنه صديق حسبما اتفقنا.

في مركز البوليس، ومن عمق الرواق ابتسم لي الشرطي

من بعيد راسماً علامة الاوكي بإبهامه المتوجه إلى أعلى، وحرك بإبهامه وسبابته حركة عَدِّ الأوراق النقدية فهمتُ منها استلامه المكافأة.

جاء بها بعد حين فتقاسمناها.

وفي يوم ضقت ذرعاً بالسجن ومللت الحياة الثقيلة وجدتني أتقدم بطلب لمقابلة مدير السجن لأمر مهم.

بعد يومين كنت أقف وسط نظرات استهانة المدير لما سأقول من كلام عادة ما يفتعله السجناء ثم يظهر انه كلام تافه الغرض منه نيل عطف أو تخفيف مهام. لكن حين اعلمته بما نشرت وما لاقت منشوراتي من اهتمام عدل المدير من جلسته وراء مكتبه وطالعني بتركيز. استفسر وتساءل. اقتنع ثم تراجع. طلب ما يثبت؛ وأمرني بالبرهان القاطع بعيداً عن المراوغات. لم افشِ بما جرى بيني وبين السجّان ولم اخبره عن مراجعاته كأحد البراهين، لكني أفردت أمامه الأوراق وأطلعته على الرمز الذي أضعه في خاتمة القصة التي ابعثها، ويمكن له التأكد من رئاسة تحرير الجريدة.

لم يمر يومان إلا ووجدتني أقف أمام مدير السجن وقد تغيرت سحنة وجهه مظهراً ترحاباً وطالباً قهوة ساخنة ارتشفها عند منضدته. قال إنّ للسجون أفضالاً على كثير

مـن السـجناء المحترمـين البعيـدين عـن المشـاكل وافتعـال المصـادمات. ذكرنـي كنمـوذج، قـائلاً انـه قـرأ القصـص وأعجـب بهـا، وزاد مـن إعجابـه مـا قالـه رئيس التحريـر عبـر الهاتف مشيداً بـه كمـدير مركـز يتيح للسـجناء الحريـة في ممارسـة هواياتهم وتنميـة مـواهبهم.. وكخاتمـة للزهـو الـذي طفحـت بـه عينـاه قـال تكفَّلتُـك بنفسـي، وهـذا مـا لم أفعلـه طوال خدمتي الثلاثين عاماً في البوليس.. مـن الآن أنـت مطلق السـراح.. سيصحبك الشـرطي إلى جنـاح سـكناهم. ستغتسـل هنـاك وتجـد بدلـة جديـدة اشـتريتها لـك مـن أشـهر معـارض الكماليـات، وحقيبـة فيهـا ملابـس وعطـور وأوراق وأقـلام.. غـداً سـأنتظر مـن رئيس الصـحيفة يخبرنـي بالتحاقـك للعمـل محرراً فيها.

العمل.. لابد من العمل.

الأيـام منحـتني عـبر فيكتـور وعشـقه للطبيعـة أن أعمـل وأعمل. علمتني ان عليَّ مواجهة الصعاب بقلب مليء بالعزيمة على التجاوز. تنامت في رأسي فكرة التكيف للظروف مهما تجسـمت قسـوتها وتناسـلت لإذلالـي، أن أجعـلَ مـن بيـتِ القوقعة، على صغره، فضاءً اشبع في جزئياته نزوعي وأعمل كما لو كنت في فضاء الأرض بمـا اتسـعت وحـوت والسـماء بما امتدت وجمعت.. التكيّف يعني خلق عالم جديد تتمكن

في تفاصيله من السيطرة على ما يواجهك وتتعامل بروية مع من تلاقي.. فيكتور قال الكثير لحظات سبق موته. كلماته جعلتها هداية لي فقد كان الصديق الصدوق. "اقرأ والت وتمَن بكل عواطفك وتعلم ما في كتابه الكثير." تلك آخر كلماته.. من يومها ووالت ويتمَن في كل موقف أحسبه مهولاً وأقف إزاءه مرتبكاً يضع كفيه خلف ظهري ويدفعني للمواجهة. يهمس من خلفي ما يجعلني امسك صولجان التماسك، ومن ثم المواجهة. فاستطعت مع الوقت النظر الى ما حولي بثقة؛ وجعلت مما ألاقي تجاربَ أتعامل معها فأدونها في الذاكرة باعتبارها انتصاراتي في الحياة. صرت أينما جلست وكانت أمامي فسحةٌ من التأمل أقرأ من شعر وتمَن ❖ فأجده يعبر عما أشعر به، ويتقمص قول ما أريد:

إنني من كل قوم وجنس / من كل طائفة ودين / مزارع – ميكانيكي – فنان – سيد – بحار – كويكري سجين – عشيق – مشاكس – محام – طبيب - قسيس / إنني أقاوم كل ما هو أفضل من تنوعي وإنساني / أتنفس الهواء، لكني أخلّف الكثير منه / إني لستُ مقيداً، فأنا في موضعي.

(٧)

الكبرياء والعلى

في ليلة خميس هادئة وشعور انني سأستغرق نائماً صبيحة الجمعة بأكملها شرعت اقرأ ما كتبه هاتف غازي عن وجوده في برلين. كان ذلك سنة ١٩٣٦ والعالم منشغل بهتلر وخطاباته الحماسية.. خطابات الفوهرر تؤجج في الروح الالمانية نزعة الكبرياء والأنفة، وتشحذ الشعب الالماني على البناء والتميّز، باعثةً فيه الزهو وساحقةً الاصوات المُحذِّرة من جنون هذا المهووس بالخطابات، المجبول على العنف. خطابات تبطِّن غاياتٍ ومقاصدَ لن تقود الا الى الدمار والخراب. وقد سرت حماسة الفوهرر الى واقعنا العراقي فصار الكثير من الشباب يقلدونه في شكل شواربه وتصفيفة شعره الى الجانب؛ بل وتعدى ذلك الى سياسيينا تعرضهم صورهم بالشارب الشبيه بشارب هتلر، وبالشعر المائل على اليسار تماماً كما هو شعر هتلر.

ماذا كتب هاتف غازي؟ وماذا مر به خلال تلك الحقبة المجنونة.. كم بقي هناك، متى غادر؟..

برلين ١٩٣٦

الوصول إلى ألمانيا

اندفعنا من أبواب العربات العشر للقطار الذي انطلق من فيينا فجراً فامتلأ بنا الرصيف كان الهواء يتلاطم بارداً والسماء متكدرة بغيوم رصاصية تنذر بمطر ثقيل.. أعداد مستقبلين غفيرة تركوا مصاطب كانوا يجلسون عليها ووقفوا يطالعون بأعين باحثة أهلاً لهم أو ضيوفاً فيما عدد من المنتظرين يرفعون أوراقاً عريضة أو قطع مقوى بيضاء كتبت عليها أسماء لأشخاص يلتقونهم لأول مرة... هناك عائلاتٌ بأكملها مصحوبةً بأطفال يترقبون مع ذويهم ويطالعون الوجوه فيندفع بعضهم يعانقون من رفع يداً إشارة الاكتشاف. الحقائب ترفع وتوضع في عربات مرصوفة تدفع باليد؛ يساهم الأطفال والفتية في المهمة فرحين ومستمتعين بما يفعلون.

كنت أتأمل لقاء من يعينني على معرفة برلين. أنْ اسكن في مكان لائق؛ أنْ احصل على عمل يجعلني أتواصل مع الحياة؛ أنْ أبدأ رحلة البحث عن دوردانة.

وكان لذلك السيد بريمة: رجل خمسيني طويل القامة يرتدي معطفاً صوفياً أزرق داكن وياقة من الفرو الناعم، يعتمر قبعة سوداء ركن حقيبته الصغيرة في الرف العلوي

المخصص للحقائب وجلس قبالتي. صرف الوقت من فيينا حتى برلين يطالع رواية الجبل السحري لتوماس مان الحائز قبل أعوام على جائزة نوبل للآداب. لم يرفع عينيه عن الكتاب إلا قليلاً. وقد ابتسم حين رفع نظره مرةً فوجدني أتأمله. ابتسامته شجعتني على طرح سؤال أين أجد فندقاً. قلت هذه زيارتي الأولى إلى برلين. أوضح الرجل بدماثةٍ غلاء الفنادق وفضل توجهي إلى موتيل متواضع، فسعر منامه يعادل ربع أجرة ارخص فندق. وقال: ما أن تُخلِّف محطة القطارات "كلنبيرغ بلاس" حتى تجد في الشوارع الفرعية الضيقة عدد من الموتيلات تستطيع استئجار غرفة لحين تعرفك على المدينة؛ ولو أني أفضل السكن في الأطراف فالسعر هناك زهيد.

على هدي نصيحة السيد بريمة نزلت في موتيل، وكانت الفنادق كما وصفها غالية الثمن فعلاً.

وجدتُ ألمانيا معسكر تدريب. بلاد منشغلة بالتحولات والتغييرات، بالحماسة والهياج.. شعارات تملأ الشوارع.. أناشيد حماسية تمجّد ألمانيا. الصحافة الورقية والمجلات لا تخلو من صورة لهتلر ومقولة مقتطعة من خطاب له. بلاد انتهت توّاً من دورة الألعاب الاولمبية محتفظة بحفاوة جميلة لرياضة عالمية كانت فيها الوفود تستعرض وجودها في

الملعب الرئيسي وهتلر الحاضر يفتتح الألعاب، وسماء الملعب يضج بمئات الحَمام المصفِّق بأجنحته توافقاً مع رتل رياضيات ألمانيات مشاركات بجاكيتاتهن السوداء وتنوراتهنّ وأحذيتهن البيضاء، وشعلة يحملها عدّاء ألماني دخل مهرولاً برشاقة وسط هتاف وتصفيق جموع هائلة ملأت المدرجات وراح يعتلي السلم الأبيض العريض وصولاً إلى الحوض المنتظر شعلة اولمبيا لينطلق الكرنفال الشبابي في زهو ألماني خالص.. والآن بلاد تعدُّ العدّة لانعطافة تاريخية سترتج لها الأرض وتطلق صرخات غوثها. استنفار لا يعرف التباطؤ؛ يركل التهاون ويزدري التلكؤ. شعار (المدافع بدل الزُّبد) محفور على لافتات كبيرة تنتشر في الشوارع، وتحملها الجدران: جدران "الغستابو" و"الشبيبة الهتلرية"، ومقر قوات الصاعقة "**AS**"، و"القوات الخاصة **SS**"، و"مجلس ثقافة الرايخ". وهناك الشعار (شعبٌ واحد، إمبراطورية واحدة، قائد واحد **Ein volk, ein Reik, ein Fuhrer**) مخطوط على بيرق كبير يرفرف فتتلقفه العيون وتردده الألسن.. وهناك هتلر الذي عيّنه المشير فون هندنبيرغ مستشاراً يعمل جولات في المدن الكبيرة. يلقي خطابات حماسية، يمجِّد ألمانيا ويدعوها للوحدة. يحثّها على معاقبة من سرق أرضها واقتطعها بمعاهدة فرساي ١٩١٩ المُهينة

بعد هزيمة تضافرت في إحداثها فرنسا ومن وراءها بلدان أوربية عديدة؛ يتوعدهم بالسم الزؤام وقيء ما سرقوه واكلوه من خيرات أرضه المنهوبة.. معاهدة جائرة قصد منها إذلال ألمانيا واستنزافها وإبقائها خانعة إلى الأبد.. ترتفع الرايات حاملة الصليب المعقوف (سواستيكا) فوق الأبنية والمعسكرات، تتدلى من أعمدة تدفعها أسطح البنايات العالية ويحملها الشباب، تبرز على صدور جاكيتات النساء وقمصان كوستماتهن مُحاكةً بخيوط لامعة بينما تلاميذ المدارس الابتدائية يرددون مع طلبة المرحلة الثانوية: "علمُنا يرفرف أمامنا / علمنا عصرٌ جديد/ علمنا أقوى من الموت".. بروبوغاندا موظفة بعناية وتحشيد إعلامي لا مثيل له في العالم.. جدران الرايخ يعاد طلاؤها فتلتهب ليلاً حين تسلط عليها الأضواء. زهو في ميادين العمل؛ زهو في الشوارع؛ زهو في الحدائق؛ زهو في الجمعيات النسائية؛ زهو في المعسكرات؛ زهو في المسيرات التي تخترق الشوارع على إيقاع الطبول وضربات الصنوج؛ زهو في الحافلات وفي بطون عربات الترام؛ زهو حين يلتقي احدهم الآخر؛ زهو حين يتبادل العشاق القبلات؛ زهو حين ينهض الأصدقاء والصديقات يؤدون رقصات التانغو، والروك آند رول حينما وحيثما يتحقق لقاء جماعي في مناسبة وطنية أو اجتماعية..

هتلر يقسِّم المجتمعات وفق هرم إنساني جعل الألماني بعنصره الآري على قمته. برلين تعيش الرفل الجميل في فضاء طبيعة تغدق عليها الإشراق والألق. حركة الترام بعرباته المُسيَّرة كهربائياً تجوب الطرقات تغطي أحياء العاصمة برمتها. شبكة قطارات أرضية وعائمة على جسور تربط المدن الألمانية؛ تشمل البطاح والسهول، تخترق الجبال بأنفاق لا حصر لها؛ تختصر زمن التنقل؛ فألمانيا تعيش البناء الحثيث.. البرليني لا يشعر بضيق التنقل. البرليني يحث الحركة ساعة العمل ويمشي بتمهِّلٍ وقتَ الراحة والفراغ والمتعة. الفضول يأخذ كلَّ غريبٍ يحلّ ضيفاً أو مسافراً يجعل من هذه العاصمة الاستثنائية نقطة مرور يقضي فيها أياماً ويغادرها. سيدهش للأبنية المطلية حديثاً، للحدائق الغناء تستقبل فرح الناس وتزيد من مقدار تألقهم، للقصور والكاتدرائيات وهي تحكي ارستقراطية مجتمع عاش الحقب القروسطية وتعالى يدخل القرن العشرين بكبرياء لافت. ستبهره النُّصُبُ والتماثيل المنتشرة في الساحات الرئيسية والمساحات الفارغة والأماكن القريبة من الأسواق وعلى جدران المباني. عندها سيخرج بيقين أنَّ برلين متحف كبير بصالاته وأروقته وممراته وحتى سقوفه، وأنَّ الألمانَ فنانون، نحاتون وتشكيليون؛ ذواقون وخلاقون.. غيرُ دقيق مَن وصفهم

بالشعب الذي لا يبتسم؛ فهم يبتسمون ويضحكون حتى تظهر نواجذهم من فرط انشراحهم وابتهاجهم.. صيف عذب يغدق شمساً ساخنة افتقدتها برلين. المقاهي في الهواء الطلق هوية للألق. يتحلّق البرلينيون بازدهاء حول الطاولات ببزاتهم الحضرية. النساء المصاحبات للرجال يبتسمن للهواء. عطر يتفشى من طيات ملابسهن ومن المزهريات المتوزعة حولهم بهندسة تقدِّم بهرجة واضحة وذوق رفيع.. فوق الرؤوس يرتفع دخان التبغ المعطر من السيجار الكوبي المستورد ينفثه الرجال المزدهون أو من قلب سيجارة سحبته امرأة شقراء بعمر الثلاثين ونفثته من شفتين مدورتين مطليتين بروج دموي وهي تصغي لصديقة تتدلى على خديها خصلتان سوداوان وتتشاجر إزهار حدائقية في قميصها الفضفاض. الصديقة التي تركن حقيبة اليد الجلدية ذات السلسلة الفضية جوار حقيبة صديقتها على الكرسي المجاور تحدّثها عمّا خططت مع وزوجها النقيب في سلاح المدفعية لحفلة عيد الميلاد مبكراً؛ ثم ترفع كفّها وترفرف بأصابع شمعية تحية زميلة لها في العمل قدمت مع خطيب اقترنت به قبل أيام وجلسا عند طاولة بعيدة نوعاً ما.. أقداح البيرة الدرافت تتوهج على الطاولات.. عجوز فوق رأسها قبعة محاكة يدوياً ترتشف بشفتين مزمومتين السائل الذهبي فيما يكرع زوجها الذي

يعتمر قبعة صفراء فاتحة اللون يطوقها شريط بني فيفرغ نصف القدح. تلك اللحظة يمر جوق كشافة من الفتيان بقمصان كاكية نصف كم وربطات عنق تتدلى على الصدور وبنطلونات قهوية فوق الركب وجواريب وأحذية باللون القهوي؛ يمر الجوق على إيقاع واحد من إيعاز يطلقه القائد بحزم وبثقة عالية. تحني العجوز رأسها تبغي إسماع زوجها فيحني هو الآخر رأسه ليسمع الكلام بأكمله؛ تقول: يا لسعادة هذا الجيل والأجيال القادمة؛ كان جيلنا جيلَ عذاب وحروب ومهانة.".. يتبادلان خفض الرؤوس، فيهمس هو في أذنها بحذر: مَن يدري ما تخفيه الأيام القادمة؟ من يضمن استمرار هذه السعادة؟"

****

قضيت في الموتيل سبعة أيام كانت كافية للاطلاع بجولات بلا هوادة عرفتني على برلين بترفها الظاهر من خلال بهرجة صنعتها الدولة الجديدة مثلما أرتني معاناة الكثير من أهلها وهم يقطنون أحياءً تعيسة تعيش الحياة المتردية. شارع بودابست يمثل المكان السوبر لوسائل الترفيه بمقاهيه وسينماته ومسارحه ومعارض النوفوتيه والموديلات الأحدث للأزياء. الإنارة الخاطفة والإضاءة الصارخة والبهرجة الباعثة على الإدهاش يحتويها الشارع. وجدت

السبعة أيام كافية لأتوجه بعدها للوصول إلى دوردانة. قلبي يخفق بلوعة بمجرد ذكرها الآن؛ بمجرد استعادة عينيها وهما تغدقان عليَّ الحنان والتعاطف. استعيد حركة أصابعها وهي تمررها بين طيات شعري وتدفع برأسي بين نهديها. مازحتها مرّةً فقلت: "أنت تعاملينني كزبون يراد له الوقوع في شباك إغرائك لأصبح بعدها عبداً لغرورك.". ضحكت وقد أحدثت مسحة صرامة تمثلت بقطب الحاجبين ولم الشفتين. صرامة مضمخة بالعتاب: "أتحسب نفسك زبوناً بعدما وضعت وجهك بين نهدي؟! أتعرف أن الزبائن يمارسون شهوتهم ويخرجون وأنا تحتهم حجارة صلدة؟! أتعلم أنني إذ أضمك إلى صدري اشعر بإنسانيتي معك؟ أراك صادقاً وأستشعرك نقياً.".

ما زلتُ احتفظ بعنوان دوردانة وإن غدت الكلمات موحلة وبهت لون الحبر وصارت بعض الحروف غير واضحة؛ لكن مَن سيتفرس في الكلمات لابد سيعرف العنوان. وعلى هدي الكلمات والإشارات الصادرة ممن استعطفه سأصل إلى دوردانة.. عشرة أعوام ويزيد مرت مذ شاهدتها لآخر مرة؟.. أتراها تعرفني الآن إن وقفت إزاءها أم ستستفتي ذاكرتها وتبحث عني من بين وجوه مرّت عليها؟ هل ستتذكر هاتف غازي، وقد غادرت اسطنبول دون توديعه

بمصافحة أو بطبع قبلة على خده أو حتى بتلويحة كفِّ الفراق وأمل في لقاء يوماً ما؟.

مساءً عرضتُ القصاصة على مديرة الموتيل.

طالعتني المرأةُ وهي تفرشها على سطحِ العارضة الخشبية أمامها لكأنها تقول ما أقدمها وما أصعب قراءتها. قرَّبت مصباح تيبل لامب على يمينها فجعلته يصب الضوء على الكلمات من أجل التأكد ومعرفة العنوان دون لبس. همهمت بشيءٍ من محاولة استذكار المكان؛ ثم رفعت عينيها: " العنوان يشير إلى هاكيشي هوفي. هذي ضاحية على أطراف برلين. فيها مصانعٌ ومجمعاتٌ سكانية. المكان بالتحديد سيوصلك إليه مسارُ القطار رقم ٨. ستذهب لمحطةِ القطارات لكنبيرغ بلاس الرئيسية. تنطلق من هناك. عشرون دقيقة وستجد ضالتك.

توقفت عن الكلام. سحبت جاروراً جانبيّاً مستخرجة ورقة وقلم. كتبت العنوان بخطها. هذا أكثر وضوحاً من هذه الورقة خاصتك. يمكنك في الصباح التوجّه إليه. عندما تصل آخر محطة اعرض هذه الورقة على أي شخص وسيوصلك للعنوان بذاته.. هل تعرف أين تكون محطة القطارات الرئيسية؟

سحبتُ الأنفاس ارتياحاً. العنوان إذاً صحيح.

تلك الليلة نمت على حلم جميل كان فيه اللقاء بدوردانة ساحراً.. نقرت عدة نقرات على الباب الخشبي للبيت المشيّد بهيئة كوخ. سمعت من الداخل جلبة أصوات أطفال يهرعون لفتح الباب. نساء من البيوت المجاورة وقفن عند الأبواب أو دفعن بأجسامهن من النوافذ يطالعنني بشعور ذهبية وعيون زرق. بعضهن لوحنَّ تحيةً وبعضهن همسن وفي قلوبهن العجب. اسمع همسهن: هذا حبيب دوردانة أيام كانت في اسطنبول؛ يا لوفائه!. واحدة قالت: عشرة أعوام صرفها دون أن ينساها؛ هكذا الإخلاص. وأخرى جاءني صوتها كالموسيقى: وهي ما زالت تحبه وتبكي لذكراه رغم أنها متزوجة ولديها ثلاثة أولاد.. فتحت الباب وهبَّ الثلاثة. من ورائهم بزغ قمر دوردانة خارجة من المطبخ، تشدُّ مريلةً على صدرها. كانت بجمال حورية وحنان أم، ودفء زوجة. كانت بجمال اليوم الذي فارقتني به. لم تغير الأعوام ملامحها. إنها متأنقة كما هي يوم افترقنا. فقط هذه الهالة النورانية التي تحيط برأسها وتظهرها ملاكاً. رحبت بي وأشبعتني بالقبل. ضمتني لصدرها. فتحت أزرار قميصها ودست وجهي بين نهديها، تماماً كما فعلت تلك المرّة في المبغى: لم تغفل عن بالي يوماً ولم انم إلا وطيفك معي. ومن حبي لك سميت هذا ولدي البكر هاتف. أشارت إليه: تعال

يا هـاتف سـلم علـى هـاتف.. كـان هـاتف بملامـح تشـبهني، وكان شغوفاً لدرجـة ارتمـى علـيَّ فاحتضـنني وراح يتشـمّمني كجروٍ صغير.. كنت سأسمي أولادي الثلاثة هاتف لو كـان بالإمكان ذلك.. آآه دوردانة! كم أنتِ وفية!!آآآآآآآآآ!

في الصباح ركبتُ القطار. ضواحي برلين جميلة لا سيما والشمس تلك الساعة كانت مشرقةً تهرب منها غيوم بيضـاء شكّلتها ساعات الفجر الباردة.. الروابي على البعد خضـراء زاهيـة تجاورهـا غابـات داكنـة؛ أشـجارها مُعمِّـرة، ضـخمة الجذوع، كثيفة الأوراق، يُسمع من داخلها أصواتُ المناشير تطيح بالشجر كمواد أولية تحتاجها المصانع الحديثة. مررنـا بعـدد مـن المصـانع الصـغيرة؛ وتوقـف القطـار في أكثـر مـن محطة نزل إليها أو صعد منها الكثير من الركاب. حتى إذا انقضت العشـرون دقيقـة توقّـف القطـار في آخـر موقـفٍ لـه ؛ ووجدتني اهبط مع جموع الركاب وأسـأل احدهم عارضـاً الورقــة بخــط مــديرة النــزل.. ابتســامة مقرونــة بإشــارات توضيحية هي من قرَّبت المكان ودلتني على العنوان بوضوح.

في شـقة متواضـعة في طـابق ثـاني لبنايـة بأربعـة طوابـق، وبعـدما قطعـت ممـراً يشـح فيـه الضـوء يقـودني صـبي في العاشـرة مـن العمـر أهديتـه بالونـة اشـتريتها بنـاء علـى هـدي مديرة النزل ونصيحتها بمنحها هدية لمَن يندفع من الصبية

لإيصالي للهدف.

وقفت أمام الباب الذي ألصقت على زاويته اليمنى صورة هتلر وزاويته اليسرى العلم النازي. نقرت على الباب فانفرج عن بنت فوق العشرة أعوام. تكلَّمت بما لم افهمه. وسمعت صوتاً نسائياً يأتي من جهة المطبخ. قال قلبي هي ذي دوردانة؛ وقالت العينان: مستحيل!.. لم تكن بملامح دوردانة، ولا أي ملمح واحد يعيد لي صورتها المرسومة في ذاكرتي. طالعتني المرأة بعينين مستغربتين؛ ثم استبدلتهما بابتسامة من يستعد للإجابة على استفهام.. عرضت عليها الورقة. قرأتها كلمة فكلمة، وحرفاً فحرفاً.. وسمعتها تسألني متكدرة: هل انت قريب لها. قلت "انا صديق احمل لها من تركيا سلاماً من أهلها.".. قالت باندهاش "ألم يصلهم خبر موتها لحد الآن؟.. هذا غريب." قلت: ماذا.. أماتت دودانة؟".. "منذ ربعة أعوام. قضت عليها الإشعاعات المنبعثة من هذه المصانع التي مررت من بينها. " توقفت قليلاً لتعلن عن أسفها للخبر الذي حسبته مؤلماً عليّ، ثم قالت: إنها هناك.. في تلك المقبرة ذات الشواهد العالية.. ستجد قبرَها على يمينك وأنت تدخل.".. توقفت مرة أخرى، ثم واصلت: "تألمَ زوجُها وبكى كثيراً. لم يخلِّف منها فقد كان عقيماً. تزوَّج قبلها ألمانية ولم ينجب فانفصلا. ثم ذهب لتركيا مرة وعاد ومعه دوردانة.. المسكينة

اكتشفته عقيماً بعد فوات الأوان فلم تنفصل عنه. وبقيت معه تداري حبّه الجنوني لها. ".. قطبت حاجبيها وأظهرت بؤساً: "المسكين لم يكن محظوظاً في حياته مع انه رجل مخلص كان يعمل لدى أبي في مطعم مستأجَر بأحد المصانع. بعد موتها بأشهر لم يحتمل البقاء في الشقة. كان يسمع صراخها من ألمِ مرضٍ خبيث تفشى في رأسها. ظل يسمعه حتى بعد رحيلها ثم أعلن لأبي استحالةَ بقائِه في العمل معه وقضاء الايام في برلين، فسافر إلى هامبورغ يعمل هناك بعيداً.

عندما خرجت مدوَّماً بالذهول، مطعوناً بالقلب وتركت البناية خلفي تراءت على البعد مقبرة، هي حديقة مكللة بالأشجار ومحاطة بسور.

وقفت بمواجهة الباب الحديدي المشبك والموصد.. كنت موشكاً على دفعه والدخول عندما ظهر من خلف شاهدة قبر مرمرية عالية لمتوفى حديثاً رجل يرتدي بدلة عمل خضراء داكنة بقطعتين وعلى رأسه طاقية صوفية. توجَّه نحوي مُسرعاً ففتح الباب بمفتاح أخرجه من جيبه. ألقيت التحية واستفهمت منه فعرفته العامل المنوط به ادارة المقبرة والمنسق مع مكاتب دفن الموتى لاختيار المكان وتهيئة عمال حفر القبور. أوضحت له أن قريبة لي توفت قبل أربعة أعوام..

قال اعرفها دوردانة التركية. تعال معي.

سلكنا ممشى ضيقاً مزروعاً بالحصى الناعم. امشي خلفه وقد اشتعل القلب حرقةً على إيقاع طقطقةِ الحصى تفجر الألم يهاجم أمعائي كلما قطعنا متراً.. ماتت دوردانة فضمَّتها الأرض ولم احظ إلا بكلمات قليلة احتوتها الشاهدة الرخامية التي تشير لاسمها الكامل دوردانة محمود نوزات؛ حياتها انحصرت بين التاريخين ١٩٠١- ١٩٣٢. كان قبرها محاطاً بالحشائش. وعلى المستطيل الرخامي الذي يتواري تحته جسدها باقةُ وردٍ يابسة حالَ لون الشريط الحاضن لها ، لابد أن زوجها جاء لزيارتها قبل فترة من الزمن ووضع الباقة ثم عاد إلى هامبورغ. ودَّعها واعتذر لعدم زيارتها مجدداً.

عندما التفتُّ لم أجد العامل الذي دلَّني. كنت وحيداً.. لا! أنا ودوردانة فقط.. لذا وجدتها فرصة لذرف الدموع متذكِّراً تلك المبادرة الإنسانية يوم حكيتُ لها بعدما تجامعنا عن ظروفي وأسباب دخولي إلى تركيا وفهِمت أنني أعيش الفاقة فنهضت تفتح الجارور من الكومدي لتخرج حافظة نقودها وتعطيني ورقتين من فئة الخمسين ليرة أعانتني في تصريف أيامي القادمة وجعلتني بعيداً عن أوقات حاربني الجوع خلالها بكل قسوة وتشفي.

تلك الليلة عدتُ مجروحاً؛ فقد ظلت دوردانة طيلة الأعوام المنصرمة هدفي للوصول إلى هذه البلاد. وكان أملي في لقائها لا ينقطع. فالأمل مفردة تتناسل في نفوس المتفائلين؛ والتفاؤل مشكاة تضيء درب العتمة إدراكاً للهدف. بموت الأمل تغدو الحياة هباءً

صارت حياتي بعد دوردانة باهتة.. محبطاً أعيش، وبلا هدف.

****

كان عليَّ العمل لسد الرمق على الأقل؛ لعدم تكرار ضياعي في اسطنبول أيام عشت مشرداً.. كان عليَّ تسديد فاتورة النزل والعيش على هدي أعوام من الغربة أثبتت لي مقولة "المال في الغربة وطن" صحيحة. وعندما تصفحت أوراق ذاكرتي لم أجد ما يعينني على مواجهة الأيام. فيكتور يهمس لي متسائلاً: هل احتفظت بأوراق العشب. فأستدير بنظري إلى المنضدة لأثبت له أن ويتمَن يصاحبني أنّى انتقلت، وأنَّ أوراق العشب لمّا تزل يانعةً؛ أمر عليها كلّما ظمئت وعنَّت عليَّ رغبة القراءة. أخبر فيكتور رداً على همسه فأعلمه بتعاظم قراءاتي وامتلاكي قدرة الإبداع الأدبي. اخبره أيضاً بما وهبني عبد الله من ثراءٍ معرفي بكتب كثيرة تركها لي فبتُّ اكتب القصة والنقد.

ولكن؛ عزيزي فيكتور، ما فائدة الكتابة وأنا أدخل يدي إلى جيبي فلا أجد غير ماركات معدودة؟ ما فائدة الكتابة وأنا أمرُّ من أمام المطاعم الفاخرة وتريني المناضد خلف الزجاج الصحون الملأى بالمشويات والمقليات والأطعمة المدخَّنة ذات الطعم الخاص، ما الفائدة ولعابي يسيل حين أقف أمام حوانيت بيع الحلويات والمعجنات واعجز عن الدخول وشراء قطعة كنافة بالقشطة أو مكعب بقلاوة محشو بالجوز أو كرات العجين المحمَّصة والمغموسة بالعسل الطبيعي؟.. ما الفائدة وغداً تعلمني مديرةُ النزل بانتهاءِ فترةِ سكني وتطالبني بالدفعِ أو الرحيل. إنَّ الحزنَ ليلفني، وضيق العيش يُطبق بدائرته على مدار عيشي اليومي؟

أمس، ما قبل منتصف الليل وقفت عند النافذة لدقائق، أتطلع لحركة البرلينيين عائدين من مشاوير شربٍ في بار، أو وصلةِ رقصٍ، أو مستمتعين بفيلمٍ جديد تعرضه سينما مارمورهاوس **marmorhaus**، بطلته مارلين ديتريش تغني فيه أغنيةَ الملاك الأزرق، اسمع بعض المارّة السكارى يدندنون بها بجذلٍ.. على البعد لمحتُ نافذةَ شقَّةٍ مضاءة كُرِسَت لتكون معملَ خياطةٍ يصنع الطاقيات الصوفية للجنود. كان العمالُ منهمكين بعملهم، غير مبالين بما يحدث في الشارع. ألمح في نافذةِ غرفةٍ لشقة فوق المعمل ستارة

تزاح فتظهر شابة بملابس؛ ذراعاها عاريان، تمسك مشطاً. تفتح النافذة. تدفع برأسها إلى الخارج تطالع الشارع على يمينها وشمالها، ثم تشرع بتمشيط شعرِها المتدرِّج الذي ليس بحاجةٍ للتمشيط أصلاً.. قليلاً وتعود تغلق النافذة وتعيد الستارة، وبلحظات يغرق ما وراء النافذة في الظلام.

أعطتني مديرة الموتيل ثلاثة أيام من اجل الفوز بفرصة عمل وتسديد الدَّين بعد الرجاء والاسترحام والوعد بالتسديد دون نقصان حال الإمساك بخيط العمل.. لكن الأيام الثلاثة انقضت.

تواجهني المرأة بحاجبين يرتفعان لجبهتها، غالقة منافذ منح فرصة أخرى؛ مرددة: "ماذا أفعل؟.. منحتك ما لا استطيع تجاوزه."

أجد نفسي تائهاً التجئ إلى الحدائق واهرب من عيون البوليس المرتاب دوماً من الغرباء والمتشردين فيلقي القبض عليهم وينفذ فقرات القانون الداعية إلى حبس المتشردين في ردهات الازدراء. أما الغرباء فيزجون في عربة قطار تلقي بهم ما وراء الحدود.

أيام وأسابيع من التشرد والتخفي. أشهر من البحث عن الجهات الإنسانية التي تقدم وجبات الغذاء للفقراء مجاناً.. اذهب إلى دوردانة؛ أشكو لها فقري وضياعي واخبرها إنني

شـرعت التجـئ إلى المقـبرة لأن العامـل المسـؤول يعـرفني مـذ زرتك أول مرة وكـررت الزيـارات في مـا بعـد. فصـار يـدعوني لمشاركته وجبة الغداء أو العشاء، وفي أكثر الأحيان يسـمح لـي، علـى مسـؤوليته، بقضـاء الليـل في جنـاح إدارة المقـبرة. يحذرني من عدم الرد على الهاتف حين يرن، ولا الخـروج مـن الجناح حين يسمع من ينده من خارج المقبرة.

أرتِّق جـوعي برغيـف خبـزٍ يقيني طائلـةَ الخـواء والإنهـاك. أفكـر بمـا يجعلني أواصل الحيـاة. صـرتُ اصـرف أول الليـل جالسـاً علـى مصـاطب الطريـق اسـتفيد مـن مصـابيح أعمـدة الرصيف لأقـرأ والـت ويتمَن. أتغنّـى بالحيـاة في داخلـي، وفي الخـارج أطلـق قصـائد البـؤس. في داخلـي أمجـد الطبيعـة وفي الخارج العن سـاعات الزمهرير تتربصـني، متخيـلاً حـرَّ صيف بغداد ومتمنياً حضور دقائق ساخنة أمررها على جسدي. هـل كـان قـراراً خاطئـاً تركـي اليونـان ورعايـة السـيد كـراون ورغبته ببقائي إلى جانبه؟ هل أخطأتُ عندما تركتُ صوفيا وتجاوزتُ رغبةَ كريستينا في البقـاء وتكفّلها بمسـاندتي في حالـة حصـول أيِّ طـارئٍ يتسبَّب في إيذائي؟ هـل كـان خطـأً أنـي تركـتُ بودابسـت؟ هـل تجـاوزتُ الرغبـة في اتخـاذ فيينـا مدينةً للعيش والتواصل في مملكـة تجمع القوميـات المتعـددة وليس ثمَّة ما يُغيظ أو يتسبب بالانزعاج، مملكة عشت فيهـا

فاحببتها وفضَّلْتُ البقاءَ عندها لولا قرار اللحاق بدوردانة ؟ هل كانت ارتحالاتي وتنقلاتي وهدفي في اللحاق بدوردانة خطأً، وحريّ بي العودة لبغداد وقد نهض فيها حكم ملكي حقَّقَ الاستقرارَ وأبعدَ هيمنةَ الأتراكِ وعسفهم؟.. أتراه مسيّرٌ الإنسان في خطاه ولا خيار له حين يتعلق الأمر بمصيره؟

عام الاجتياح

أمس؛ اندلعت الحرب واشتعلت.. الجيش الألماني يندفع شرقاً. العام ١٩٣٩ عامُ الاجتياح والانتصارات. أدولف هتلر الرجل الأول في العالم. يحتل العناوينَ الرئيسية في الصحف، والألسن تردد اسمَه في عموم الأصقاع.. لا احد مع تهافت الأيام لم يسمع أو يقرأ أخبار سقوط المدن من كل الاتجاهات. شرقاً وغرباً؛ شمالاً وجنوباً تحت زحف الماكنة البشرية والآلية الألمانية.. هتلر يقضم النمسا ويبتلعها مثل كعكة مغموسة بالعسل.. هتلر يضرب بولونيا وجنوده يقتحمون عاصمتها وارسو.. هتلر يغزو جيكوسلفاكيا ويعلنها جزءً استراتيجياً مهماً لألمانيا.. غرباً يضم بلجيكا؛ ثم بعد أكثر من عام يمرر اصابعَه على خارطة الدنمارك والنرويج وهولندا فتصبح مائدةً عامرة لقواته.

علم ألمانيا بشعار الصليب المعقوف يرتفع على قمم

البنايات وعلى المراكز الحكومية لمدن الأوطان المتهاوية ورموزها، على أبنية وارسو البولندية وفوق برلمان كييف العاصمة الأوكرانية، على أعلى بناية في أثينا، على ستالينغراد، على أطراف موسكو.. خفقَ فوقَ هامة برج إيفل، وجزر جيرسي وشينيل وجيرنزي في القنال الانكليزي.. هتلر يعلن: "أعداؤنا ديدان صغيرة".. هتلر يخطط لرفع العلم الألماني فوق قصر برمنغهام بعدما يدخل لندن رافلاً على صدرها كما دخل باريس واجبر القيادة الفرنسية على توقيع هزيمتها بنفس عربة القطار التي وقعت فيها ألمانيا هزيمتها في العام ١٩١٩. هتلر يضع رأسه على وسادة الريش السوان؛ ينام ليلته نوماً رغِداً فقد وقَّع قبل ساعتين وثيقة مشتركة تعلن فيها اليابان دخولَها الحرب إلى جانبه.. هتلر من قصره الريفي في بيرس شكادل الذي يطلق عليه وكر الذئب يداعب كلبه ويهمس في أذنه: سيدخل الجندي الألماني موسكو ويأتي بستالين أسيراً. سأهدُّ صرحَ الشيوعية في مهدِها؛ سأجعل من موسكو حطاماً.. هتلر يطالع خارطة لندن ويجدها مليئةً بالثقوب من ضربات دبوسه وهو يردد: "أريده يعلن الاستسلام بلسانه"؛ ويقصد تشرشل.

الغربة تطبق عليكَ في واحدةٍ من صفحات قوانينها القاسية، لعلَّ احدَها هو أن تتحلى بالصبر وأنت تواجه

مصائر متنوعة ومتفاوتة تسحقك بعضها وتمقتك بعضها؛ وبعض آخر تكبر فيك قدرتك على التحمل شعوراً من يقين ان لا طريق تسلكه للنجاة إلا بالصبر والتحمل.... ألتجئ لشحاذ أفريقي وقد شاهدته عديد المرات يمر أمامي مرتجفاً فينعطف في زقاق ضيق جداً بين بنايتين. يصل إلى نهايته فيتكوم على جداره ثم يمد قدميه إلى أمام. تبعته تلك الليلة وقد تجاوز الليل منتصفه، سرت خلفه حين انعطف..اقتربت منه. وصل لنهاية الزقاق وجلس كعادته على الأرض وقد مرر قدميه على شبكة حديدية وسحب الأنفاس ارتياحاً. دنوت منه فحدَّق بي وتفرَّس بخشية.. وحين شاهدني أشبهه في لوعته وضياعه، وحين ترجمَ ارتجافي واقتراب تجمّدي همس بكلمات لم افهمها. إشارته هي التي افهمتني. أرادني أن احاكيه في جلسته وأقلده في وضعه. أجلس متكئاً على الجدار ورجليّ على الشبكة.. ثمة سخونة ترتفع من أسفل التشابك الحديدي. سخونة سرت إلى أصابع قدميَّ ثم تسللت إلى ساقي وباقي جسدي. كنت أريد استفهامه عن مصدر الدفء مثلما استفهم عن الرائحة الكريهة التي تصعد إلينا من أسفلها؛ غير أن شدة التعب وتأثير البرد المتكلس في عظامي دفعاني للنسيان والنوم متدفئاً بدفء لم أشهده منذ تركت النزل.

في الصباح اكتشفت أنني وحيد فقد نهضَ الإفريقي وتوارى وتركني نائما لا يرغب بإيقاظي. اكتشفت سرَّ الشبكة وما تحتها.. كانت فوهة مجاري ثقيلة تحدث فيها تفاعلات تنتج حرارة.. هي مصدر الدفء إذاً!

في الليلة التالية سبقته إلى المكان ونمت. وحين استيقظت بتأثير مثانتي الممتلئة، لم أبذل جهداً. فقط فككت أزرار البنطلون وبلت على الشبكة. وما أن انتهيت وبدأت بشد الأزرار حتى انطلقت من فم الأفريقي الذي ظننته نائماً قهقهة، وقال كلاماً يوحي انه هو الذي علمني التبول بهذه الطريقة، ويمكنني حتى التغوط إن اقتضت الحاجة.

مع مرور الأيام وعندما شرع البرد يشتد ويسقط الثلج وجدت الأفريقي يأتي بصحف قديمة وألواح كراتين فيجعلهما غطاءً يقيه من البَرَد الساقط بهدوء. ولشفقته عليَّ كان يدفع لي بما يجده فائضاً عليه.

صرنا نتبادل الأحاديث سعياً لاستهلاك الوقت؛ فالليل طويل والبرد لا يرحم. موسيقى تعزفها أنامل على كيتار تأتي من شرفة يجلس فيها شاب هو العازف وعلى مقربة منه شابة تلف جسدها ببطانية، وكلما انتهت من عزف مقطوعةٍ نهضت من كرسيها وقبلته على خده أو امتصت شفتيه هدية لما يجيد من عزف وما يثير فيها من عاطفة.

حدثني عن وصوله إلى ألمانيا قادماً من تشاد على ظهر زورق انطلق بهم من ميناء مراكش بعدما صرف ثلاثة أسابيع في رحلة قطع خلالها الصحراء الكبرى على ظهور جمال لصحراويين من الطوارق كانوا أوفياء معه مع أنه حُذِّر من قطّاع طرق يقتلون بلا رحمة مَن يلتقونه قاطعاً البراري والتلال الرملية ثم ينهبون ما يملك من مال ومتاع على قلته.

إحدى الليالي ومضت في رأسي ما كتبت في بودابست من قصص إبان وجودي بالسجن وكيف نالت اهتمام القراء وجعلت رئيس تحرير الصحيفة الناشرة لقصصي يحتفي بي.

تلك الليلة أمسكت القلم مستعيناً بضوء شحيح يأتي من نافذة الشاب عازف الكيتار، ورحت اكتب. كتبتُ قصةً عن شاب روسي يقرأ كثيراً ومن شدة قراءاته ونباهته وذكائه يكتشف انه يرزح تحت حكم نظام شيوعي يستعبد الإنسان ويحط من كرامته ويقارن نظامه هذا مع النظام النازي الذي يستنهض الهمم ويعلي قيمة الإنسان ويعمل على تفجير طاقته لبناء لوطن القوي المتين. يرى هذا الشاب في النهاية أن المستقبل للنازية ولقائدها العبقري هتلر... ومثلما فعلتُ يوم كتبت قصةً وأنا سجين في بودابست ووضعت لها رمزاً في نهايتها وضعتُ رمزاً خاصاً أيضاً في

نهاية القصة هذه.. في الصباح الباكر طويت ما كتبت واشتريت ظرفاً ألصقت عليه طابع ودونت عنوان صحيفة دير ستورمر **DER STüRMER** "المُهاجم" الناطقة بلسان قوات العاصفة **S.A**... غب ثلاثة أيام لا غير ابتهجت لمشاهدة القصة في أعلى الصفحة الثقافية مترجمة إلى الالمانية وتعليق من المحرر الثقافي يدعو قرائه لمطالعة مضمونها التعبوي المتميز متمنياً، بل حاثّاً الكتاب الألمان جميعاً على الحذو حذوي والكتابة بهكذا روح معنوية متوهجة. والمفاجأة المدهشة والمثيرة حدثت عندما سمعت عبر الإذاعة الألمانية قصة أخرى كتبتُها وبعثتها إلى صحيفة " المراقب الشعبي **VOLKISHER BEOBACHTER** " ونشرت غب يومين. سمعتها تُقرأ بلسان " ديتريش ايخارت " رئيس تحرير الصحيفة نفسه، وقد صاحب الإلقاء مقطع حماسي من سمفونية بيتهوفن الثامنة.. صحيفة المراقب الشعبي هي ذات الصحيفة التي نشرت فيها كارمن الريبورتاج الصحفي الذي قرأه اغلب الهنغاريين عن ألمانيا التي تعيش النهوض والارتقاء الحضاري.

بعد خمسة أيام كتبت لصحيفة "دير ستورمر" قصة أخرى بلسان مراسل حربي يصاحب القوات الألمانية في دخولها إلى بولونيا؛ فيكتب ما يشاهده من روح إنسانية لدى

الجندي الألماني وهو يأسر عدوه فيروي عطش الأسير من مائه الثمين وسط المعارك ويطعمه من أرزاقه الجافة الخاصة ثم يحمله على ظهره نحو الوحدة الطبية متجاوزاً المفاجآت التي تأتي بها مدافع العدو؛ وعلى الجانب الثاني تظهر القصة مشاهدة المراسل الحربي لوحشية الجندي الروسي وهو يجهز على الأسير الألماني الجريح بحربة بندقيته بغل وحقد وكراهية... ومرة أخرى نشرت القصة سريعاً مشفوعةً بتعليق أطول من رئيس التحرير هذه المرة يشيد فيها بقلمي ويدعوني لزيارة مقر الجريدة... وفي المرة الثالثة التي نشرت قصة أخرى تكررت دعوة رئيس التحرير برجاء أكثر حرارة للزيارة. عندها قررت التوجه لمقر الجريدة.

هناك وقفتُ عند الباب الرئيس أُعلِم موظفة الاستعلامات باسمي وأدعوها لنقله إلى رئيس التحرير.

كانت البشاشةُ على وجهِ الرجل تلغي نظرة الامتعاض للمظهر الرث الذي حضرتُ به.. أكبرَ بيَ الكتابةَ بحماسةٍ روحيةٍ واسلوبٍ متميز، ووجدتني أحظى باهتمام مُضاعَف وشعور أنهم يرون بي واسطة نقل أفكارهم النازية لمجتمعي ووطني العراق.. فالفكرة كالحمّى تسري في الجسد الذي يستقبل قدومها.

تلقيت ذلك اليوم مكافأة مجزية أنفقتُ نصفَها على رفيقي

الأفريقـي بـأنْ أخذتـه إلى أقـرب بـائع ملابـس حيـث ارتـدينا مـا يعجبُنا ، وما يلغي صورةً الفقر مـن هياكلِنـا المثيرة للشـفقة ، ثـم دخلنـا أقـرب بـار؛ جلسـنا عنـد القـاطع الخشـبي اللامـع علـى كراسـيَ بأرجـل مرتفعـة.. طلبنـا قـارورة شمبانيـا ومكسّـرات. أنهيناها بأكملها وزدنا عليها عبوتين صغيرتين في خضـم إيقـاع مـارش عسـكري وأصـوات رخيمـة هـادرة لمجموعـة الحشـد الـوطني الألمـاني مصـحوبة بـنفير الأبـواق وضـربات الـدفوف والصنوج. وصديقي الأفريقـي كلّمـا رحل بعيـداً بأفكـارهِ عـاد يطـالعني بـذهولٍ، غـير مصـدّقٍ أننـا نجلـس في بـار برجـوازي نمـارس الإنسـانية بتفاصيلها ونحتسـي الحضـارة دهاقـاً ، نـائين عن تلك الفوهة التي تـدفع إلى خياشـيمنا الـدفقات تلـو الـدفقات من الـروائح الكريهة المقززة فنتجنبها بـدروع التحمـل وشـعور أن للصبر مفتاح سيوارب يوماً أبواب الفرج.

استـأجرتُ، بنـاء علـى اقـتراح رئـيس تحريـر الصـحيفة ، غرفـةً في شـقّة صـغيرة تسـكنها عجـوزٌ بعمـر السـبعين متقاعـدة ، يقـودني إليهـا زقـاق خلفـي يقـع وراء بودابسـت شتراسـه.. الشـقة واحـدة مـن بنايـة بخمسـة طوابـق. في كـل طـابق أربـع شـقق. علـى جانـب مـن المبنـى متنـزه ترتفـع فيـه أشـجار السـرو؛ تخترقـه دروب ضـيقة معبـدة بالإسـفلت فيمـا تنتشـر المصـاطب الخشـبية بـاللون الأخضـر؛ وعـادة مـا ينشـغل

أكثرها بعشّاق وأغلبهم بالبدلات العسكرية والحرب يتلاصقون وقد دخلوا في عناق وتقبيل، وهناك يمكن رؤية شيوخ يستأنسون لوجودهم وسط سكون جميل بعضهم يتحاور وبعض يفضل عزلة يحبِّبها بينما صبيةٌ يتقافزون وراء كرة قدم يتقاذفونها وقد علا صراخهم وهتافهم لبعضهم في تناول الكرة أو طلب رميها إليهم.

كانت تلك أيام الاستقرار والشعور بالإنسانية الحقّة. تجد نفسك في كينونة آمنة فتنتشي متلفعاً بمعطف الطمأنينة. تنام وتستيقظ بلا خشية ولا هاجس اقتراب شرطي يركلك بقدمه أو يلكزك بعصا. تعدّ طعامَك بيدك وتجلس على منضدة كإنسان تتمتع بحق العيش بكرامة. تفتح كتاباً اشتريته أو صحيفة تتجسد قراءتها كممارسة يومية لا تستطيع إهمالها. تنهض صباحاً فترتشف فنجان قهوة ثم تفتح باب غرفتك وتخرج من شقتك وتهبط السلالم فتصرف ما يقرب من النصف ساعة رياضة صباحية في الحديقة المجاورة قبل أن تعود لتأخذ دوشاً وتنطلق صوب مقر الجريدة.. هناك تجلس وراء منضدة تكومت عليها الصحف الصادرة في العاصمة لأيام ماضية. تقرأ فيها؛ ومنها تتوالد المواضيع التي ستكتبها. مواضيع بعضها إشارة، وبعض رد. بعضُها يُقتَبس منها، وبعض تُناهض بصورة قطعية... وما بعد العمل تجوال حيث ساعات العصر التي

تحبب لديَّ الجلوس في مقهى، أراقب المارة المسرعين نحو بيوتهم بعد ساعات عمل طويلة فألمانيا في زمنِ بناءٍ واستنهاضِ همم.. استذكر هتلر قبل سبعة أعوام أطلق سراحَه من السجن بعد سنة من محكومية قضت أن يصرف خمسة أعوام وراء القضبان. استذكره ينطلق في فضاء السياسة كالشهاب، وقد عزم على خوض المعترك السياسي حتى النهاية. في خطاباته المتتالية ترتفع نبرة ألمانيا الموحَّدة بالقوة؛ ألمانيا التي لا تضاهيها قوة أخرى كما يجب.

أسير على هدي ارتياح من عمل وان كان ثقيلاً لكنَّه من صُلب الاهتمام. فلم يعُد لي غير الكتابة رغبة، وليس من وسيلة لإثبات الذات سوى تدوين مكنوناتك وتوجهاتك على الورق لتكون منشوراً يُقرأ باهتمام.

أتوسط لصديقي الأفريقي الذي سمى نفسه "كارل" بدلَ "واثينغو" على عمل فيسافر إلى ميونخ حاملاً رسالة عُيّنَ بعد قراءتها مترجِماً لشركة سفريات بين ميونخ وهامبورغ.. يرتدي بزَّةً رسمية خضراء داكنة وقبّعة تحمل مقدمتها اسم الشركة. يعلن مع بدء حركة الباص سيلاً من كلمات حفظها عن ظهر قلب يوضح للسائحين والمسافرين الذين يتقنون اللغة الفرنسية أسماء مواقع يمر بها الباص ويعطي شرحاً مفصلاً عن التسميات والتواريخ والأثر التاريخي

لاماكن يهبطون إليها... تلقَّيت منه عدد من الرسائل يشكرني بها على حسن صنيعي ويعلمني انه يعيش الاستقرار؛ ويتبجح بين زملاء العمل حين يقرأ عمودي الصحفي او ريبورتاجات أنجزها وانشرها، وكلها تسلط الضوء وبإبهار على المنجز الألماني والنهوض الفائق لشعب يحيا بالعمل وصولاً الى المجد.

زارني مرةً حين جاء إلى برلين. ومثلما أدخلته باراً بعد الأزمة ردَّ الدين فأدخلني مَطعماً. يومها ساورني الحرج لانَّ الواجب يستدعيني القيام بالضيافة بدلا منه الا انَّ الحاحه بدد هذا الحرج وابعده.. أكلنا وشربنا واستمتعنا وصرفنا ليلة تخللها دخول السينما ومشاهدة فيلم العندليب السويدي (**Die schwedische Nachtigall**) ببطلته إيلزه فيرنر **llse Werner**. كانت فيه الملاك الذي جعلته خمرة احتسيناها بلا حساب يجلس بيننا. تُسمعنا شعراً حفظته من جوته، ورددته مطوِّحة برأسها وهي متكئة على شجرة جوز أو تتلوى باعثة بنظراتها نحو قمر يتوارى خلف زحمة غيوم ثم يتجلَّى فضياً لامعاً كطفلٍ ضاحك يظهر من خلف ستارةٍ في لعبةِ هناءٍ يلعبها مع أمّه السعيدة بأدائه وضحكته.

****

كل صباح تنفتح أبواب الشقق فتكشف عن رجال مهندمين يهبطون السلم نحو مراكز أعمالهم. نساء يرفلن بالملابس الأنيقة ويتعطَّرن بأشهى العطور، يصففن الشعر بتسريحات متنوعة. بعضهن يمسكن مظلات ملمومة يتوقعن هطول المطر في أية لحظة؛ تتدلى من سواعدهن حقائب يد اغلبها تفشي حداثة المودة.. كل صباح اسمع وقع ضربات كعب عالٍ بتناغم فانهض لأقف عند النافذة وأتطلع إلى من تترك باب البناية الرئيسي فأشاهد أولغا هاينرش بالبزة العسكرية ؛ قميص كاكي وتنورة بنيّة تشبهها طاقية الرأس، تخطو بإيقاع واثق تحدثه ضربات حذائها الجلدي الشبيه بأحذية الرجال لكن بكعب عالٍ. أفهم أنها تتوجَّه إلى عملها كأمينة لمكتبة الرايخ مثلما فهمت تولّيها مهمة إيصال كتاب أو مجلدٍ يطلبه الفوهرر لقراءته.

كل صباح كنت أخطو قاطعاً بودابست شتراسة متجهاً لمقر الجريدة.. أبصر الفتية يلعبون في الحديقة التي أمر بجوارها في رواحي ومجيئي. اسمع صيحاتهم تتعالى وهم يتأرجحون أو يتزحلقون أو يتنافسون للوصول لذروة السلالم المتداخلة والملتوية مضمخين بالبراءة والجذل. اخترق بوابة براندنبيرغ بممراتها الخمسة. بوابة تنتصب في فضاء مفتوح يجعلها كقطعة رخام تتوهج تحت ضوء الشمس. أركز

نظـري علـى صـورة كـبيرة تتعـدى ارتفاعهـا السـبعة أمتـار يحتويها جدار أحد الأبنيـة كـان فيهـا الفـوهـرر هتلـر بسـيارة الاسـتعراض المكشـوفة يجتـاز البوابـة ـ في طريقـه لافتتـاح الدورة الأولمبية. كـان واقفـاً يحيـي المـواطنين المصـطفين علـى الجانبين بتحيته المعهودة مخلفـاً وراءه العلـم الألمـاني القرمـزي اللون بصليبه المعقوف والعلم الاولمبي الأبيض بدوائره الخمس الملونة وهما يتدليان من أعلى البوابة.

عنـدما عـدت للشـقة الـتي اسـكنها فتحـت البـاب شـابة بيضـاء بشـعر اسـود تقـرب مـن الـثلاثين. قالـت العجـوز أنهـا ابنتها الوحيدة جاءت على أعتاب سن اليأس.

كانـت الفتـاة متزوجـة مـن رجـل لعـوب يلاحقهـا بعيـنين شبقتين وهـي تتحرك داخل الشـقة. لا يأبـه لوجـودي؛ وكـثيراً مـا اسمـع فحيحـه ـ في الغرفـة المجـاورة وهـو يجامعهـا ، واسمـع همسها تدعوه لتخفيض صوته. فيطلق صوت اللامبـالاة مـن بين فحيحه: لا عليك هذا العربي لا وجود لـه عنـدنا. انـه رقـم سـيرميه الفـوهـرر ـ في الأفـران مـع اليهـود والغجـر يـوم يغضـب ويعلو جنونه.

صار لي عمود يومي صباحي ـ في صحيفة الهجـوم آنجريـف ANGRIFF؛ تلـك الـتي يشـرف عليهـا جوزيـف غـوبلز وزيـر الدعايـة. وفي يـوم جـاءتني قصاصـة ورق مـن الـوزير يطلـب

مساهمتي بكتابة عمود آخر للطبعة المسائية لنفس الصحيفة. فجَّر هذا انطباعي بتأثر الفوهرر بما اكتبه في عمودي للطبعة الصباحية.

كانت الصحف تتجنب نشر ما يُراد الكتابة عن أدباء لهم صيتهم وشهرتهم وتأثيرهم على الثقافة الألمانية والإنسانية. فهمت أنَّ ثمة منعًا صارماً لكتبهم وحجبَ تداولها. لم اقرأ عن هاينرش مان، ولا آن سيغر، ولا استيفان زفايج، ولا جورج لوكاش، ولا سيجمند فرويد، ولا آرنست فيشر، ولا برتولد بريخت، ولا توماس مان، ولا تيودور أدرنو، وأوسكار ماريا غراف، وآلفريد دوبلن، وكارول توسكماير. ولا أنسى صديقي جوزيف روت. ولا أنسى محرقة الكتب التي تناولتها الصحف الهنغارية يوم كنت في بودابست. فعالية حمقاء دعا اليها هتلر وقادها باستهتارٍ مفرط غوبلز في العام ١٩٣٣، فأُحرِقت تلالٌ من الكتب وتطايرت لهباً جبال من الصحف والدوريات. كان من بين مؤلفيها آينشتاين وماركس وفرويد وأريش ماريا ريمارك وتوماس مان وشقيقه هاينرش مان وجاكوب فاسرمان؛ ومعهم عشرات الأسماء المؤثرة والفاعلة في الثقافة الألمانية والأوربية. محرقة لا مثيل لها في الجنون الانساني.

****

أخبارُ العراق في الصحف الألمانية كانت شحيحة؛ بل تكاد تكون منقطعة لا وجود لها لولا بعض منها في هذه الصحيفة أو تلك التي تدين الحكم الملكي عندنا، إذ تعتبره السلطات الألمانية تابعاً للإنكليز.. أذكر أنَّ صحيفة (الأخبار) البغدادية نشرت خبر انتحار مدير الشرطة العراقية العام هاشم العلوي مساء ١٠ تموز ١٩٣٩. انتحار خمَّنته السلطات الألمانية اغتيالاً سياسياً مُدبَّراً لامتلاكه أسرار مقتل الملك غازي المُبهَم في أوائل نيسان من نفس العام وخشيةَ البوح بها يوماً ما يشكِّل ادانة لحكومة لندن وسفارتها المريبة في بغداد وسفيرها بازل نيوتن المجاهر بإعلان عدائه السافر للألمان.

ولقد تعالت نبرة استنكار الصحف الألمانية للحكومة العراقية في نشرات الأخبار والتعليقات التي تخص العلاقة الألمانية – العراقية عندما اتخذت تلك الحكومة خطوة اعتبرتها الصحف جميعاً سلوكاً خطيراً لا يمكن قبوله تمثَّل بقطع العلاقات الثنائية والقاء القبض على بعض الرعايا الالمان وتسليمهم للإنكليز باعتبارهم اسرى حرب، وتكلَّلَ سلوكُها الخطير بتسفير الرعايا الألمان في الخامس من أيلول سبتمبر بعد خمسة أشهر من مقتل الملك غازي. هذا يعني ارتماء نوري السعيد رئيس الوزراء بقراره هذا في أحضان

الانكليز دون مراعاة لاستقلال بلده العراق.

لأيام متتالية استمرت الصحف ولأيام متتالية تدين قرار الحكومة العراقية وتحسبه تحيزاً للإنكليز على حساب علاقات الشعبين الألماني والعراقي، مذكِّرةً بنوايا الانكليز باحتضان اليهود ووعدهم بوطن قومي يجمعهم.. تلك الملاحظة أثارت اهتمامي ووجدتها صحيحة لا تدخل من باب إثارة العرب وكسبهم للرايخ؛ فكتبت ثلاثة أعمدة صحفية لثلاثة ايام متتالية أنبّه الشعوب العربية من دهاء الانكليز وخداعهم مُعرّياً أنظمة لا ترى الحقائق في ضوء النهار، طامرة رؤوسها في رمال العمالة والنذالة.. أحذِّر من بازل نيوتن المخادع وضغوطاته الدائمة على دست الحكم في العراق ملكاً ومجلسَ وزراء.. ولما علمت القيادة الألمانية عبر أتباعها ومريديها العرب بتأثير أعمدتي على القراء العرب والعراقيين خصوصاً أصدرت تصريحاً إذاعته إذاعة برلين تعلن فيه تعاطفها مع العرب وتطلعاتهم للاستقلال ونيل الحرية؛ تشاركها في توجهها ايطاليا وباقي دول المحور.

ويوم وصل رشيد عالي الكيلاني برلين في أكتوبر/ تشرين ثاني ١٩٤١ وظهرت صورته في اغلب الصحف يمدُّ كفّاً يصافح الفوهرر، والفوهرر يحييه مُبتسماً ومُرحِباً بعبارات ودٍّ ورغبة في تواصل وجدتها فرصة لكتابة عمودٍ

خاص عنونته "الساسة العراقيون يطرقون أبواب الرايخ" نُشِر في الطبعة المسائية. تحدثت فيه عن عظمة الأمتين الألمانية والعربية، مشيراً لضرورة تعميق العلاقة بينهما وفتح آفاق واسعة لتواصل اقتصادي وعسكري وثقافي؛ هذا عندما يتخلَّص من الهيمنة البريطانية عبرَ استنهاض طاقات الشعب الذي ملَّ الاستعمار وبات يرفع انظارَه لاستقبالِ شمس الحرية.

علمتُ بعد أيام بترجمة العمود إلى العربية وقراءته من محطة الإذاعة العربية المنطلق بثها من العاصمة الالمانية في برنامج "هنا برلين حي العرب" يقدِّمه الإذاعي العراقي يونس بحري الذي التقيته في ما بعد واطَّلعتُ على جهده الإعلامي وشهرته التي وصلت حد احتفاء الفوهرر هتلر ووزير دعايته به... وللحق أقول كان البرنامجُ ناجحاً، استقطب العرب المتواجدين في ألمانيا والدول التي يصلها البث الإذاعي مُساهماً بشكل فاعل في إيصال ما تعرضه أعمدتي الصحفية إلى القرّاء العرب خصوصاً الذين يتابعون الألمان ويعشقون هتلر.

مع قراءة الاعمدة عبر الاذاعة صار يونس بحري يأتيني بعديد الرسائل الواردة من الدول العربية، يبدي فيها المستمعون إعجابهم بما اكتب ويشيدون بشجاعة أتحلّى بها

خصوصاً دعوتي للشعوب العربية إلى النهوض والثورة حذواً بألمانيا في قوتها العسكرية ومتانة اقتصادها؛ في صناعتها وزراعتها؛ في علمها وكبريائها وشموخها واعتداد مواطنيها بأنفسهم.

****

ألمانيا تعيش الانتصارات.. خطابات هتلر الحماسية تؤجِّج في النفوس حمّى الكبرياء والمباهاة.. بائعو الجرائد يعدون في كل اتجاه تتعالى حناجرُهم بالعناوين الرئيسية: عناوين الزهو والكبرياء، عناوين المجد والرَّفَل على خميلةِ الاعتداد، الحسِّ القومي المتفاقم والأمّة السامية، الوطن الخالي من الشواذ واللوطيين والعاهرات وذوي الاحتياجات الخاصة بعاهاتهم التي تشوّه صورةَ الألماني السوبر، واليهود منابت الكيد والخداع والمؤامرات السرية، والمعارضين السياسيين، والمجانين وحاملي الأمراض النفسية المتوارثة عن أسلاف حمقى.. تتبُّع الأخبار والحماسة من ديدن المواطن المشحون والمشحوذ بماكنة بروبَغاندا لا تعرف التلكؤ أو التباطؤ: صحف، سينما، إذاعة، خطابات متواصلة كسيول جارفة، مهرجانات رياضية واستعراضات تضمها الساحات والملاعب، مخيمات كشفية وغابات تفتح اذرعها للمعسكرات الشبابية.. تتبُّع سياسة محاور ابتدعها الفوهرر

ليناور على الجبهات، سياسة المعاهدات الثنائية وكسب الوقت من حياد القوى الفاعلة على الخارطة الدولية... القتلى في المعارك تستحيل أوسمةً على صدور ذويهم، وعائلاتهم تفخر أنَّ لها مقاتلاً أهدى دمَه لعزَّة ألمانيا وبقاء العِرق الجرماني دافقاً بالدماء النقية الخالصة من شوائب الأجناس الأخرى.. لكنَّ الأعداد حين تزايدت وتفاقمت وصارت البيانات العسكرية تخفي أو تقلّل من أعداد القتلى دبَّ في النفوس فايروس القلق وسرى يقين أنها حربٌ لن تنتهي إلا بفناء الشعب بأكمله. زادَ من هذا الشعورِ وصولُ الطائرات الانكليزية السوبرسبيد (وهي جيل جديد من طائرات أنتجتها المصانع الحربية السرية مقاتلة متطورة أقتضتها حاجة الحرب والرغبة في التدمير) إلى سماء برلين وضربها أهدافاً منتخبة أولا (لعلَّ أولَها برجُ رودنبيرغ الذي ثقبت هامته)، ثم عشوائية في ما بعد (شملت المجمعات السكنية والحدائق والمدارس والقاعات المغلقة الأولمبية والملاعب الرياضية المكشوفة).. صارت مشاهدة الجرحى الملفوفة رؤوسهم بالضمادات أو مجبسة أذرعهم وسيقانهم مشهداً يومياً متكرراً، وصارت رؤية المعوقين بالسيقان المقطوعة والأذرع المبتورة ترسم على الوجوه ملامح التأسي وتحفر في القلوب خناجرَ الغضب على الفوهرر المجنون بالعظمة،

المهووس بالانتصارات دون التفكير بالنتائج.

الحرب تدور رحاها. تطحن الآمال فتحيلها آلاماً.

وإذا كانت الأعوام الثلاثة من الحرب بعثت الألماني على الفخار فأن الأعوام التي تلتها تنبأت بما لا يقنع الألماني بالتقدم الحتمي على الأعداء والانتصار؛ فقد تبعثر المواطنون وتشتَّت وجودهم. تلقفتهم جبهات الحرب وقوداً لديمومتها؛ وكشفت المدن خلوّها من الشباب بينما النساء يُسقن إلى المصانع ليصرفن ساعات النهار بأكملها ومن الليل يأخذن الساعات للعمل المجهد. فالمحرقة على الجبهات الممتدة طولاً وعرضاً تحتاج ما يغذيها. هذيان جندي امتلأت خياشيمه بغازات الخردل صار يُسمع مُفجّراً اللوعة في قلوب الأمهات والآباء والزوجات، وتنطلق صرخات الأطفال المرعوبين الملاحقين بالكوابيس.. لونُ الدمِ استحالَ هويةً، والأنين سيمفونية عذاب أبعدت حفلات الكونشرتو وجعلت باخ وموزارت وفيفالدي يتراجعون؛ بل ينزوون خلف حُجب الآلام والجزع اليومي.. شارع بودابست المكتظ على الدوام نهاراً، والمعتاد على الصخب وحفلات الرقص والعري، المزدحم بالمعارض والسينمات والمقاهي، المحتفي بالحفلات وعرض الأفلام المتوالية من ساعات الليل الأولى حتى مقدم الفجر بات خجِلاً لا يؤمّه غير الجنود القادمين من جبهات الحرب

ليفرغوا جوعهم العاطفي، وليمسحوا سخام القنابل من قلوبهم، ولينسوا لون الدخان المتصاعد من المواضع والآليات المحترقة، وليفرغوا من أنوفهم رائحةَ شواء أجساد رفاقهم وهي تحترق أمام أعينهم وهم صاغرون لا قدرة لهم على فعل شيء، وليزيلوا من مسامعهم صرخاتِ الجرحى وأنينَ الموشكين على لفظ الأنفاس... أتذكّر كلمات جدّي في عدم تسليمي للعثمانيين لأكون خشبة في تنّور حروبهم المتتالية: قُتل أبوك في جبهة الحرب مع روسيا في القفقاس ولم يؤتى لنا رفاته ولا عرفنا سببَ مقتله؛ لذلك لن ادعهم يقودونك لتُقتل في جبهة حرب أخرى.. هُم ينعمون بالقصور والجواري والغلمان وأولادنا يبعثون للمحارق.. لن تذهب.

الزهو الألماني يتراجع.. يحل محله الوجع والقلق من الآتي.

وبينما يرفع هتلر ذراعه مستقيمةً إلى أمام ومرفوعة قليلاً للأعلى كتحيةٍ ألزم بها الشعب الألماني جميعاً انبرى ونستون تشرشل يرفع يده إلى أعلى راسماً بالسبّابة والوسطى حرف **V**. الحرف الأول من كلمة **VICTORY** ، كلمة النصر الانكليزية.. وتلك علامة أربكت هتلر. عظّمت في نفسه الحِقد وفاقمت الضغينة، فأمرَ بقصف لندن جوّاً وبلا رحمة.

الساعة الثالثة صباحاً.. تنطلق اسراب طائرات "ماسرشمت بف ١٠" الألمانية القاذفة من قواعدها في المدن المحاذية

لبريطانيا، وبعد ساعةٍ تَعلن إذاعة "بك بن" إطلاق صفارات الإنذار في عموم لندن، صوت مدوِّم ينذر بالرعب.. تُطفأ الأضواء ويسود الظلام الكالح جسد لندن برمته، يعقبه دوي متقطِّع وهائل. وميض ممزوج باهتزاز الأرض؛ وأنوار كأنها مفرقعات عيد الميلاد تنطلق نحو السماء.. المضادات الأرضية تؤدي واجبَها لكنَّ الدمار يغرز مخالبه في قلب المدينة، ويبصم على وثيقة التاريخ معلناً مروره وتدوينه للفعل البشري الأخرق وكراهية حذرت منها الأديان وطالبت بنزعها من النفس لما لها من مآل تدميري يصنع الآلام ويخلق الأسى.

كانت تلك الليلة الثاني والعشرين من اكتوبر ١٩٤٠ وأخواتها التي تلتها مرعبة لم تسلم أحياء المدينة من قنابلها. ليلة كانت فيها لويزة إدِث ستويل عند نافذة غرفتها تكتب قصيدة الرعب (وما يزال المطر يهطل). تُردّد كلماتها بأسى؛ تضيع بين توالي الانفجارات ولون النار وهي ترتفع مدمرة المنطقة الصناعية، ملتهمة حوض السفن التجارية، دافنة محطات المترو، محطمة دار سجلات لندن ومكتبتها الضخمة، كاسرة خاطر رياض الأطفال ومدارس التلاميذ. فغداً لن ينهضوا ليحملوا حقائبهم على ظهورهم وينطلقوا مفعمين بالفرح للقاء معلميهم، منشدين: " **Twinkle , twinkle little star / How I wonder: What you are**؟!".

قلبُ إدث ستويل كئيبٌ وهَلِع وحزين بينما قلمُها يبكي بمرارةٍ، ساكباً دموعه على قرطاس الألم:

ما يزال المطرُ يهطل

مُعتماً مثلَ روحِ البشر

مُظلماً مثلَ ضياعِنا

أعمى مثل ألفٍ وتسعمائة وأربعين مسماراً

دُقّت في الصليب.

****

أقف صبيحة يوم أحد غابت فيها الشمس واحتلت السماء سحبٌ رمادية مشوبة بسواد يترجرج عند رصيف توزعت على أرضيته بضائع نصف مستعملة للبيع. بعضها بمثابة تحف وأخرى أيقونات: صحون خزفية، شمعدانات نحاسية ورخامية، أحجار كريمة ولقى، مزهريات فخارية وأخرى كريستالية، زهور مجففة وراء زجاج وإطارات خشبية مزخرفة، رسومات مائية لطيور وأشجار، وأخرى لأشخاص بمثابة بورتريت. ذلك استدعى وقوفي طويلاً.. اشتريت صورتين بطول عشرة سنتمتر وعرض ثمانية، مزججتين ومؤطرتين بخشب الأبنوس. الصورتان ندها بي حالما توقفت عيناي عندهما. لا أدري لماذا خلت الأولى لجدي والثانية لأمي.. جدّي بشعرٍ منفوش وقد انتصبت فوق أرنبةِ انفِه نظارتان وهو منغمس في القراءة

بكتاب خلته القرآن الذي اعتاد ان يرتل منه سوراً بعد صلاة الفجر وبصوت جهوري فيه موسيقى محببة تبعث خشوعاً في قلب مستمعيه. أما الثانية فخلتها أمّي تركن نظارات القراءة على حافة كتاب ضخم مفتوح كما هي الصورة (مع أنها لا تعرف القراءة والكتابة) وقد رحلت نظراتُها في تأملٍ أو انشغلت في شدهِ مُشكلة أو همٍّ شرع يتسلل لروحها الطيب ليعكّره... تلك الصورتان اللتان تنقّلتا معي. نزلتا مدنا وعبرتا حدوداً في ما بعد أسندتهما فوق المنضدة بمواجهتي؛ بينهما كتاب أوراق العشب.

رسائل كتبها هاتف غازي

الصفحات ١٢٢- ١٢٣ - ١٢٤ من الكتاب احتوت رسائل بعثها إلى من عمل معهم أو التقى بهم وأثروا في نفسه يوماً:

الرسالة الأولى موجهة إلى رئيس تحرير الصحيفة التي عمل بها في صوفيا.

عزيزي السيد خواكين

لا أنسى ما تعلمته منك ومن حنكتك في إدارة شؤون الصحيفة وقيادتها صوب مصاف النجاح والعبارة التي اقتبستها من الفراعنة وجعلتها شعاراً للصحيفة تؤمن به في

مسيرتك الإعلامية (هنا غذاء النفوس وطب العقول). وحين سألتك عنها انطلقت بثقافتك المعهودة ونبرات صوتك المؤثر مؤكداً تدوين الفراعنة هذه الدعوة الضمنية على باب مكتبة جعلوها تحت رعاية آلهتهم.. لا أنسى تأكيدك على اعتبار الكلمة شمعة تضاء في وهدة الجهل وعتمته فتحيل حياة الإنسان ثراءً للعمل والبناء. لا انسى كلماتك لي وانت تزورني في معتقلي فترثي سلوكاً اتبعته. لم تقل انني خنتك بسلوكي الخارج عن لياقة المهنة. اردتَ ان اكتشفها بنفسي.. لا تؤاخذي سيدي خواكين.. كان صديقي فيكتور كلما اخطأت معه واعتذرت يبتسم ويردد قولَ نبيكم "من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر."..

احييك لأنك رأيت في الصحافة غذاء الروح وطب العقول.. لم أر تهافتاً على غذاء يشبع الروح كما هو تهافت الناس على الصحافة صباح كل يوم. لكأنها الفطور الصحي الابدي، ولم أشهد ما يطبب العقول وينقيها من الشوائب كما هي القراءة المتواصلة لكأنني اكتشف حقيقة لا تموت.

رسالة الى وتمَن

صديقي المصاحب لي أنّى سرت.. والت وتمَن.

ايها المجبول على طيب انساني يَقرَب من مصاف الالهة.. يا ظاهرتي العلمية ومعرفتي العطشى للقراءة.. يا طمأنينتي

حين اشرع بالقلق؛ ويا كلماتي حين تداهمني رغبة التعبير عما في القلب من لهفة وما يساور الروح من رغبة للهتاف.. شكراً لفيكتور الذي دلّني عليك.. هل تعرف فيكتور ايها العاشق للطبيعة والبسيط على هواك؟.. هل دخلت عليه وهو يبكي كلما تعمَّق في قراءتك وانتقل من قصيدةٍ لأخرى عَطِشاً جائعاً لا يرتوي إلا من فاكهة بستانك اليانع؟... لقد مات فيكتور يا وتمَن.. أنا حزين لأنه رحل مبكراً.. لماذا الاحبّة يرحلون سريعاً؟

رسالة إلى كريستينا

القديسة كريستينا

لا تستغربي أذ أصفك بهذا التوصيف؛ فما فيك لا يمكن اكتشافه إلا عند القديسات: ورع، وتواضع، وذكاء، وصبر، وحنكة، وحسن إدارة، وكبرياء، وشجاعة، وتفاني.

لابد ان أعلمك سيدتي كريستينا عن كل ما استقيته من شخصيتك الخرافية الفذَّة. لابد لي من القول أنني تعلمت منك الكثير: المرح والصبر والتأني في اتخاذ القرارات والحزم حين يكون في وقته ومكانه.. تعلمتُ من الأقدار حين ترميك بسهام تلو السهام وتتكسر النصال فوق النصال مسببة لك الجراح وتاركة إيّاك على شفا إحباط وانهيار لا يجب الاستسلام لها

وإنما إدراك أن للسهام عدداً ينتهي؛ وعندها يكون النهوض المفضي إلى الانتصار حتماً.. لقد رأيتكِ المنتصرة بعدما أسمعتني وسمعت فوقها من النزلاء الدائمين سيرة حياتك المفعمة بالتحدي والمواجهة ومن ثم التغلب لينتهي الأمر العيش واثقة كيِّسة بكرامة وكبرياء والتحول إلى رمز نيّر ليس في ديجور الليل البلغاري بل في وهدة الظلام الإنساني برمته فأنت من خصك شكسبير بقوله "المرأة كوكب يستنير به الرجل، ومن غيرها يبيت الرجل في الظلام.". واسمع أونوريه دي بلزاك يردد "المرأة مخلوق بين الملائكة والبشر"، وهو محق. فأنا أراك كما قال. ولو تجاوزتُ على ذاتي لجعلتك مع الجمع الأول.. ما زلت أعيش أيامك كما هي وأنت تحكينها على ديباجة مخيلتي وتحفرينها بأزميل رهافتك على صفحات ذاكرتي. أعيش تلك المرأة وهي تتطوع ممرضة بين الجنود الجرحى فتصاب بفعل تماسها معهم بحمى التيفوس حيث القمل والبراغيث تعيش بين طيات بزات الجنود وافرشة نومهم، وتنتقل معهم إلى حيث البارود والدم والجروح الفاغرة والمواضع الرطبة الموحلة. تضربها الحمى بلا هوادة ويقرر قائد الطبابة المتنقلة مع الوحدات على خط النار نقلها للخطوط الخلفية فتحتج رافضة تقاوم التقرير الطبي وتعلن أنها ليست اغلى من جندي يجرح ويطلب منه البقاء يحارب رغم الجرح. لكن

الهذيان يكتسحها والحرارة ترفع راية جنونها؛ وإذْ تفتح عينيها تجد نفسها على احد أسرّة مستشفى صوفيا العام يحيطها الأطباء مبتسمين وهم يكايدونها بسحبها من الجبهة عنوة.

في ذاكرتي تعيشين سيدتي؛ وعلى شفتي تترنمين اغنية تستعذب لها الروح ويهنأ بها القلب.

****

مع وصول القوات الأمريكية والروسية ودخولها برلين صرنا نرى المدينة مقسمة. لا صورة لهتلر؛ لا علم فيه الصليب المعقوف؛ لا كبرياء يهفهف بأجنحة طيور تزهو. لا هيكل عظمة للرايخ الثالث. الرايخ انكفأ ولم يبق منه غير هيكل محترق. هتلر بقايا جثة متفحمة أثارت شكوك إنْ كانت له أم لغيره. العلم مُزِّقَ ورمي في نار التهمت صليبه وانهته من الخارطة الألمانية.

كثير من الرموز النازية تقدموا للموت بشجاعة. لم يرتضوا الهوان.. مخيلاتهم رسمت حالة الأسر المهينة موقنين أن لا رحمة تواجههم.. سيكون مصيرهم الموت شنقاً أو رمياً بالرصاص مصحوباً بالشماتة والتشفّي. لمَ إذاً لا يموتون دون أن يعطوا بيد عدوهم إعطاء الذليل؛ وليس هُم بالجُبنِ فيرفعون أيديهم قائلين بتلعثم: " **Surrender.. Surrender**" استسلام لن يشفع لهم. لذا كانت رصاصاتُ الرحمة

وقاروراتُ السمِّ خيرَ وسيلةٍ تسبقُ اقتحامَ بيوتهم ودوائرهم وملاجئهم؛ فزاد عددُ الذين انتحروا على الخمسة آلاف في برلين وحدها؛ شوهدت جثثهم مطروحة وهم بكامل قيافتهم وبزاتهم. أما مَن ظنَّ أنَّ بذرة رحمة في قلوب المنتصرين ستنشطر بتواصل منتجةً قراراً بالعفو أو بالسجن المخفف فقد اكتشفوا بلادتهم وغباءهم حين قُدِّموا للمحاكم وأُهينَوا أمام القضاة والمدعين العامين وجماهير احتوتهم قاعات المحاكم؛ وحكم عليهم بالموت. ما لبث أن جرت حملة اعتقالات محمومة لأتباع النظام. تهاوت الرتب العسكرية وسيق المتزمتون والمتزمتات إلى السجون. صارت مفردة "نازي" شتيمة بعدما كانت وسام للأنفة والكبرياء. تبارت التهم تلتصق بالكثير من الرموز الاجتماعية أدباء وفنانين ومفكّرين ومَن بقي حتى صامتاً في ظل سطوة النازية وعنجهيتها دون معارضتها أو مجافاتها بالرحيل عن الوطن كلافتة احتجاجية كما فعل الكثيرون من الأعلام الثقافية الذين تلقفتهم المنافي.

ما وراء بوابة رندنبيرغ، في القسم الشرقي كانت صورة لستالين ببزة عسكرية بيضاء ونياشين وأوسمة متراصة على الصدر ترتفع بطول عشرة أمتار وعرض خمسة؛ والجنود الروس يرابطون عند تقاطع الشوارع، ويترجلون على

الأرصفة خالين من السلاح. يتعامل البعض منهم مع مواطنين ألمان جائعين يعرضون مقتنياتهم من ساعات وبروشات وأوانٍ خزف ومزهريات كريستال مقابل حفنة ماركات أو علب تبغ أو سجائر فرط روسية.. وفي الجانب الغربي وقفت الدوريات الأمريكية؛ وتوزَّع بقايا الشرطة الألمان ببزاتهم الزرقاء لتنظيم السير والإشراف على مجرى العمل الذي سيق إليه المواطنون لإعمار مدينتهم وإزالة مخلفات الحرب.

أشاهد من وقع أسيراً بيد الجنود الأمريكان أو الروس من أفراد الحزب النازي أو الشرطة السرية مُساقاً نحو مراكز الاعتقال فيبصق عليه المارة ويسمعونه كلاماً جارحاً. ومن المارة من يحاول الهجوم عليه لإشباعه ضرباً فيصدهم الحرس بحرابهم المشهرة في مقدمة البنادق ويمنعونهم من إطفاء غليلهم والتنفيس عن الحقد المتوالد جراء معاناة لا تحملها الجبال.

أشاهد "فراوكا كلاوز" التي اعتادت ببزتها العسكرية الأنيقة إلقاء الخطب في ميادين الكليات والمدارس الثانوية على الطالبات تدعوهن للقتال إخلاصاً لألمانيا وتنفيذاً لأوامر الفوهرر منتصبةً ترفع يدا تحية النازية المعهودة؛ تمر الآن بنفس بزَّتها ، ولكن مجعدة ومتربة ومخلوعة من جهة الكتف الأيسر. تمر منفوشة الشعر. عيناها محتقنتان

كأنها لم تنم ولم تطبق الاجفان.. الوجه مصفر وشاحب يكشف للرائي نهاية قاتمة تنتظرها.. تتعثر بمشيتها وقد جُرِّدت من أوسمة كانت تثقل جهة صدرها اليسرى. يقودها نحو المعتقل جندي أمريكي شاهراً بندقيته بحربة جعل رأسها المدبب وسط ظهرها؛ وهي تسير طليقة تحاول الاحتفاظ ببقايا الشَّمَم النازي.

أشاهد "أنجيلا غيدو" الفارعة الطول والفارهة الملبس، تلك التي كانت تتباهى بجمالها الملائكي وتتمثل بفنانات هوليوود تقف في طابور تحمل جردلاً مليئاً بالتراب والطابوق المفتت لتسلمها لفتاة ما زال الجمال يهتف على وجهها؛ والفتاة بدورها تدفع بالجردل نحو عجوز ستينية اخفت شعرها بشال ممزق.. انهنَّ منهمكات جبراً في وجبة عمل رفع الأنقاض وإعداد مآوى لمن فقد المأوى بعدما أنهد بيته وبات في العراء.

أشاهد الطبيب هملر شتاينبيرغ الذي كان يجاهر بانتمائه للنازية ويكتب التقارير للإطاحة بزملائه الأطباء وأصدقائه المقربين نال بفعلها وسام جمعية الأطباء الألمان يصاحب الروس المحتلين ويدخل الأحاديث الحميمية مع الضباط والجنود الروس المحتلين وسط دهشة معارفه وأقربائه؛ دهشة التقلب الحرباوي ونزع قناع لارتداء قناع.

الشمس ساطعة.. هياكل الأبنية المدمرة توحي بزلزال هائل احدث فعلته المهولة في ليلة دهماء. لا أحد ينظر لحجم الدمار؛ لكأن العين اعتادت فغضت الطرف.. يمر خمسة جنود ألمان مرهقين وقد تمزقت بزاتهم العسكرية الزرقاء وتمرغت بالتراب؛ يتقدمهم جندي أمريكي يشهر سلاحه مع كثير من التعالي والتبجح، ومن خلفهم جندي آخر بوضع التأهب مع قليل من التراخي والاستمتاع. على جوه ثلاثة من الجنود خطوط دم متيبس سال من رؤوسهم حتى الذقن بينما رأسا الاثنين معصوبين بشاش طبي تشرب معظمه بالدماء.. ما أن مر الخمسة من أمام نساء ورجال يقفون في طابور لاستحصال كوبون رغيف يستلمونه من نافذة يشاهد في مربعها جنديان أمريكيان حتى انبرى من بين المتوقفين رجل في الستين كان يحدق في احد الجنود. ما لبث أن راح ينهال عليه بساق منضدة خشبي رفعه من انقاض قريبة، صارخاً: هذا مَن وشى بابني فساقوه إلى الموت.. هذا.. هذا." أحنى الجندي رأسه تفادياً للضربات وتاركاً العسكري الأمريكي يمنع الرجل ويأمره بالابتعاد؛ والرجل يصرخ ملوِّحاً بالخشبة يحاول الوصول لهدفه: لابد ان يموت كما مات ولدي.. الموت للنازية.. دمرتم البلد وأهنتمونا.

****

الجوع وحشٌ فتّاك؛ والبحثُ في الابنيةِ المُهدَّمة الخالية من السكّان عن لقمةٍ تطرد هذا الوحش من عِداد المغامرة لكنّها مغامرةٌ لابدَّ منها لتضئيل جورِ الخواء.. هناك ايضاً الخشيةُ من الاعتقال والاتّهام بموالاة النازية والعمل مع الغستابو. قد أُقتل من احدِهم فلا عينٌ تشهد ولا لسانٌ يقول؛ ثم أنَّ ما لدي من ماركات لم تعُد تفي بعيشٍ مستقرٍّ والبطالة قادمة لا محال؛ لذا قررتُ الخروجَ من ألمانيا نهائياً.

في صباح اليوم التالي ركبتُ القطار المتَّجه إلى ميونخ.

كلُّ مدينةٍ، كلُّ قريةٍ؛ كلُّ صَرحٍ شيّده البشر قصفته الطائراتُ أو مرَّت عليه الدبابات أو ضربته المدفعية الثقيلة.. النوافذُ بلا زجاج؛ الأبوابُ متناثرة الأجزاء على الأرض؛ الجدرانُ مُنهارة أو آيلة إلى الهاوية، أمّا الباقي منتصباً منها فقد ثقبَهُ الرصاصُ وجعله شبيهاً بمنخل خباز.. عرباتٌ محترقة هنا وهناك. جرّارات مُجرد هياكل. وجوهُ الرجال والنسوة والأطفال تعرضُ صورةَ البؤس والحزن على أعزّاء قتلوا، وممتلكات أحرقت أو سلبت، ومستقبل مضبب لا أفق لضوء يبشّر بالأمل.. وحتى الذين فرحوا لزوال النازية سارقة أيامهم كانت وجوهُهم قصائدَ أسى تُعلن جراحاً لا تنسى، مزقت الذاكرة وأطاحت بهيبة الحلم البشري بعيش رغيد.

لم تختلف ميونخ عن برلين في حجم الدمار؛ ولا كان الأسى بأقلِّ سعةٍ على الوجوه من أسى أهل برلين.

في ميونخ التقيت كارل؛ وقد سعد للقائي ودهش لحضوري دونَ علمٍ مسبق.. أخذني إلى غرفته المُلحقة بمكتب السفريات وأراني حالة استقراره وسعادته بعمله وإن توقفت الرحلات خلال الاشهر الماضية لكنه كان متفائلا بانطلاقها قريباً.

قضيتُ معه يومين كان فيها الصديق الدمث والكريم.. لم يسألني عن سبب قدومي إليه بل أنا الذي صارحته في ليلة شربنا الجن الانكليزي حتى الفجر وطوَّحت بنا الأماني واستعدنا الذكريات.. قلت:

- أريد الخروج من ألمانيا فأنا لستُ بمأمَنٍ.

- صحيح.. حتى هنا في ميونخ شرعوا يتعقّبون النازيين ومن لهم علاقة بهم.

- إذاً أنت توافقني الرأي؛ لكن كيف الخروج واسمي في الجواز قد تتضمنه قائمة المطلوبين؟

قطب جبينَه ووسّع عينيه.. عيناه بدتا حمراوين وهو يطالعني وفي داخله يبحث عن وسيلةٍ للإنقاذ:

- لا بدَّ من استحصال جواز سفر تجتاز به الحدود.. لابد من الوصول آمنا إلى مرفأ بعيداً عن العواصف.. قد أخفيك

هنا، لكن إلى متى؟

- ....

- في اليومين القادمين سنجد الحل.

بجهوده وعلاقاته بشركات السفر وتواصله مع مغتربين داخل ميونخ قدَّم لهم خدمات واستطاع الحصول على وعد الإتيان بجواز أصولي.

في زمن الصراعات والأوضاع المرتبكة للدول والمجتمعات ينهض اللاقانون كغولٍ يفتك بما يلاقيه وما يرى أمامه. تجتاح المحسوبية والتجاوز على الحقوق والرشا مرافئ وموانئ الحياة المستقرة بقوة إعصار يطيح بهيبة الإنسان ويلوح له بخنجر الفتك بآماله وأمانيه. لذلك كان التفكك في بنى الهيكلية النازية يكبر ويتسع مع جملة الأخبار والبرقيات السرية القادمة من جبهات القتال والتي سرعان ما تظهر للعيان واضحةً وتتناقلها الألسن علناً.

أربعة أيام مرت على وصولي ميونخ وبقائي كسجين في غرفة كارل. اقترح الخروج بعد انتهاء عمله فاستقبلنا وسط المدينة.. هناك جلسنا في بار نرتشف النبيذ الفرنسي. قال إننا ننتظر جزائرياً سيأتي لك بجواز مواطن انكليزي قُتل هنا في غارةٍ هو وزوجته. سيأخذ صورةً لك ويلصقها بطريقة فنية بدل صورة المتوفى، وبهذا تخرج من البلاد كمواطن

انكليزي مُحتفى به كمنتصر.

لم تمض ساعة حتى حضرً شاب ينطق لهجة شمال افريقيا قال عنه كارل انه جزائري. كان اصفر البشرة، نحيف وطويل. ملامحه ذكرتني بالقسمات البدوية.

جلس معنا وكان مرِحاً يحاول من خلال كلماته وبريق عينيه إظهارَ ذكاءٍ ومكرٍ ومقدرةٍ على تجاوز العقبات مهما كانت صعبةً وعسيرة.

اخذ مني صورة هيأتُها للمهمة ووعدَنا بالحضور غداً وفي نفس المكان.

في اليوم التالي تناول وجبةَ غداءٍ معنا ولم يشاركنا احتساء النبيذ. طلبَ ان ننهض ليكون التسليم في منعطف يخلو من المارة.

تصفَّح كارل الجواز وتأكَّد من سلامته مُعتمداً خبرةً اكتسبها من عملِه في شركة السفريات. اخرج كارل من جيبه حزمةً كبيرةً من الماركات وسلّمها له؛ ثم استدرنا عائدين للشارع الرئيسي حيث افترق عنا.

عدنا إلى البار. جلسنا في مكانٍ منزوٍ نهرب من عيون مَن يطالعنا من الألمان فيحسدنا كمغتربين لا تمسسهم نيرانُ ريبةِ السلطات الأجنبية الغريبة.. هناك طلب كارل قارورةً فودكا.. سكب شيئاً منها في كأسي وشيئاً في كأسه،

ثم نظر مبتسماً:

- أفضل السفر إلى فرنسا فهي تعيش الاستقرار.. راسلني من هناك إذا وصلت.

- رأيتُك تعطيه نقوداً كثيرة لم أظنه بهذا الغلاء.

- لا عليك... قالها مبتسماً... المهم أن تبلغ السلامة.. أنت صديقي بحق.

- سأرد المبلغ إليك يوماً؛ أيها الكبير.

ابتسم.. كانت ابتسامته رسالة ود بعثها من قلبٍ يُفشي بزوالِ المال وبقاء النقاء الإنساني.

صباح اليوم التالي ركبتُ القطار عائداً إلى برلين.. لي معها أيام معدودات.

****

كان عليَّ وأنا أغادر ألمانيا زيارة قبر درودانة لأعلمها بسفري، وما إذا كنت سأجيئ يوماً لزيارتها مجدداً.

مررتُ على بائع زهور عرض بضاعته بشكل رائق وجميل كأنه يهتف بالحياة والطبيعة ويرفع عبر باقات الورود الطبيعية اليانعة المعروضة ما وراء زجاج حانوته شعار البهجة وإثارة شعور الرغبة بطي الماضي والانفتاح على الحياة الجديدة؛ كأنه يعلن أن بعدَ الشتاء القارص والمُثلِج وبعد العواصف الصقيعية والزمهرير ربيعٌ ضاحك ومؤنس. ابتعت

باقة وردٍ آليت أن تكون ذات عطر فاغم؛ ومن بابِ الحانوت أخذتُ سيارة أجرة رغم ارتفاع سعرها قياساً بالقطار الذي ينتهي قريباً من المقبرة.. مررنا على الخرابِ العميم: البنايات الحكومية المُدمرة. أثاثُها المحترق وملفاتها المبعثرة يمكن رؤيتها من خلال فتحات وانهيارات كثيرة في الجدران. كانت الأوراق نصف المحترقة متناثرة على الركام؛ يتطاير بعضها حين تمر الريح؛ القصور المُفكّكة بطوابقها العليا منهارة وغرفها المدفونة تحت الأنقاض؛ يمكن مشاهدة الستائر الهادلة أو الممزقة؛ المتاحف المُهدَّمة بقاعاتها الفارهة ولوحاتها الساقطة أرضاً مُعفَّرة بالتراب ؛ الكنائس بالصلبان المحنية كانحناء رأس ابن الرب على الصليب والنوافذ المحطمة وقد تكسَّر زجاجُها الملوَّن وانكفأت الأيقونات مختنقة تحت الركام؛ الشوارع المحفورة بالقنابل لا حصر لها؛ الحدائق وقد تبعثرت أشجارها السامقة وهوت هاماتها. وقبل كل ذلك البشر المنكسرون، تنسكب من عيونهم دموع الأسى وتبوح ملامحهُم بحكاياتِ اللوعة وما مرَّ بهم وقاسوا طيلةَ أعوام الهول، سني الحرب السادية لم تشبع من آهاتِ الجرحى وألم المسنّين وبكاء الأطفال؛ فكانت كجهنم تنادي بالمزيد. النظامُ الحديدي النازي لم يترك لهم غيرَ الضياع والألم.. الدكتاتورية القاهرة والنزعة

الفردية تبتدئ بالحماسة وتنتهي بالدمار الشامل. هكذا خرجتُ بحصيلة لخّصتها ليَ التجربة وطلب منّي التاريخ جعلها تميمة بمثابةِ موعظة، ترافقني في مساراتي الحياتية اللاحقة.

وقفت عند باب المقبرة التي بقيت الوحيدةً لم تدكُّها القنابل ولم توجّه إليها الصواريخ لشعور المتحاربين أن المقابرَ تلتزم الحياد في الحروب، وأنَّ الموتى شهودٌ لا غير.. لا اعتراض؛ لا احتجاج؛ لا إدانة. وحدهم الموتى من لا يتدخلون في حسم الأمور. إنهم يتركون البغض والحقد والفضائع والفضائح والجنون للأحياء ويكتفون بنعماء الصمت الأبدي.

استقبلني العامل الذي فتح لي الباب يوم جئت لأول مرة أزور دوردانة. قال لا تعجب لطول المقبرة وعرضها. عندما تركتها في أول زيارة كانت مساحتها لا تتعدى أربعمائة متر أما الآن فها هو نظرك يذهب للبعيد فلا ترى نهاية لها.. مع بدء الحرب وتهافت القتلى كان هناك اقتراح إزالة القبور القديمة وجعل مساحاتها للقتلى الجدد لكني أبديت رأياً ببقائها " يجب أن يكون الانسان ذا قدسية حتى بعد موته ".. ضحكوا أول الأمر وكان اعتقادهم أنْ لن يكون لها نهاية، وسأضطر يوماً لإزالة القبور القديمة... ولأن الجبهات تعددت واتسعت المسافات استحالت أراضي البلدان التي

دخلها جُندنا مقابر لهم. لذا بقي قبر دوردانة مع القبور الأخرى دون أن تمر عليه معاول الحفّارين.

وضعت الباقة وأنا أسكب دمعةَ الوداع. أبصرني العامل فأكبر بي هذا الوفاء. شدَّ على يدي مودِّعاً.. خُيل لي وأنا أستدير خارجاً سماع صوت دوردانة ترجوني بهمس الموتى المُكبَّلين بحجارة القبر زيارة أهلها في اسطنبول ونقل شوقِها لأمّها وإخوانها وحنينها للبيت:"قل لهم أنني دائما عندهم أهفهف بأجنحة الشوق؛ لهُم ولبيتِنا؛ ولإسطنبول."

(٨)

الوصول الى فيينا

مروره بالنمسا وبقائه فيها لثلاثة اعوام لم يشر هاتف غازي تفصيلياً الى حياته إنما اقتصر على علاقة توطّدت مع روائي نمساوي. رأى في هذا الكاتب الخلاصة المُهمّة لوجودِه هناك كما يبدو.

سنواتي النمساوية

في مملكةٍ تجمع النمسا وهنغاريا ويحكمها ملكٌ كرَّس سنواته من أجلِ حياة هادئة وبعيدة عن التوترات لابدَّ من اعلان اعجابك بلا تردد. وفي مجتمع يجمع القوميات والطوائف في بوتقة اجتماعية واحدة تعيش الحياة الحَضرية بلا انفلات لهوَ مثار ادهاشٍ وتمني أنْ تحذو الشعوب والأُممُ حذوَه.. وما فيينا التي دخلتُها بشعورِ المنفلتِ من قفصٍ، المتحرّرِ من قبضةٍ خانقةٍ إلا مدينة الجمال ويوتوبيا الحالم باضطراد: جامعات ومتاحف، مسارح وسينمات، حدائق واعياد. أدب وفن، كتب وصحافة ومكتبات. مختبرات

علمية وبحوث تترى. مقاهٍ وملتقيات أدبية؛ مفكرون وأدباء وفنانون ومؤرخون. باحثون في علم النفس، ومنطلقون في رحلات استكشاف: سيجمند فرويد، ماريا ريلكة، يوزيف روث.

يوزيف روث كان روائياً جمعتني وإيّاه الصدفة في احدى مكتبات فينا. كنت قد اعجبت بكتاب لنيتشه بعدما طالعت قراءة تسلط الضوء على مفاصل جوهرية مُهمّة احتواها، وذكاء ثاقب للمؤلف بطرح جريء لم يحسب حسابَ ردَّةِ الفعلِ من المناهضين لأفكاره.

وكان إنْ احتكَّ كتفي بكتفه وانا اسحبُ كتاباً من أحد الرفوف وهو يقف دافناً وجهه في مُجلَّدٍ يقرأ اسطر سحبته الى ما وراء معناها. كنت رأيت صورته في صحيفة **Neue Berliner Zeitung** يتحدث احد النقاد عن روايته "زيبر وأبوه" ويصفها بالتشاؤميّة ما لفتت انتباهي وجعلتني اتشوق لقراءتِه، وحتى لقائه طالما اشارت المَقالة لوجوده في فيينا.

يوزيف روث هذا، ومن ذلك الحدث والمصادفة صرتُ صديقه.. دمثٌ وودود وذو جلال ومهابة؛ أخذني مرّةً الى بيته المتواضع على مشارف فيينا. شربنا القهوة وتناولنا عشاءً خفيفاً من حساء الشوفان. كان لقاءً لا يُنسى.. لقاء كان

فاتحةً لقراءةِ كتاب حياته ومعرفة مصادر ثقافته وموهبته المتناسلة باضطراد مَشوبةً بتشاؤمٍ حاول في اول صحبتنا اخفاءه؛ ما لبث ان انفجر واتَّضح عندما كنت اشاهده يغرق في تناول الخمر.. يكتبُ حزناً، ويرسم كوارثَ يراها ستحلُّ يوماً. كنت اندهش لما يقول وما يدوِّن؛ فالحياة في أيام تشاؤمه كانت جميلة ورائقة فما عساه يُبدي التذمّر. يقرأ تقاسيم هذه الدهشة في عيني، فيقول مطأطئاً رأسه كما يُطأطئ متهم امام قاضٍ يكيل له التهم: "اخشى على مملكتنا النمساوية الهنغارية من الانهيار. اذا انهارت المملكةُ فعلى أوربا السلام."

حين يُنهي افراغَ كأسِ الواين في جوفِه يؤشر بأصبعه جهةَ ألمانيا مُتمتماً بعينين غاضبتين: من هناك سيأتي البلاء. هناك سيولد الشر؛ سيعم أوروبا.. اوروبا ستحترق.

ينهض الى دولاب خشبي طلاؤه كحلي، يفتحه ساحباً بُطل واين آخر، يأتي به كأنه لم يكتفِ بما شرب، مع انه افرغ في جوفه بُطلاً كاملاً. يملأ القدح الزجاجي الكريستالي؛ يحدِّقُ في فقاعاتٍ مائية تقافزت قبل ان تهدأ: التعصُّب للقومية مُفتاح الدخول للكراهية.. مَن يؤمن بالحياة عليه الاقرار بالتعايش مع الآخرين. وهذا لا يراه هتلر بعنجهيته ونهجه. انّه يؤلِّب الالمان على التعصب لقوميتهم،

وتلك بداية الانحدار نحو الهاوية.

يـأتي علـى محتويـات الكـأسِ قبـل أن يقـول: كـم كـانَ عظيمـاً ورائعـاً لـو جعـلَ ماكنـة اقتصـاد المانيـا لخدمـةِ العلـم وبثِّ المعرفة؟!.. كـم كـان قائـداً بحـقٍّ لـو فكَّـر ببنـاء حيـاةٍ مدنيـة واقامـةِ مجتمـعٍ يرفـل علـى خميلـةِ السـعادة لا تنميـة الحقد وتأجيج الذات نحو التعصب والعجرفة؟!

(٩)

فصل انتهاء الكتاب

ينهي هاتف غازي كتابَه بقصيدةٍ يستلّها مِن منجزِ والت ويتمَن الشعري كان فيكتور قد وضع خطوطاً تحت جميع اسطرها؛ لكأنه يوصي هاتف إنْ يصبح كاتباً يوماً فيضمّنها في كتابٍ يصدره.

في القصيدة يخاطب ويتمَن متلقّيه؛ قارئاً أو قارئة، مُعلنا حميميته له / لهما، ومناصرته لنظرية القراءة والتأويل. القراءة التي تشير أن لا نص بدون قراءة؛ وأن لا قراءة بغير تأويل.

أيها الغريبُ العابرُ
أنتَ لا تدري كم انتظرتكَ طويلاً
أنتَ مَن كنتُ ابحث عنه، أو ابحث عنها
(ها هو ذا الحلم يأتيني)
أكيداً، عشتُ معكَ، يوماً ما، حياةَ فرح.
كل شيء أتذكر، ونحن نمر ببعضنا
طريين، حنونين، طاهرين، ناضجين

لقد ترعرعتَ معي

كنتَ فتىً، أو فتاة، معي

طعمتُ معك، ورقدت معك

وجسدُكَ لم يعُد لكَ وحدك

ولا جسدي عادَ لي وحدي

لقد منحتني وأنتَ تمر

بهجةَ عينيك ووجهَك وبشرتَك

وأخذتَ لحيتي وصدري ويدي بدلاً

لا أتحدثُ إليك، لكنّي أفكِّرُ بك

حين أجلسُ وحيداً أو أستيقظُ في الليلِ وحيداً

عليَّ أنْ أنتظر

فإني مُلاقيكَ، ثانيةً

أنا لا أريدُ أنْ أفقدك.

هل تضمين القصيدة جاء ليؤكِّد حبَّ هاتف بها أم هو الوفاء يختمه في كتابهِ لصديقه فيكتور المُعجب بها؟

(١٠)

الدخول الى الجامعة

شرعتُ بالدراسة الجامعية؛ وكان أديب جرمانوس خيرَ معين. كذلك كان فوزي جابر وعباس أغا.. لقد تحمّلوا الكثير وأنجزوا بانفتاحٍ وقلبٍ صادقٍ اعمالاً مناطة بي... اخترت الرياضيات التي احبها مُذ كنتُ في الابتدائية والثانوية؛ آخذاً بنصيحةِ مدير ثانويتنا آنذاك ، عندما رفض وواصل رفضَه طيلةَ وجودِه مديراً لعشرة اعوامٍ فتحَ فرعٍ ادبي. تجاهل الحاجَ الكثير من الطلبة وأولياءِ امورِهم في رغبتهم بالقسم الادبي، قائلاً: الأمم تُبنى اولاً بالعلم؛ وما تقدُّم أممٍ سبقتنا الا لأنها سلَكت مسلكَ العلم.. نحنُ أمةُ شعرٍ، لا تجيد غيرَ الكلام وتلكَ مثلبةٌ إنْ لم نتجاوزها بالعلمِ سنظل نعيش منغمسين في الخيال، والخيال اذا دامَ دونَ علمٍ دمّر.

صرت اخرج من دائرة الضريبة الساعة الثانية عشر ظهراً وسط نظرات أديب جرمانوس المُحفِّزة وتبريكاته في خوض مراثون الدراسة وضرورة مواصلة التعليم لكلِّ جائعٍ للعلم وراغبٍ في نهلِ المعرفة.. اسئلته لا تنقطع عن درجاتي في

الامتحانات الشهرية وتجاوزي كورسات الدراسة.

يبتهج إذ يطالع ورقةَ الامتحان وتتوهَّج حدقتاه للدرجة المتميزة وعبارة التثمين كتقييم لإجاباتي.. أحسّه ينظر لي كما ينظر لولده آدمون الذي يتحدث عنه كثيراً، ويحثني لأحذو حذوَه في النشاطِ والبحث. يريني رسائلَه المُرسَلة من لندن وفيها نتائجُ اجتيازِه فصول دراسةِ الطب واختيارِه الجراحة كاختصاصٍ متميز.

لقد تغيَّر عمّا كان.. تغيرت تقاسيمُ وجهِه لكتابٍ جامعي اطالعه كلّما سنحت الفرصةُ اثناء العمل، وكثيراً ما وجّه عباس أغا أو فوزي جابر لإنجاز معاملات من صميمِ واجبي ايامّ دنوِّ الامتحانات الشهرية وفترة امتحانات نهاية الكورس.

لم يطلعني جرمانوس عن أسباب غضبه وتذمّره لمشاهدتي اتأبط كتاباً خارجياً، وكان فوزي جابر وعباس أغا يتهربان من الإجابة كلّما طرحتُ عليهم اسباب انزعاجه.

وفي يوم، طال انتظاره وأخذ مني الاعوام، تفكَّكت مجموعةُ الشفرات وانحلَّ اللغز.. حصل ذلك عندما ابصرته يخرج، من دون أن يراني، من مكتبة المثنى في الباب الشرقي. دهشتُ لرؤيته يحمل كُتباً تزيد على العشرة ينوء

بحملِها.. وقفَ عند حافة الرصيف يومئ برأسه لسيارة أجرة.

وضع الكتب في الكرسي الخلفي وصعد مع السائق.

آ؛ أديب جرمانوس!.. أيها الرجل المُبهَم.

فكرةُ فضولٍ ومضت في رأسي.. لابدَّ مِن حلِّ اللغز.. جاءت ضرورة الرسو عند مرفأ الحقيقة.

ها أنا أدخل إلى المكتبة.. كان البائع يجلس خلف منضدة وقد دفن وجهه في قاموس المحيط، يبحث عن جذرِ مُفردة أو تصنيف مصطلح أو طريقة اللفظ الصحيح لكلمات قد يكون احتواها شعرٌ جاهلي غدت الكثير من مفرداته من عِداد الكلمات الميّتة لتقادم الحقب عليها.

مررتُ على الرفوف سريعاً، واستدرت اسأله عن كتاب اختلقتُ عنوانه.

ردَّ الرجل بالسلب دون ان يرفع رأسه عن القاموس.

قلتُ بشيءٍ من الدهاء:

- لكني شاهدت الرجل الخارج توّاً يحمله مع مجموعة كتب.

أتقصد أديب جرمانوس؟.. قال ناطّاً برأسه ومُحدقاً بانتباه.

- لا أدري... تظاهرتُ بالجهل.

سحب الجارور فأخرجَ قائمةَ مبيعات.. قرأ المحتوى قبل أنْ

يرفع رأسه ويقول:

- لا وجود لهذا العنوان في قائمة شرائه.

وبشيء من الإيضاح أكمل:

- هذا الرجل قراءاته فلسفية لا يهتم بمحتوى كتابك الذي تطلبه.

- هل تراه يقرأ كل الكتب التي حملها؟

ابتسم كما لو كان يستهين بسؤالي المُغلَّف بالدهشة:

- بل وأكثر.. كل شهر يخرج من هنا بتلٍّ من الكتب. يلتهمها كقرص عسل.

قلت متعجباً وقد كشفتُ أمري:

- ولكن لماذا يحرم موظفي شعبته في العمل من مطالعة الكتب؟

رأيتُ الرجل ينزع نظارتيه ليشرع بحديث طويل:

- ولو أني بائع كتب وهمّي البيع والتجارة لكني اقول أنّ الثقافة تجلب الصداع لحاملها، يا ولدي، مثلما تجلب الويلات. وهذا الرجل ذاق من عسف السلطات المتعاقبة. لذا تراه يحذِّر مُقرَّبيه بضرورة تجنُّب عنف ما جرى له.. زار اغلب سجون العراق، من سجن نقرة السلمان، إلى سجن الحلة، الى سجن ابو غريب.. إنه من عائلة عاشت النضال عبر العمل الصحفي. والده جرمانوس إيليا عمل مع روفائيل بطي في

جريدة البلاد منذ تأسيسها في العام ١٩٢٩. كان والده صحفياً بارعاً؛ ناهض الاستعمار الانكليزي ووجد في سياسته ما يجعل العراق مُكبلاً بلا اقتصاد حي ولا نشاط اجتماعي يعتد به... ادخله نوري السعيد السجن عديد مرات. اخيراً اغتيل بحادث سيارة في شتاء ١٩٥٤ بعدما نشر عموداً اغضب نوري السعيد آنذاك فقيل هو من تسبب في مقتله.. ولم يمر عامان حتى اغتيل أخوه بنجامين الذي عاد توّا من المانيا الشرقية ليمارس الصحافة ويتولى مواصلة عمود شقيقه الصحفي.. أما أديب هذا فقد لوحِق كثيراً لأفكارٍ كان يجاهر بها. افكار يسارية تصبُّ في مصلحة موسكو كما اتُّهم؛ فأُدخِل السجن. عُذِّب وشُرِّد، ونقل من سجن لسجن كما قلت.

توقّف الرجل عن كلامه.. تفرَّسُ في وجهي للحظة وأكمل:

- في هذا العهد اكتفى بالقراءة. يحمل الكتب الى بيته. وهناك يعيش مع الفلاسفة والمفكّرين.. ولخشيته من حصول ما حصل لأسرته تراه يحاول منعَ كلِّ شابٍّ يحاول دخول شارع الثقافة.

آه؛ أديب جرمانوس! أهكذا أنت؟!.. أهذا ما أنتَ عليه؟!.. أيها الإنسانُ بحقٍّ.. كنتُ أتساءل برأسٍ تملأه الحيرة

كيف يحمل هذا الرجل روحَ التناقض؟!.. كيف يجمع الإخلاصَ بالعمل مقابل أنانيةِ رؤيته لنا نمسك كتاباً لنطالعه؟!.. كيف يتحلّى بالسماحةِ الفائقة وعلى النقيض منها الغضب الذي يصل حدَّ الهوَس؟!

****

في اليوم التالي سيطر عليَّ دوارٌ ألزمني الفراش، ووجدتني أخرج لاتصل به هاتفياً من محل محمد علي صانع الأعواد الموسيقية أخبره بعدم قدرتي على الدوام، راجيا منحي إجازة لذلك اليوم.

تنقلُ لي سماعةُ الهاتف أنفاسَ القلق عليَّ واسمعه بروح وعطف أبوة يدعوني إلى الراحة، ثم يسألني إن كنت محتاجاً لمساعدة.

لم اتوقع زيارته لي في غرفتي عصراً؛ ولم اتخيل أنه سيصرف ساعة في نزل يسكنه العزاب وتمور بداخله حركة النزلاء رائحين غادين.. صنع لنا شاياً بيده، وجلس عند رأسي.. تلك الجلسة التي افشيتُ له بحالتي الاجتماعية وكيف وصلت الى بغداد وساعد هو بتعييني في ضريبة الدخل.

- لنتبادل المعلومات عن كلينا.. قال بصداقة هذه المرّة.
- فهمتُ عنك ما لم افهمه من قبل.. وعليَّ أنْ أبوح لك

بما لم ابُح به مُسبقاً.

جرى الحديث وهو يستمع منصتاً:

- كان أبي صياد سمك ماهر يشهد له الكثير ممن يمتهنون المهنة نفسها أو من زبائنه الذين اعتادوا شراء السمك حيّاً لابطاً وهم بانتظار عودته يقفون على شاطيء الفرات يومئون له بالاقتراب فيترك مكانه في وسط النهر، يجدف بالمجداف شمالاً ويميناً وصولاً الى الجرف. هناك يعرض عليهم صيده من سمك ما زال بعضه يلبط ويتقافز في حضن البلم. يستمتعون في الحديث مع ابي ويتوددون لروح دعابة يمتلكها ونكات يطلقها فيضحكون. يحسدونه على نهر يصرف ساعات عمله في صحبة جميلة. ومن جانبه كان أبي يجاهر بحرية يمنحها له الفرات.. يؤشر بسبابته ويقول: "هذا صديقي الوحيد.". وبدورهم يرددون: نعم.. نعم نعرف ذلك.. نعرف ونحسده عليك او نحسدك عليه.

يومياً يصرف أبي الوقت غارقاً في لهفة النهر بعدما يشتري من توما بائع العرق بُطل مسيَّح، يردفه بأصابع خيار أو راس خس صغير، مزّة تقطع مرارة العرق. ثم بعد وقت يروح يترنم ويدمدم "راح احترق واذّرَّه" مُقلِّداً سعدي الحلي من مسجِّل يُشغِّله أبو جابر يومياً وبلا ملل في مقهى "الهجع"؛ المكان الذي لا يغادر صوبَ بلمه إلا بعد جلوسه في المقهى

لساعة يصرفها في الاستماع للأبوذيات والترنم بالبستات. يحفظها ليغنّيها هناك، على ظهر البلم.. هناك ينقر على خشبه ويروح يردد أبوذيات تتركه بعد الانتهاء من ترديدها مُتجهماً، حتى ليكاد يبكي:

مشيت وغيريت الجسم وَنحل / ذاك الوجه وذاك الطول وين حل/ إكطَعه وانعِكَد حبل الوصل وِنحل /الناس اثنين ما خلّو سوية.

يحاكي الكلمات المتشكّيّة في الشريط: يُطلقها الملّة؛ الشاعر المرافق دوماً لسعدي: "واللّه العن ابو الناس.. لعبوا علينا." ثم ينطلق ببستةٍ يسمعها الذين على الشاطئ:

اللوم غيَّر حالتي // اللوم عذَّب مهجتي..

آنا وحبيبي طلابتي // يا ناس شلكم لازم

يبتسم جرمانوس، يبتسم ويقول:

- رجلٌ مُسالم على فطرته.

- نعم.. على فطرته كان، وبساطته... اقولها من بين ألم الذكرى، واستدرك: ولكن...

- ولكن ماذا؟.. يقولها جرمانوس باهتمام.

- لكن بعد وقت صرنا نرى ابي يدخل البيت صامتاً. كفَّ عن حكايات التي كان يقصها علينا بما يخص النهر ونصدقه، نطلب المزيد فلا يمل ولا يمتعض.. يحادث أمّي بودٍّ

مُظهـراً احترامـاً أثـار دهشـتَها بعـدما كـان يتـذمَّر كـثيراً، ويخلق الشـجارَ الـكثير، ولا يجـد دواءً لـه غـير الشـرب هـربـاً من واقع لا يراه يُشبع خياله الجامح.. تزور جدتي؛ وتبـوح لها: ما ادري شنو البدّله، يا يمّه. تبدّل من رأسه لرجليه.

أنظر الى جرمانوس فأجدهُ منصتاً باهتمـام.. كلمـة الـ " لكـن " ومـا بعدهـا حفَّزت لديـه مَلكـةَ الاسـتماع.. بـدا كأنـه يسـترجع شـيئاً يهمّـه؛ جـزء مـن شـريط حياتـه بينمـا طفقـتُ أواصل:

- مـا عـاد يحمـل بُطلَ العـرق إلى البلم؛ والغنـاء بصـوتٍ مرتفـع لم يعُـد النـاس يسـمعونه.. صـار ينتظـر الليـل فـيترك البيـت. يـذهب الى "حـانوت ابـو ألـبير" بـائع العـرق.. يُفضِّـل الشـراء منـه لأن إضـاءة حانوتـه ضـعيفة. أبـو الـبير يعـرف أنَّ كـثيرين مـن زبائنـه يتجنبـون مشـاهدتهم مـن قبـل المعـارف مفضِّـلين التخفّـي، خصوصـاً ونحـن نعـيش في بلـدة صـغيرة، لذلك جعل إضاءة حانوته خافتة؛ ليس كمثل حوانيت بغداد.

- هنـا في بغـداد الويسـكي والشـمبانيا والعـرق والجـن وبـاقي أنـواع النبيـذ بالقنـاني الكـبيرة والصـغيرة تشـع تحـت مصـابيح مجنونـة ومرايـا تخلـق الإثـارة.. يقـول جرمـانوس مـا كنت اريد قوله.

- يشتري ربع عرق، يخفيـه بجيـبِ سـترته، ويرجـع. صـار

يشرب في البيت. ما عاد أحد يشاهدهُ يترنَّح.. النقد الجارح الذي كان يوجَّه له تراجع. خمَّن بعضهم هذا التصرف عودةً للرشد واكتشاف ان شرب الخمر من المُحرَّمات. انها هداية اللّه لاتخاذ طريق الصواب، كانوا يقولون، وبعضهم ظلت الدهشة تصاحبه وعلامات الاستفهام تتكوَّم في رأسه، تنتظر الإفصاح.. صار يتحدَّث مع من يلتقيهم ويدخل حواراً معهم عن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.. يتحدَّث عن استغلال الفقراء من قبل الأغنياء. وكثيراً ما كنت اسمعه يتكلَّم مع مَن يعرفهم من الصيادين والحمّالين وعمال المَسطَر والذين بلا عمل أن مِن واجب أيِّ ذي عقل إيقاف الاضطهاد ولو بالتضحيات الكبيرة.

نهض جرمانوس من كرسيه.. جاء لي بالماء حين شاهد شفتي تيبستا وجفَ لساني وكان الكلام يخرج متقطعاً.. احتسيتُ قليلاً، وعدت اتَّكئ على الوسائد وأقرأ لهفته اكثر مما خمَّنت انني اثقل عليه بالكلام.

- قل.. أكمل.

- أخذ أبي يغيب لبضعة ايام، لا ادري ولا حتى امي وأخي الصغير يعرف اسباب غيابه.. الغياب كان يثير الريبة في قلب أمي فكانت تذهب الى امِّها تُطلعها. وكانت جدتي تهدئ من خوفها وتبدد قلقَها، مشيرة الى بساطته وتعلّمه

المحدود. كانت تقول: لا تخافي عليه. الرجال بعمر الاربعين تكون لهم مشاريع عمل.. ربما هو في مشروع يفيدك وولديك.

نعود وامي غير مطمَئنة.. كأنَّ شيئاً في رأسها يثير لديها الشك في غيابه وقبلها تغيّر سلوكه.. كانت تقول بحسرة: لو يبقى على العَرق والصيد افضل لنا من غيابه وصمته.... وفي يوم كئيب جيء بأبي مطعوناً بخنجر عشرة طعنات.

ترقرقت عينا جرمانوس وراح يعلن أسفه ومواساته، لكنَّ قسماته كانت تطالبني بإكمال ما اريد قوله.

- بمقتل أبي وخوفها عليَّ سحبتني أمي الى غرفتها: " يا ابني، من الفجر تركب السيارة وتهرب عن السماوة.. اللي قتلوا ابوك راح يقتلوك.. هاي حضرت الك هدومك بهاي البقجة ".. نظرتُ كانت صرَّة صغيرة.. نهضَت؛ ومن بين طيّات اللحف والوسائد المُنتظمة على ميز خشب ورثته من جدّتي مدَّت يدها. اظهرت حفنةً دنانير. دسّت بيدي خمسة منها وقالت: هذا الباقي نعيش لمّا الله يفرجها.. المهم أن تبعد عن عينهم.

قبل طلوع الشمس كنت احد ركاب سيارة المرسيدس ذات الـ ١٨ راكب المتَّجهة للديوانية.. كانت رحلة فيها خوف وحذر وتطيّر من مكروه قد يحصل.. وكان عليَّ حتى أصل الديوانية اجتياز مدينة الرميثة ثم مدينة الحمزة وبينهما

مسافة تتمايل فيها السيارة مثل سفينة في بحر هائج جراء أرض رخوة يتعالى فيها الغبار فيدخل عبر الشقوق رغم تحذير السائق وأمره لنا بغلق زجاج النوافذ. ومع هذا كان جو السيارة غائما لا يرى الراكب من يجلس جواره. أما الخارج فسديم.

وكان الوصول إلى الديوانية استغرق ساعتين.

ولما كنتُ مصمِّماً على النأي بهداية نصيحة الأم فقد توجهت الى سيارات بغداد بنفس الكراج ومن هناك كانت سيارة **O.M** الايطالية ذات ٢٣ راكبا تمنحني احد كراسيها فأصل بغداد بعد ساعتين ونصف وطريق معبد أظهر لي كم كبير الفرق بين طريق مُترَب وآخر مُسفلت فندبت حظ مدينتي التي لم تربط مع الديوانية بطريق يسهل على الناس سفرها بيسر.

أخرجتُ الورقة من جيبي وطالعت الكلمات فيها.. قصدتُ صف سيارات تاكسي متوقفة عند مدخل الكراج. قلت للسائق الذي هرع قبل غيره من السواق المنتظمين في طابور: خذني لفندق حلب... قال: تفضل اصعد.. هذا بساحة الشهداء، مقابل مركز شرطة الكرخ... صعدت. ولم يكن الفندق بعيداً فبعد دقائق توقَّف السائق وكانت لافتة حديدية كتب عليها "الشرطة في خدمة الشعب".. طأطأ

السائق رأسه حين نزلت وانا اسأله عن الفندق: هذا مركز شرطة الكرخ، ومقابيله الفندق اللي تقصده.. اتشوفه ذاك؟".. التفتُّ خلفي.. كانت لافتة بيضاء صغيرة فوق باب مشرع وكلمتا "فندق حلب" مكتوبتان باللون الأسود وبخط النسخ.

دوَّن صاحب الفندق المهندم بالسترة والبنطلون والشعر المدهن اللامع اسمي منقولاً من هويتي. طالبني بالمئة فلس أجرة الليلة الواحدة مُقدَّماً ثم استدار الى لوح خشبي مربع عليه مجموعة مفاتيح مُعلقة على ارقام. رفع مفتاحاً من الرقم ٨ وقال: اذهب إلى نهاية الممر. ستجد الغرفة هناك، خذ السرير اللي يعجبك... وكانت الغرفة بأربعة أسرة.

هبطت من الفندق جائعاً. وعلى ضوء الاستفسار من صاحب الفندق عن مطعم قريب توجهت يساراً مأخوذاً بالحوانيت المشرعة وبهرجة البضائع المعروضة، أمتاراً ووجدت نفسي عند رأس ركن ومطعم يطل على شارعين. الرواد يعج بهم المطعم، فالوقت ظهيرة؛ وعمال المطعم في الداخل يحملون الصحون المتخمة بالرز والمرق بأنواعه وهناك عمال آخرون يوزِّعون الماء، وآخرون يضعون أرغفة الخبز قبل حضور العاملين الذي يحملون الصحون من المطبخ، وآخرون يحملون الصحون التي فرغت.

كان مكاني عند منضدة تجاور الجامخانة المطلة على ساحة واسعة منفتحة على فضاء واسع. سمعت الذين أمامي وكانا عاملي بناء يقول احدهما للآخر: عبرت ساحة الشهداء هذه". فعرفت من كلامهما ان الساحة التي أمامي اسمها ساحة الشهداء. وكان على البعد منها جسر تعبره أو تأتي عليه سيارات بموديلات مختلفة لفت انتباهي منها السيارات ذات الطابقين حمراء تطل من نوافذها رؤوس تبحلق في المارة أو تتطلع إلى المحلات.

صادف أن جلس في المنضدة المقابلة رجل مهندم؛ ركن على كرسي يجاوره صحفاً جلبها معه. وفي الوقت الذي كان ينتظر الطعام لفت انتباهه سؤالي للنادل عن كيفية الحصول على عمل. سؤالي وتذمر العامل من انعدام فرص العمل وحتى لو حصلت فبالذل وتمريغ الكرامة والاستغلال جعلاه يطالعني وفي عينيه رغبة في مساعدتي.

ابتسم جرمانوس ابتسامة السماحة والابوة والهدوء قبل ان يقاطعني ويقول:

- تقصد عبد الحميد.. هذا صديقي في ايام المحن.

كنت اريد أن اكمل عندما تولى هو ذلك:

- كانت كلماته التي كتبها يوصيني بك أمراً.. لذلك من فوري صعدتُ الى مدير الضريبة. رجوته ان يعينك عندنا ،

خصوصاً وانت كما اخبرني عبد الحميد تحمل شهادة الثانوية.

- نعم.. قلت و.....

- لقد شرح لي عبد الحميد عندما التقينا بعد اسبوع حالتك؛ كونك تأتي لبغداد لأول مرة.

- كيف هو الآن؟.. لم اره منذ ذلك اليوم.. كنت اريد تقديم الشكر والدعاء له بالتوفيق.

- ارتح الآن.. سأدعوه يوماً لنلتقي سوية ً.

زيارة جرمانوس غير المتوقعة أفعمتني بطيب قلبه وأرتني رجلاً فيه من النقاء ما يشبه سماءً صافية، وفي قلبه من الرحمة ما لا يتحلّى بها سوى الاولياء والصالحون.

(١١)

مالم يكتبه هاتف غازي

تلك الصبيحة، والربيعُ يقبل ضاحكاً، وأنا على اعتاب انتهاء سنتي الاولى في الجامعة، وشخصية أديب جرمانوس تكتمل في ذاكرتي مُثقَّفاً وأباً روحياً توجهتُ الى حافظ القاضي. دخلت ستوديو ارشاك. استلمتُ صورةً شخصية اخذتها قبل يومين لتكون مثاليةً اقدَّمها في معاملاتي الرسمية.

كانت الليلةُ الماضية مُدهشةً؛ انهيتُ فيها آخر صفحة من كتاب هاتف غازي ... نمتُ على أسفِ انتهائه.. شغفِ اللقاء بشخصه راودني.

إنَّ ثمَّةَ اسئلةٍ عديدة تنامت في رأسي وانا أُبحرُ من فصل لفصل، وانتقلُ من موقف لآخر. سأسعى للقائه علّني احظى بإجابات تشبع فضولي وتجعلني أُقر بأهميته كرجل يتحلّى بكاريزما خاصة، تماماً يوم أبصرته اول مرة في المقهى البرازيلية وسمعت من يشير عليه كمغامر لا يُتغاضى عن مغامراته في رحلة عمره الطويلة بأسفارها المتعددة والمتنوعة.

خرجتُ من الاستوديو سعيداً ، والظرف الابيض الذي استلمته من ارشاك أظهرَ عدة نسخ من صورة مثيرة كنتُ فيها اجمل من شكلي الحقيقي.

موشكاً على الاستدارة عائداً لدائرتي كنتُ عندما شاهدت مجيد البابلي خارجاً من بار شريف وحداد. كان بنفس البدلة التي شاهدته وهاتف غازي لأولِّ مرة يدخلان المقهى البرازيلية.

كدتُ اهتف به من بعيد لكني تداركت الامر وانتظرت مرور باص مصلحة حجب رؤيتي.. قليلاً وهرعت اليه. انتصبت امامه معترضاً.. القيت التحية وانتظرت ذاكرته تستعيد متى واين شاهدني.

اخبرته عن حضوره الى المقهى وهاتف غازي يوماً.

ضحِك ضحكةَ السكارى - جاعلاً قسماته تعبِّر عن عدم فهمه لجملة خبرية لا يقرنها بسؤال:

- حضورنا دائم الى هناك. لا يعجب هاتف احتساءَ قهوة الا من يد كرّومي، عامل المقهى.

- لقد اشتريت كتابه فأعجبني، ولي رغبة شديدة للقائه.

انتشى لما قلت، وراح يتمايل كطفلٍ تمتدحه:

- كلُّ مَن يقرأ كتابات هذا الصعلوك يُعجَب به.

أطلقَ ضحكةً مجلجلة جعلت القريبين من المارة يطالعونه بدهشةٍ ويبتسمون بود.

استلَّ سيجارةً من علبة بغداد؛ ألقمها فمه وأشعلها بعود ثقاب ثم نظر لي بعينين دمعتا بتأثير الدخان دخلنا ساحة الوثبة وأخذني شمالاً باتجاه باب المعظم؛ يحدثني عن صديقه اين يعيش، وكيف.. يريل في الكلام ويتوقف نافثاً الدخان في وجهي.. وإذ استشعر تململي واخبرته بنفاذ الوقت قال كأنه يفتح باب كنز خبأه عني:

- ستجده في بار هافانا، في شارع ابي نواس.. هو الآن موجود حسب برنامجه اليومي.. ان رغبت برؤيته، فعجِّل.

عدتُ إلى الدائرة مسرعاً.

رجوتُ جرمانيوس متوسلاً منحي إجازة زمنية أخرى. "اجازة لساعة فقط، أعتقد أنها كافية لأخذ باص المصلحة نحو الباب الشرقي ومن هناك استطيع الترجّل الى البار حيث سأجده. نعم سأجده لا محال" قلت لجرمانوس؛ وأكملت: "لا اعتقد أن مجيد البابلي يخدعني. أفهمَني أنه سيشرب عصير من"شربت ابو ستار" بعدما يترك غرفته المُلحقة بحديقةِ بيتِ صديقٍ اسمه هادي السومري.".. أوضحتُ لجرمانوس ما اخبرني به مجيد البابلي من أن هاتف غازي تعرّف على السومري في برلين يوم كان يمارس الصحافة

ويعجب بما كان يكتبه من اعمدة صحفية شهيرة، وأنَّ الصديق عاد لبغداد ففتح دكاناً صغيراً في الشورجة، يبيع البهارات بأنواعها ثم تطورت عملية البيع داخل بغداد إلى تزويد مدن البلاد. حصل ذلك بسنين قليلة. وقال أيضاً أنهما ظلا على تواصل عبر الرسائل المتبادلة.. اقترح عليه ترك ألمانيا والعودة إلى العراق ليشاركه العمل لكنه وجد المقترح من عداد المستحيل فالسلطات الملكية ستزج به في السجن لكثرة ما كتب عنها وشتمها في مقالاته. ويوم عاد والشيخوخة تضرب اطنابها في جسده لم يجد من يأويه غير السومري.. حين وصل على هدي العنوان عرف ان صديقه توفي وخلف اولاداً تولوا التجارة بعده.. الاولاد رحبوا به حين مرَّ عليهم واعلموه بذكر أبيهم له على الدوام وتوصيتهم بخدمته إن جاءهم يوماً.. عرضوا عليه السكن في الطابق الثاني من البيت لكنه آثر الاكتفاء بغرفة موصدة في طرف حديقتهم التي بمساحة أربعمائة متر.. غرفة وجدها خيرَ مأوى. كانت مجهزة بمطبخ وحمام وتواليت خمنها خصصت يوم بني البيت وكان بمساحة الف متر لفلاحٍ أجير يخدم الحديقة... ولمّا كان بابُ الغرفة بمواجهة الحديقة ساوره اعتقاد أنْ سيؤثر على تحرِّك افراد العائلة. ومن جانبهم خمَّنَ الأولاد شعوره بالحرج عند دخوله وخروجه لذا

استحدثوا باباً تنفتح على الشارع، يستطيع الدخول والخروج دون علمهم؛ ودونما تأثير عليهم.

لم يجد جرمانوس بُدّاً من مجاراتي، فسمحَ على مضض:

- لا تضغط على الرجل في اسئلتك ولا تكن ضيفاً ثقيلاً.

****

عمال حدائق أمانة العاصمة يتناثرون في حديقة تتوسط جانبي شارع ابي نؤاس ودجلة على البعد يجري. سابلة باتجاه الكرخ يحثّون الخطى على جسر الجمهورية. هياكل كازينو الرفاه والصفراء والخضراء تنتصب بلا حركة لرواد أو عمال خدمة. أما الرصيف الذي عادة ما يعج بالمارة ليلاً كان خالياً إلا مِن شمس تنشر جسدها على اسفلته المطعَّم بأوراق نزعها الشجر المُعرِّش على امتداده وسيارات تتخاطف.

نعم كان هناك.

في الضلع الخلفي من بناية البار على الرصيف الأسمنتي عند منضدة يستريح عليها الندل في الليل كلما توفرت لهم فرصة الاستراحة. ربع عرق وقدح نصفه يظهر سائل حليبي مستحلب على منضدة تغطي سطحها قماشةٌ بيضاء ناصعة مع كاسةِ لبن وعلبةِ سجائر بغداد فوقها علبةُ كبريتٍ

بثلاث نجوم.

هرعت وبي شوق للقياه؛ وبي أسئلة تترى تبحث عن إجابات.

لم يفاجأ بحضوري، ولا أظهر ما ينُم عن امتعاض. فقط أطال النظر بي عندما انتصبتُ على مبعدة منه، وراحت عيناه تمسحاني من قمة رأسي وفرق شعري الجانبي حتى استقرت على لمعان حذائي. صالب عينيه على ربطة عنقي وابتسم.

كنت محظوظاً عندما أشار لي بالجلوس على كرسي.. ظهرُنا يلامس الحائط وأمامنا شريط ثيِّل اخضر وصف أشجار ليمون تدلَّت مع ثماره الصفراء مصابيح مُطفأة زرقاء وخضراء وحمراء بدت كما لو كانت دموعاً تتدلى من الأغصان.

- عشرةُ أيامٍ صرفتُها ابحثُ عنك.. كأنك زئبقٌ تُرى ولا تُلمس.

ابتسم:

- ألهذا الحد صعبت عليك ايها المهندم، مع اني لا أفارق هذا المكان. أجيئه وقت الضحى ولا اخرج منه إلا بعد الظهيرة. اذهب لأرتمي على السرير لبعض الوقت. اسرق من الزمن قيلولة وأعود من جديد.

- والكتابة؟

- لم اعد أكتب.. يدي لا تعينني على الكتابة.

خيبة أمل تقاطرت من عينيه وهو يطالع يداً اصابها شلل سببته جلطة دماغية؛ وجبهته أمطرت عرق اليأس. يأس عدم تثمينه أو هو القصد في عدم ايلائه اهمية؛ هو الصحفي البارع الباهر.

قلت اريد اللقاء بك مطولاً؛ فكتابك اوقعني في بئر من اسئلة ورغبة في اكتساب خبرة.. عليَّ الآن العودة.. متى اللقاء.

ابتسم، وفي عينيه زهو أزال قطرات اليأس وأفعمه بسعادة غائبة.

- بطل بيرة واحد، وبس.. احتسيه وارجع نشواناً من حيث أتيت.

- كلا.. كلا.. وضحكت.

- إذاً غداً.. وإنْ اعاقكَ عائقٌ فبعدَ غد. ستجدني هنا.. في هذا المكان.

ذلك المساء حمل عديد المواقف؛ المُسر منها والمحزن؛ المنعش والمربك؛ الباعث على التفاؤل أو مطلق شرارة التطير من القادم.

ذلك المساء جلستُ في مقهى "ابو حليمة"؛ شربتُ شاياً وخرجت.. في القلب نشوة، وفي الرأس حلم اللقاء بهاتف

غـازي وتخيـل مـا سأصـطاد مـن بحـيرة ذاكـرتـه معلومـات واحداث، واحصد من حقل اعوامه سنابل التجـارب وفاكـهـة المغامرات.

مـررت بيعقـوب بهنـام. ولحسـن حظـي وجدتـه بصـدريته البيضاء وشعره المنفوش كشعر آينشتاين، لكنـه هـذه المرة لم يستقبلني متذمراً بل تهلل لرؤيتي ادخل الصيدلية واطلب اقـراص خلاصـة البرتقـال. ضـحك: لازم اليـوم معـدتك مـا وصلها سـم جاسـم ابـو اللفـات؟.. قـدم لـي انبوبـة فيهـا عشـرة اقراص.

- دع القـرص يفـور حتـى النهايـة واشـربه بعـد ذلـك، وسـتنتعش.. أطلـق قهقهـة وهـو يجمـع الـدنانير واجزاءهـا مـن الانصـاف والارباـع مـن جـارور كانـت مبعثـرة فيـه.. يصـففها ويـروح يعـدّها ثـم يرزمهـا بخـيط مطـاطي ويعيـدها حزمـة واحـدة... يخـاطبني ناصـحاً: اعمـل وجباتـك بنفسـك خـير مـن تناول سموم المطاعم الموبوءة.. خليك حريص على صحتك، يا ولدي.

أخرج فأسمع صوت استغاثة مـن صـوت اعرفـه. اطـالع ثلّة من السكارى ينهالون على رجل يحاولون سـرقة مـا في جيبـه من نقود والرجل يستغيث. عندما اقتربت عرفتـه ألماز مصلح الفرفـوري، النزيـل المجـاور لغـرفتي. واتـتني تلـك اللحظـة

شجاعة خرافية فاندفعت اضرب هذا وادفع ذلك واذا بالجمع يهرب ويتركون المسكين بعين زرقاء وانف ينزف دماً.. شكرني وهو يردد بشيء من الطمأنينة: "هم زين ما خذوا دخل اليوم.. لولاك كنت رجعت بلا عشه ولا فطور باجر.. تعال تعشى ويّاي.".. حزنت مثلما سعدت لإنقاذه، فما يحصل عليه يوظفه وجبات أكل لا غير.

اعود الى النزل. أدخل غرفتي. ارمي بجسدي على السرير. افكر بما سأحصل عليه من سفر اسفار هاتف غازي غير المعلنة، افكر بالسؤال الذي سيكون فاتحاً للحديث. أفكر... وافكر؛ عندما سمعت صوت نحيب. نهضت متطيراً. فتحت الباب. كانت باب غرفة ألماز مشرعة والنحيب يأتي منها وثّمة مَن يحاول تهدئة المنتحب. خيّل لي أنه مات بتأثير ضربات السكارى الذين هاجموه.

عند الباب وجدته يتكوم في فراشه على الارض؛ يجهش بالبكاء وكريم الشرطي يحاول تهدئته:

- "ها!.. شنو؟! خير؟!" تساءلت بجزع.
- "زوجته المسكينة في طوزخرماتو على وشك الموت. تترجى حضوره." نطق كريم الشرطي بمواساة.

كانت عينا ألماز محمرتين وجاحظتين. كان كما يبدو بين تأنيب الضمير لترك اسرته وتخيَّل فقدان رفيقة العمر

غير راضية عنه؛ يعنِّف النفس بالبكاء والنحيب.

تركتُ كريم الشرطي يعدُّ له شاياً ويجلس معه يقلل من محنته.. دخلت غرفتي اعيش تخيل لقاء هاتف غازي.

بعد قليل نقراتٌ خفيفةٌ على الباب سحبتني من جولةِ التخيُّل.

مواربةُ البابِ اعلمتني بشخص "ابو ستار" بوجه يتهلل بهجة وعيناه تمطران سعادة وهو يرفع بيده صحن احتوى زلابية وبقلاوة وقطع كنافة مربعة.: "هنّيني استاذ هاتف، اليوم خابرني ستار امس احتفل بتخرجه من الجامعة.. الاول على دفعته.." هنيئاً لك يا عم. زرعت طيباً فحصدت طيباً؛ بارك اللّه فيك".. ومددت يدي التقط قطعة حلوى وانا اتهلل فرحاً لهذا المكافح الاصيل. "ادعو لك بالفرح انت كذلك."، وتركني ليطرق ابواب غرف النزل باباً فباباً يقدِّم حلوى البهجة ويتلقى التهاني.

بعد الساعة الواحدة ليلاً استيقظت فجأة على همهمة وتمتمات. أكنت أحلم أم هي همهمات حقيقية.. اصخت السمع قليلاً وكدت اعود للنوم؛ غير ان نخزة فضول جعلتني اترك السرير وافتح الباب. شاهدت حبوش وكريم الشرطي وكاكه هوشيار ومعهم بشير يقفون مجتمعين يتهامسون. ظننت ان ألماز توفي جراء حسرته وندمه على فراق زوجته،

لكن حبوش أجاب على كلمة "خيرا"التي رددتها مرات عديدة. قال بشيء من الحيرة ورغبة ان يكون أول من يعلمني" " ما سمعت الدربكة اللي حصلت؟". "لا كنت نايم، بعزِّ النوم"." مفرزة أمن صعدوا فوق وسحبوا بليغ من غرفته.. نزّلوه وهو ببجامته ولم يتركوه يلبس ملابسه."... سمعت كريم الشرطي يتمتم هامساً: "اعتقالات كثيرة حصلت هذي الايام.. والايام الجايّة اكثر.".

****

عند الحادية عشر من ضحى اليوم التالي تهللت قسماتُ وجهِ هاتف غازي لرؤيتي اعبّر عن سعادة وجوده كما وعدني.. كان انتهى من تناول نصف قارورة ربع العرق وخلَّف خمسة اعقاب سجائر في المنفضة الزجاجية، وبقي قليل من الجاجيك في الصحن الصيني الصغير.

وجدتها فرصة للولوج في حديث يمكن لهذا الفضاء الرائق من الضحى الجميل أن يجعله مسهباً، ويجعلني اتمتع بما لم اجده في الكتاب.. قلت:

- اين قضيت ما قبل وصولك الى اسطنبول؟.. وجدتك تشير الى حلب الشام اشارة سريعة.

أومأ برأسه، وقال:

- ما تقوله صحيح.. في كتب المذكرات لا ضرورة

لذكر الزمن حين لا يوجد ما يستحقه.. الأحداث المهمة والمهولة تصنع المواقف المهمة.

رفع علبة بغداد التي بجانب صحن الجاجيك. استل سيجارة اشعلها. سحب نفساً عميقاً واصابع كفه اليمنى ترتعش، قال:

- نعم، كنت في حلب.. كانت حلب قدري ووجهة وصلتها بعدما خرجت من بغداد وودعني جدّي خارج مدينة الفلوجة قبل ان يقفل عائداً الى بغداد ويسكب دمعة لفراقي.. طالبني للمرة الأخيرة أنْ لا استسلم للقدر إذا انقلب ولا أيأس من الزمن إنْ جفى.. صرفت سبعة اعوام في حلب. ورغمَ كونِها اعواماً طويلة إلا انها كانت تخلو من الاهمية حين اتذكرها... ما علق منها في الذاكرة يخص مومسات حلب. تلك الاعوام عملت في مقهى صاحبها اسمه عبد العظيم الحلبي ارشدني اليها عنوان حملني به صديق جدّي. قال يومها: خذه معك. اذا لم ينفعك فلا يضرك.

قلت مقاطعاً لئلاً تغيب اشارته عن مومسات حلب:

- ما لهنَّ مومسات حلب؟!

- كنت اسمع الكثير من رواد المقهى يتبادلون الاحاديث الفكهة والنكات على بدرية الحلبية بمؤخرتها المترجرجة وفاديا البلغارية بشعرها الاشقر وريم السودانية

ببشـرتها السـمراء اللميعـة، المومسـات الاكثـر شـهرة مـن مومسات ملاهـي المدينـة إلا انـي لم اجـرؤ يومـاً علـى الـدخول الى ملهى أو اتجـه الى بيـوت العـاهرات.. تحـذيرات جدي مـن الانتباه لكل خطوة اخطوها وكل مشروع اسعى للخوض فيه تقرع طبولها في أذني.. نصائح أمي وتضرعاتها في سلوك الدرب الصالح والابتعاد عن اولاد الحـرام تأخذ طريقها الى قلبي وعقلي. من هنا بقيت متحصِّناً من ارتكاب الأخطاء، بعيداً عن دروب الغواية. كان رفيق لي في العمل يقاربني العمر يجمع اجوره ليومين او ثلاثة ليذهب الى هناك يشبع غريزته ويستمتع بجسد هذه او تلك... لقد كنتُ ذا تجربة محدودة في الحياة. اغراني رفيقي في العمل باحاديثه، واصفاً اجسادهن وجمالهن وتأوهاتهن تحته فصاحبته مرّة كانت الاولى والأخيرة.

أخذني في ازقة ضيقة كانت فيها المومسات يتكومنَّ على دكات بيوت الدعارة بثياب مهلهلة. زنودهن عارية، وفتحة الثوب من جهة صدورهن مشرعة.. إنه جزء من الاغراء، ومصيدة للإيقاع بالعطشانين للجنس. كانت هياكلهن مفزعة؛ سواء البدينة منهن او النحيفة.. مررنا من أمام شِباك نظراتهن وحدقاتهن الغارقة في الكحل الاسود، من امام وجوههن الصفر وشفاههن المتورمات وقد اشبعنهنَّ

بصبغة شفاه احمر داكنة. من خلفنا سمعت احدهن تتلفظ باسم رفيقي فالتفتنا سويةً. ضحكت البدينة منهن وهي تطالعني بشبق وتسأله عني.. اخبرها انني عراقي واعمل في حلب منذ عام. انفرجت عيناها، ومعهما تباعدت الشفتين الملطختين بالصبغة الحمراء: يا شاب؛ هل تعرف فريدة ستيتيَّة؟

كنت اريد ان اجيب انها مغنية وراقصة في ملهى الميدان، واني شاهدتها كثيراً وهي متبوعة بالعشاق يلاحقونها بالريلات من سكناها حتى باب الملهى، ينتظرون ابتسامة منها او يأملون لقاء. كنت اريد ان اقول ان هناك راقصة أخرى اسمها بطّة وكلا الاثنين من حلب عندما طبطبت على ظهري احدى العاهرات المتكئآت على الحائط المثلم الطابوق عند حافة باب الدعارة. قالت وهي تشير لمومس تمضغ علكة بطريقة داعرة: هذي ابنة اخت فريدة ستيتية.. هل تنصحها بالذهاب الى بغداد؟

أفرغَ بقايا قدحِ العرق المستحلب في جوفه. اتبعها بملعقة جاجيك ثم سحب نفساً أخيراً من سيجارته قبل تمريغ عقبها في المنفضة. اعتذر عن توقف حديثه قبل ان يواصل:

- ما تبقى من الاحداث ليس بالأهمية. فالعامل يستيقظ صباحاً. يصرف وقته الى ما بعد الظهيرة يأكل غداء بسيط

ثـم يأخـذ فـترة قيلولـة ، وبعـدها يعـود للخدمـة حتـى اقـتراب منتصف الليل؛ عامل كهذا لن تجد ما لديه مهمّاً ولا هو يعتد بهكذا زمن. كانت حياةً مُروَّضةً كما يروَّض حصان على حراثة ارض يجدها أفضل من أن يقاد لحرب يمزقه فيها البارود ويموت، تملأ منخريه رائحة الحرائق والاجساد المسلوخة والمتعفنة.

رفع يده يطلب حضور النادل.. دفع الحساب وخرجنا.

خرجنا من الباب العريض؛ من تحت اللافتة الحديدية البيضاء المستطيلة وقد خطت على امتدادها كلمة "هـــافــانـــــا" طويلةً بينما صغر حجم كلمة "بار" المخطوطة في الزاوية العليا من جهة اليمين. أما الزاوية العليا من جهة الشمال فكانت لكلمة(**BAR**) بالحروف الافرنجية.

سلكنا الرصيف الايمن من شارع ابي نؤاس المظلل بهياكل الفنادق العالية واشجار الكالبتوس الوارفة المحتفية بخضرة اوراقها السيفية الطرية، متجهين لفم شارع الرشيد. يمر باصان من باصات مصلحة نقل الركاب يحملان طلبة مرحلة متوسطة يغنون ويدبكون ويضربون على دفوف - رؤوس بعضهم تتدلى من النوافذ المفتوحة، وبعض في الداخل يرقصون ويغنون "لا خبر.. لا جفية" التي تبارت اذاعة بغداد في

اعادتها لعشرات المرات يومياً، حتى غدت الاغنية الاولى على السنة العراقيين. يرددونها بمتعة ويدخلون بستان الحب عبر كلمات تقطر عتاباً لمحب تجنّى على حبيبه فاختار غيره وتجاهله.

بطيء في حركته، ارتعاش في كفّه الايمن. يلهث كلما قطعنا أمتاراً. ذلك جعلني ارفع يدي لسيارة تكسي لكنه فضَّلَ السير مترجلين.

- هذه فرصة ان نلتقي، فأنت شاب تهبني الشجاعة على السير.

ثم ضحك، ومعه ضحكت.

ولكي استفيد من كل خطوة نقطعها بادرت بالكلام:

- لقد انتهيت من قراءة الكتاب؛ غير أني شعرتُ انه ناقص غير مكتمل، وانك بقصد حذفت ما يكمله ويجعل القارئ يشعر بأهميته فهو لا يُعد سيرة ذاتية مليئة بالمغامرات بل كتاب دراسة تجارب، وطرق لكيفية العيش دون نكوص ودون تحيّر.. كتاب يمنح القارئ مساراً يدفعه للتكيف مع المواقف، عسيرها ويسيرها مثلما يرسم فضاءً يمنحه حكم التجاوز والهروب إلى أمام حين يتسلل اليأس.

قال وقد شدد على اختيار كلمات ذات وقع ومعنى لا تقبل تأويلاً آخر:

- هناك ما يجبرنا على الكتمان لأنَّ حيانَ البوح مؤجل وإفضائه في غير وقته قد يؤدي إلى الويل ، قد يربك معادلة منتظمة فيفككها ، قد يخلق ظرفاً يؤدي للتهلكة ، وقتذاك تنهار المشاريع ويغدو الندم من عِداد البله والسفه والجنون... أن تقول دون أن تعي النتائج يعني ارتكاب حماقة. أن تضع خطوة في غير محلِّها معناه اغتيال زمن أردته صديقاً فغدرت به وإن لم تقصد.. كان يمكن ان أقول كل شيء شاهدته وواجهته وانغمست فيه لو كنت وأنا اكتب سِفري هذا الذي تراه منقوصاً في باريس مثلا أو لندن أو امستردام وغيرها من البلدان التي تعيش حرية الرأي. لكنني في بلدٍ الافصاحُ فيه ملغوم بالخفايا ، والحريةُ فتاة مسلوبة الارادة.. نحن نعيش في واقعٍ مشوّه؛ المثقف فيه مَنبت خشية ، والكلمةُ تواجه فخاخاً وشراكاً لا عدَّ لها.

لم اجد بداً من الانتقال لحديث آخر وأنا المح شرراً في عينيه؛ وكفَّه المطعونة بالشلل يحاول تحريكها فيشعر بعجز.. ابصر الشَّرَر يتبدد؛ تحلُّ محلَّه غيومُ البؤس، فأقول:

- انهيتَ كتابَك بالخروج من المانيا بعدما انتهت الحرب وخشيت اتهامَكَ بما ليس فيك فاين قضيت السنين التالية؟

- السنين التالية استمرت متواصلة في الرحيل والتجوال.. سافرت الى باريس بجواز مزور خشية امتلاكهم معلومات

عـني واعتقـالي حالمـا اطـأ ارضـهم وربمـا اتهـامي بالعمالـة للنازيـة. تلـك الايـام كـانوا يلاحقـون، سـراً وعلانيـة، رمـوزَ النظـام النـازي ممـن لم يسـقط بقبضـتهم ويحـاكم. وكـان شارل ديغول بقامته الطويلة جداً ونحافته قائداً محرراً تصفق له الأكف وتهتف الحناجر متى القى خطاباً وأنى شوهد في مناسبة وطنية او افتتاح مشروع.. عجبتُ لبرج ايفل الشامخ ما زال منتصباً كهوية مُبهرة لباريس، ودهشت كيف ان هتلر لم ينتقم بتدمير هذا الصرح الرامز للكبرياء والاستفادة من حديده لصناعة آلات دماره من طائرات ودبابات وعربات ودروع.. لحسن حظ باريس انها احتُلَّت في أول الحرب بلا قتال يذكر فظلت منشآتها الحضرية وابنيتها الباعثة على اثارة الخيال لم تمس؛ على عكس لندن التي توجَّهتُ اليها بعد عامين فوجدتها تُرمِّم كيانَها وتُطبِّب جراحها وتُعيد ما هُدِم ودُمِّر فقد قسى عليها هتلر قسوة مريعة.

عبرنا الى الجانب الثاني من الشارع بعدما مرَّ باص المصلحة ذو الطابقين. نظر اليه هاتف طويلاً، وقال:

- كلَّما مرَّ باص بطابقين هنا تذكرت الباص ذا الطابقين هناك.

- أين؛ هناك؟

- في برلين. كانت مشاهدتي لباص بطابقين في

الثلاثينات مبعث دهشة. كانت شوارع برلين تعج بمثله؛ تُصنِّعه شركة مان. كان قريناً للترام الذي يربط احياء العاصمة.

زفر بعمق؛ وواصل:

- لقد اعجبتني باريس كثيراً؛ وشكرت السماء لاحتفاظها بجمالها فلم تمزقها مخالب هتلر. لقد اطلعت هناك على مقاهٍ وامكنة كان المفكرون والفلاسفة والادباء الألمان المنفيون يرتادونها ويتبادلون اخبار الوطن ويعلِّقون على ما جرى وما يجري، ويرسمون المستقبل وكيف يكون؛ تسيطر على رؤاهم غيمةُ السوداوية ومطرُ التشاؤم.. قرأت ما قاله الروائي النمساوي يوزيف روت في رسالة بعثها لمواطنه ستيفان زيفايج في شباط ١٩٣٣ واطلعني عليها في احد لقاءاتنا يوم كنا نلتقي في بيته بفينا يعلن يأسه ويتنبأ بكوارث ستحل على العالم "إنَّ البربرية نجحت في السيطرة على الحكم، فلا توهِم نفسَك يا صاحبي، فالجحيمُ هو الذي يحكم اليوم".. هذه النبوءة تحققت بعد اثنتي عشر عاماً. استحالت المانيا جحيماً بفعل مجنون توهم العظمة المطلقة.

لقد التقيت هذا الروائي المثقف في النمسا.. منه تعلَّمتُ انَّ الحياةَ مواقف؛ وأنَّ النظر إلى أمام خيرٌ من النظر الى الخلف.

فالخلف في عُرفه الثقافي مرَّ وانتهى وغدا تاريخاً أمَّا الامام فاستشراف لما سيأتي. ووحده ذو النظرة الثاقبة والعقل الفعَّال مَن يستشرف القادم. كنتُ مُصمِّماً على اقتفاء خطو ستيفان والتحلي بصفاته وسلوكه؛ لكن الحياة بتقلباتها تحتِّم في كثير من الاحيان سلوكَ مسارٍ قد لا ترتضيه لكنَّك مُجبرٌ عليه.

في العام ١٩٤٧ كنتُ لم أزل اعيش في باريس. لكن ما جرحني هناك ومزَّق هنائي الاخبار التي شرعت تنشر في الصحف وتحتل العناوين الرئيسية في صفحاتها الاولى.

- تقصد الدمار الذي خلَّفته الحرب وكيفية تجاوزه؟.. سألته.

- لا.. هذا تجاوزوه هُم وجعلوه ماضياً. انما اخبار اندفاع اليهود إلى فلسطين بحثٍّ من الصهيونية التي انبرت تستعطف الغرب وتخرج منهم بوعد بلفور. وعدٌ قيلَ وحُقِّق. نقرأ عن بواخر تنطلق من الموانئ الاوربية، نسمع هدير الطائرات تخلِّف المطار تحمل الاسر اليهودية من مختلف الجنسيات: بولنديون وروس وهنغاريون، صرب ويوغسلاف وجرمان، ينزلون في مينائي حيفا ويافاً.. تتناقل الأخبار هجمات الهاغانا الصهيونية على الفلسطينيين العُزَّل، تقتل وتُهجِّر وترعب وتروِّع.. الحكومات العربية عاجزة ومتخاذلة وذليلة.. هيئة

الأمـم المتحـدة المشـكّلة حـديثاً علـى أنقـاض عصـبة الأمـم تتفـرج؛ بـل تتخـذ الصـمت تـارة وتـارة أخـرى تطالـب بتهدئـة الحـال. ردةُ فعـل الفلسـطينيين وهـم يبصـرون بيـوتهم تُسـلَب ومـزارعهم تُصـادَر تتّسـم بـالعجز؛ ولـيس لـردّة الفعـل المسـلحة البائسـة والضـعيفة ذكـر.. كانـت البنـادق محـدودة والعتـاد ضـئيل.. صـراخ الأطفـال الفلسـطينيين ورعـب النسـاء وعجـز الشيوخ أعلى صوتاً مـن لعلعـة بنـادق المقاومـة. الشـعب العربـي يتابع بـذهول وعجـز. سـايكس بيكـو مزّقتـه شـعوباً وعوائـلَ ورسمت حدوداً صارمة، جعلت البلدان كالزنـازين الكـبيرة. شـعوب تتقـافز كـالقِردة في الأقفـاص وقـد نَصَّـبت علـيهم سجانين فرحوا لمصطلح حكّام أغدقها عليهم المستعمرون. الإدارة البريطانيـة المهيمنـة علـى فلسـطين تغض الطـرف عـن أفعال اليهود وجرائمهم.. اكتب مقالة انشرها باسـم مسـتعار في الصـفحة السياسـية لجريـدة اللومونـد أديـنُ فيهـا لامبـالاة الـدول الـتي خرجـت مـن الحـرب جريحـة. أذكّـرهم بفضـائع هتلـر مـع اليهـود واقرنهـا بفضـائع الصـهيونية وسـط صـمتهم عمّـا ترتكـب.. أُعنِّـف جـان بـول سـارتر وسـيمون دي بوفـوار عنـدما أجـدهما جالسـين عنـد منضـدة ومَـن معهـم في صـالة مقهـى "لـي دومـاغو" في حـي "سـان جيرمـان ديـبري" يرتشـفون القهوة ويقرؤون عنـاوين الصـحف دون أيـة علامـة امتعـاض او

احتجاج لما تفعله الصهيونية. سارتر يجيبني ببرود: "إنهم أمّة لابدَّ لهم من وطن وهوية يتمسكون بها. لقد ذاقوا مرارة القتل والتعذيب والملاحقة ومن الضروري تعايش الشعبين الفلسطيني والاسرائيلي .". يقول ذلك فأحتقن واصرخ بوجهه موشكاً على قذف قدح الماء الذي أمامي بوجهه: "تمنحهم هويةً أيها الفيلسوف وتمحقَ شعباً بريئاً وآمناً؟!.. أيُّ عُرفٍ هذا الذي تعلنه وتجاهر به؟.

يطالعني بعينين فاترتين وكئيبتين:

- ليس لهما إلا أن يتعايشا في دولة واحدة، فكلاهما عانى الظلم ولابد لهما من الجنوح نحو السلام.

تأتي الاخبار أن أذناب المستعمر من الحكام في بغداد يدفعون اليهود العراقيين الى الرحيل. يسقطون جنسياتهم ويتركون الموتورين من عامة الناس يغيرون على بيوتهم فيسرقون ويعتدون ويرعبون. حتى جعلوا العائلات اليهودية تشعر أن لا مناص من الهجرة. وكان اغلبهم كما فهمت غير راضين على ترك بغداد؛ بل مجبرين ومهددين.. ولم يقتصر هذا على يهود العراق انما تبارت الحكومات العربية على طرد يهود بلدانهم.. لعبة دولية كبيرة كانت فيها انظمتنا تنفذ بلا اعتراض؛ ولا حتى تردد.

أسمع كل ذلك وأقرأ في الصحف الفرنسية وما يدخل

باريس من صحف دول مجاورة... وكان مِن المغتربين العرب مَن يقف مُحتَّجاً على الفرنسيين لارتكابهم خطأً تاريخياً فادحاً بسماحهم ليهود فرنسا بالهجرة على حساب شعب صاحب ارض وحق فيتلقى التهكّم وهو يسمع الفرنسيين يقولون: "حُكّامُكم اكثر من حكّامِنا اندفاعاً لفتح الطريق ليهود بلدانكم للذهاب الى فلسطين"... مَرارات تعقبها مرارات؛ والمواطن صاغر. واحتجاجنا عبر القلم والورقة لا تلقى صدى من شعوبنا المستكينة، أمّا حكوماتنا فتحسب ما نقول هذراً يأتي على صفحات جرائد ستتحول في اليوم التالي اغلفةً تُلفُّ بها الاحذية العتيقة أو تُرمى الى المزابل.

توقَّف قليلاً ليلتقط انفاسه.. نظر بعينين حزينتين كأنه يريدُ قولَ كلامٍ يعبر عن ألم دفين:

- كنت آمل أن اكتب الجزء الثاني من هذا الكتاب.. الجزء الذي يتعلق ببلداننا العربية.

- هل كانت لك محطات عربية؛ أقصد هل تجد فيها ما هو مهم يفيد القارئ؟

- نعم.. مصر كانت محطة مُهمّة.. وصلتها في العام ١٩٥٦. كانت القاهرة يومها تعيش المد القومي وقد خرجت مصر منتصرة من العدوان الثلاثي؛ استحالت قلعة للثورة

القومية. انتعش الفن وتوسع الأدب.. الصحافة أخذت دورَها في جعل مصر قلب نابض للعرب؛ ومعها كان عبد الناصر يلقي الخطب النارية من القاهرة فتتوهج العواصم العربية بالتظاهرات. ترتعش الحكومات البوليسية ، تخشى مدافعه الإعلامية. "صوت العرب من القاهرة" إذاعة ترهف لها مسامع العرب بينما تناهضها إذاعات الحكومات المناهضة. يهرب ذوو الأفكار القومية والمنادين بالديمقراطية والحرية من أوطانهم صوب مصر.

كان نجيب محفوظ منهمكاً في كتابة روايته بين القصرين. نلتقي في مقهى الفيشاوي فيسر لي انه لن يكتفي بإصدار بين القصرين إنما ينوي جعلها ثلاثية.. وفي جلسةٍ خاصة من ليلة رمضانية كنا في المقهى وقد تجاوز الليل منتصفه اقترح ان ننهض لنذهب راجلين على رصيف الكورنيش. من بعيد كانت تصلنا ابتهالات حلقات الذكر وأصوات المنشدين على إيقاع ضربات الصنوج. كان النيل ليلتها ينصت لهمسِنا ويرهف سمعَه لما سيسرني محفوظ به. "لقد انتهيت من رواية أسميتها أولاد حارتنا." مال على أذني هامساً ، وواصل: "أحدس ستكون مثار جدل إن انتبهوا لشفراتها وقرأوا ما وراء سطورها. محمد حسنين هيكل قال هاتها ، سننشرها على حلقات..... تعرفتُ من خلال لقائي

وجلوسي المتكرر في مقهى الفيشاوي على سلامة موسى.

- حقّاً التقيت سلامة موسى؟ هتفتُ لسماع الاسم.. إنّي لمعجب بهذا الكاتب المتنوِّر الشجاع.

- "نعم؛ واسع الاطلاع كان. خلوق وشجاع.. أخذتُ اقرأ ما ينشره وأُكبر فيه تنويره ومشروعه الحضاري بدعوة الشباب إلى العلم و المعرفة والثورة على العادات وتجاوز كل ما هو سلبي في الواقع المصري ومن ورائه الواقع العربي مُعرِّجاً بأمثلة تدعم رأياً يقوله وأفكاراً يعلنها مستوحاة من حضارات الشعوب وتوهِّج رموزهم من اجل مستقبل نيِّر تمسك به أكف الشباب للبناء المتواصل.. أعجب لسلامة وهو يواجه النقد والتجريح والتهديد من اجل ثنيه عن طرح أفكاره وإيقاف مقالاته التحريضية على نهل العلم واكتساب المعرفة والمغامرة من اجل تحقيق هدف إنساني أسمى.

في مصر نشرتُ أكثر من مقال وطرحتُ أكثر من رأي.. وجدت اسمي يسبق مقالاتي. كتبت بعض مقالات نشرت في صفحات مختلفة من صحيفة الأهرام.انتبهت بعد عدد منها اتخاذها الصفحة الثانية.. وفي يوم قررت الذهاب لمقر الجريدة رحب بي محمد حسنين هيكل وكان قد استلم إدارة الصحيفة توّاً.. اقترح وقتها أن يكون لي عمود يومي

لكني فضلته أسبوعياً، كرَّسته للوحدة العربية وضرورة مناهضة العدوان بالفكر والقراءة الدائمة عارضاً تجارب الأمم من خلال ما كان ضمن نطاق تجربتي او مما قرأت.. بين الأسطر المكتوبة كنت أبث شفرات التحريض واستنهض طاقة الشعب العربي مُشدداً على الشباب.. كنتُ ما أنْ اقرأ خبر تعرض الرموز السياسة الثورية في بلداننا وبلدان العالم إلى السجون أو التضييق والملاحقة حتى أُكرِّس عمودي برمته للوقوف إلى جانبه موجهاً سهامي نحو السلطات الجائرة واجهزتها القمعية السادية. ذلك جعل العمود مهماً، ينتظره القراء بشغف.

قلتُ:

- سمعتك في اول يوم رأيتك وأنت جالس في المقهى البرازيلية مع صديقك مجيد البابلي تتحدث عن اليمن ووجودك هناك، وتردد "لابد من صنعاء وإن طال السفر. فهل كانت صنعاء واحدة من محطاتك؟

ابتسم من فوره.. ابتسم وقد رفرفت رموشُه واتسعت عيناه بحدقتين يشوبهما بياض الشيخوخة:

- نعم.. وصلت صنعاء في صيف العام ١٩٦٢.. كانت اليمن يومها بلداً خارجاً توّاً من عصور الجاهلية.. ما تركته عائلة حميد الدين من تراجع تاريخي أثّر تأثيراً ثقيلاً على

البلـد.. عائلـة حنَّطـت الـيمن وأخرجتـه مـن قـاموس البلـدان العاشـقة للنـور.. كـان الـيمن كمـا قرأنـا عنـه وسمعنـا ممـا كـــان يقصـــه القصـــخونات في مقـــاهي بغـــداد عنـــه مهـــدَ الحضارات وجزيرةَ حلمٍ لمن يبغي العيش الوثير.

- وما الذي دعاك للذهاب الى هناك؟

- الاطـلاع علـى مُجريـات الثـورة.. كنـتُ ايضـاً توّاقـاً لمشـاهدة مـا كـان يجـري للجنـود المصـريين مـن ردّة فعـل اليمنيين على الارض.

مـرت ثـلاث نسـوة جمـيلات كغـزلان البـوادي يرتـدين العبـاءات ويشـتمن سـائق اطلـق نفـير منبـه سـيارته العـالي فتسبب في ذعرهن وقفزهنَّ كالقطط المرعوبات.

واصل حديثه:

- هبطـتُ في مطـار صنعاء وكـان وقـت مـا بعـد الظهـر ممطـراً. جريـان سـيل ميـاه يسـمع منحـدراً مـن الجبـل شمـال المطـار. كـان شـرطة المطـار يرتـدون البـدلات الكـاكية غـير المرتبـة أو المكويـة، بـلا طاقيـات أو بيريـات علـى رؤوسـهم. وكـان مشـهد وجـود القـادمين أو الموشـكين علـى الرحيـل أقـرب إلى سـوق شـعبي يتقـاطع فيـه الأشـخاص وهـم يحملـون حقـائبهم علـى ظهـورهم أو يجرونهـا جـراً في ارض متربـة وتتبعثـر فيهـا الأوراق المدعوكـة وأغلفـة قطـع الحلـوى

والسكاكر وأعقاب السجائر مع ان هناك حاويات وضعت لرمي مثل هذه المخلفات فيها. لم تكن الحضارة قد وصلتهم؛ فما فعلته سنوات حكم حميد الدين ليس باليسر التخلّص منها وسلوك ما يناهضها بسهولة.

كانت صورة عبد اللّه السلال بشوارب مشذبة ولحية تشبه لحية البدوي في إطار خشبي مزجج ببدلته العسكرية ورتبة المشير على كتفيه. كانت اليمن يومها تحاول تجاوز حكم الإمامة والإمام محمد البدر حميد الدين فرَّ إلى المملكة السعودية يستنجد بملكها فيما المملكة تدق ناقوس الخطر على نظامها خشية تسلل ضوء الجمهورية المناهض لها حكماً ودستوراً... كانت الأخبار تلك الأيام نقلت تشكيل معارضة مُسلحة للجمهورية. رجالُها أتباع الإمام وأسلحتها غربية بمالٍ سعودي. السعوديون يصرّحون إنهم يعاضدون إخوانهم اليمنيين في مقارعة الجمهورية الممهدة لقدوم الشيوعية. "كلمةُ حقٍّ يراد بها باطل" قول ردَّده عبد اللّه السلال كثيراً وهو يواجه الصحفيين ويستمع لهذا الاتهام الذي هو استفهام يرددونه سعياً للوقوف على اجابة وافية.

إنَّ عهودَ الإمامةِ المتوارثةِ المُتلبّسة بلباس الدين لم تجلب لليمن غير الذل والهوان والخرافات. خرافات اطاحت لقرون

بعقل الإنسان اليمني وقدرته على الخلق والابتكار. لو زرتَ صنعاء آنذاك لوجدتها عاصمة تعيش القرون الأولى بعيداً عن روح العصر، ومدن لا تنتمي لمدن زمانها؛ فلا طُرق مُعبدة ولا كهرباء ولا وسائل حضرية للتنقل. المدارس بعدد أصابع اليد والمؤسسة العسكرية فقيرة لا همَّ لها سوى خدمة الإمام، والجيش يطلق عليه اسم الجيش الحافي.. القبائل تدير نفسَها بنفسِها. والإمام خشية من ثورة القبائل يأخذ من كل شيخ قبيلة ولداً يعيش تحت سطوته، في بيت مُلحق بقصره. ولد بمثابة رهينة تذكّر شيخ القبيلة حين يفكر بالثورة أو الاحتجاج أنَّ له ابناً سيقطع السيّاف رأسه برفّة رمش.

- اراكَ متشائماً.. أحقّاً هكذا كان حال اليمن؟
- بل وأكثر.
- حدثني عن الأكثر.
- نزلتُ في فندق "البيضاء" المتواضع، ونمت ليلة مرعبة على لسعات حشرة أو حشرات متخفّية في طيّات الفراش، وجدتني وليمة امتصت من دمي الكثير. ونهضت صباحاً على بقع حمراء محتقنة تتوزع جسدي وتجبرني على حكِّها حدَّ انسلاخ الجلد. وحين شكوت لصاحب الفندق راح يبرر الحال ويحتمل أنها الحساسية داهمتني بسبب تغيّر المناخ والأماكن.. كدتُ اصدق كلامه لولا العامل الصبي

المنهمك في جمع أغصان وأوراق القات المنتشرة على أرضية الصالة ووضعها في حاوية معدنية مخصصة للقمامة. هذا الصبي لحقني وهو يرفع الحاوية ويخرج ليرميها عند مجمع قمامة في نهاية الشارع. اسمع من يناديني: يا أستاذ؛ يا أستاذ.".. التفت فأرتني قسماته كمن يحمل لي خبراً. فضّل مكالمتي وهو يتلفت بحذر: "ما حدث لك ليس حساسية؛ هذه حشرة تختا كالوس. أفرشة الفندق مليئة بها؛ فلا تصدق كلام هذا الكذاب، واحذره.".. هذه نصيحة مجانية وإخبار مهم. لكن ما الذي دعا الصبي للحاق بي وإفشاء حقيقة تهرَّب منها صاحب الفندق؟.. الجواب جاء على مشهد أبصرت فيه صاحب الفندق يهين الصبي أمام النزلاء، والصبي لا قدرة له على الرد خشية فقدانه العمل. فهمت لاحقاً أنه يتيم الأب، وتوسَّلت الأم كثيراً من اجل اعالتها بما يحصل عليه من أجر، على قلته وضآلته.

صرفتُ اكثر من عامين في صنعاء اكتب مقالات تحرِّض على رفض التشبُّث بالماضي وضرورة التعاطي مع الحاضر. إنَّ وضع الخطط الموضوعية للمستقبل كفيل برسم حياة مستقرة وبناء وطن متحضر.. إن لم يكن الحاضر مثابة للقفز الواثق الى المستقبل الهانئ فلا أمل يُرتجى ولا تطلعات.. فقط اجترار زمني لموات لا اخضرار فيه ولا حياة.. كنتُ كمن يكتب في

الهواء، كمن يطلق صراخه في عُلبة مغلقة. كان معظم اليمنيين غارقين في رتابتهم. نبتة القات اللعينة تسرق حماستَهم للتغيير، تجعل منهم اسرى للصمت والتكبّل بأصفاد السكون.. الصحف تظهر في العاصمة فقط، والاذاعة لا تتجاوز جبل نُقُم التي تصبّحُه صنعاء وتمسّيه منذ الأزل. كانت البرقيات القادمة من الوحدات العسكرية في جبال صعدة المحاذية للملكة السعودية تحمل اخبار القتلى من الجنود. القتلى اغلبهم عسكريون مصريون بعثهم عبد الناصر لدعم الجمهورية مُجسداً توجهه القومي الوحدوي.. أتباع الامام يرفضون الجمهورية، يتطيّرون من الحرية. ينادون بالعودة الى أودية العتمة وكهوف التقهقر وأحجبة الخرافة متعللين بواجب الدفاع عن الدين.

ويوم اكتشفتُ أنَّ ما اكتب لا يعدو اسطرَ تملأ ورق الجرائد الاصفر وأن الجرائد تستحيل مزقاً يضعون عليها قطع الخبز في المطاعم الصغيرة وأنَّ شعبا مُعظمه لا يدرك أهمية الحرية ولا يرغب بوضع كفّه بكفِّها والسير الى بيت النور قررتُ مغادرة البلاد.. جعلت من بيروت محطةً اخرى للعيش والعمل، وربما الاستقرار. وما العراق إلا وطن أطلُّ عليه من نافذةِ الشوق والطفولة البعيدة.

****

في اليوم التالي كان لقاؤنا بعد الظهر.. لم يكن لدي دوام في الكلية. استفدت من تلك الظهيرة التي تحتفي بها الجامعة المستنصرية بمناسبة مرور ستة عشر عاماً على تأسيسها فحضرت مبتدأ الحفل، وصرفتُ ساعةً أتبادل الاحاديث وشرب العصائر في الصالة خارج قاعة الاحتفال قبل ان استأجر سيارة تأخذني الى ابي نؤاس.

هناك وجدته قد انتهى من تناول ربع العرق وقضى بعض الوقت ينتظرني مُتحدّثاً مع صاحب البار. كان صاحب البار يستمتع بالجلوس معه حين تخف حركة الزبائن. يرى فيه شخصاً مثقفاً؛ له خفة الشاب اليافع في الحركة رغم شيخوخته؛ وفي حديثه هدوء الطبيعة إبان فصل الربيع.

- هل تتناول الغداء ام ننهض؟... سألني بقلب يمطر وداً.

- لا.. تناولت الكثير من المعجنات وشربت ما يكفي من العصائر.

- إذاً ننهض لنتمشى.

لم نتمشَّ بل ركبنا باص المصلحة، وهبطنا حسب طلبه عند "خان مرجان". توقف يطالعه؛ كما لو كان يستذكر. صوَّب نظره إليَّ راغباً في اعطائي معلومة بغية الفائدة: كان الاتراك يطلقون عليه خان الاورتمة، أي الخان المغطى بسقف. استخدموه كعنبر للجمارك.

خرجنا من دكنة شارع الرشيد متخذين الطريق باتجاه جسر الشهداء. وفيما كنا نخطو جاءنا صوت من خلفنا :"استاذ هاتف.. استاذ هاتف". التفتنا سوية فاذا به كريم الشرطي وقد ظهر من باب المتحف البغدادي.. توجّه نحو هاتف يسلم عليه بحرارة ويعتذر عن أمرٍ لم افهمه بينما هاتف يطمئنه ويشكره على نبل مشاعره، يردد "ماكو شي.. لا.. ماكو شي.. كلام عادي جرى بينّا. ربع ساعة وخرجت"... وعاد كريم وهو يطالع مُحدّثي بنظرة إعجاب مشوبةً بمواساة.

بعد خطوات افهمني أنَّ شعبةَ أمن الكرادة استدعته وألقى عليه رئيسُها العقيد أسئلةً فهِمَ منها أنهم يراقبون تحركاته، وانّه تحت عدسةِ أنظارهم أيَنما سار أو جلس.

كان كلّما قطعنا مسافة يتوقَّف لالتقاط أنفاسه.. أترجمُ تراجع قدرته على مواصلة مشوار الحياة.

دخلنا سوق السراي المسقَّف من مدخله الجنوبي تاركين جسرَ الشهداء وراءنا. مررنا بمحلاتِ بيع القرطاسية والكتب والملازم المطبوعة لطلبة الثانوية والجامعات. وقفنا عند كبّة الكبّة. عزمني على تناول صحن وقوفاً. صديقه مجيد البابلي هو مَن عرَّفه على هذا المطعم السفري. ومن يومها كلَّما مرَّ قريباً من المكان تناول الكبّة كوجبة

لذيذة وشهية.

خرجنا من خثرةِ السوق فوجدنا انفسنا في الفضاء المشمس وهواء آذار الرطب البارد يضرب وجوهنا بنسمات فيها من اللطافة ما يحث المارّة على التوقف والنهل من تموجِّها الطري.

التفت يميناً مُطالعاً شارع المتنبي. كان الشارع ضاجّاً بالمتبضعين من قرطاسية وكتب ومعدّات تصوير فوتوغرافي، ومحلات تعرض عدد من الطابعات مختلفة الاحجام باللغات العربية والانكليزية.

دار بأنظاره في ما حوله.. رفع يده؛ أشار بسبابته إلى برج القشلة:

- انظر.. تلكَ ساعة القشلة.. بينها وبين جدّي جسرٌ من ذكريات. ذكريات بنيت على احداث.. يقولون أن صفحة حياة الإنسان مليئة بأعوامه. أين ولد وكيف عاش. ماذا حدث له وما جرى لغيره وكان على تماس معه.. يقولون ان أيَّ انسان حين يبلغ الشيخوخة يتمنّى لو عادت عربة الأعوام للوراء. لو عادت يقول لن أعيش ما عشت، ولن ارتكب ما ارتكبت. سأجعل من مسيرتي مسيرةً تكافئ خطى الأنبياء. وهو بهذا يجانب الحقيقة. فلو أعادها له اللّٰه فسيرتكب أخطاء ثانية ويتجنّى على نفسه جنايات جُدد.

كان جدّي من الذين استقدمهم مدحت باشا لتنصيب هذه الساعة.. أُريدَ لهذه الساعة ان تُعلن الزمن بالأرقام العربية والإفرنجية، يصاحبها الصوت، تدقُّ مع بدء كلِّ ساعة عدد ساعات الزمن اليومي بحيث يسمعها القاصي والداني من البغداديين وإن كان هدف تنصيبها هو إعلام الجنود بالوقت.. وقت النهوض فجراً للتدريب، وقت تناول الوجبات، وقت التوجه الى الرقاد ليلاً.

مدحت باشا لم يعرف جدّي إنَّما صوناي يشار أحد مستشاريه المقربين هو من أشار عليه. قال وهو يحني مقدمة جسده ويميل طربوشه الأحمر الى أمام وتهبط لحيته الشيباء حتى تمس التطريز المذهب لقفطانه الزيتوني: هذا الفنان يا مولانا هو واحد من أمهر خمسة يجيدون فكَّ وتركيبَ الساعات بمجمل تروسِها وعتلاتها وصامولاتها مثلما يجيدون تصليحها بزمن قياسي بحيث لا يشعر الناس بعطلِها. لقد كان ضمن بعثةٍ تدربت في باريس على تفكيكِ الساعات الجدارية وتنصيبها قبل أربعة أعوام. عاد متفوقاً على أساتذته الفرنسيين. ولحذقه ونباهته ودِقَّته أولته السلطاتُ الكنسية الباريسية مهمّة تنصيب الساعة الكبيرة في الرواق الثاني لكنيسة نوتردام؛ واستضافته بلدية لندن في حلِّ مُعضلة الزيادة الحثيثة لساعات برج بك بن.

صرف جدّي ثلاثة أسابيع في تركيب أجزاءِ الساعة على قاعدة. ربط العقارب من الجهات الأربع لِقمِّة البرج بالأعمدة الحديدية المسننة وجعلها تتصل بالتروس فتدور على ميناء أبيض كالثلج بحركة تراتبية دقيقة.

قلتُ مظهراً حسرتي:

- الساعة الآن كما تراها متوقفة وعقاربها مُحنَّطة، وبرجها بقامته العالية أُهمل.. أبنية الحكومة صارت مجرد هياكلَ تحكي زمناً كانت شؤون البلاد تُدار من غرفها وقاعات اجتماع قادتها. انها كالراية المُنكسرة بين رايات البلدان المرفرفة بزهو.

- هذا هو حال حركة البشر وآمالهم.. تنهض وتزهو وتتألق ثم تضمر وتخبو وتتهالك... قالها باستسلام لحكم الزمن... قليلاً وراح يكمل كما لو أنه استعذب البوح وارتاح لمن يسمعه برغبة:

- عقود من السنين غبتُ عن بغداد.. عقود كانت بغداد تسكن قلبي وذاكرتي. كنت كل يوم أتتبع أخبارها بالصحافة والإعلام بالسؤال ممن التقيهم قادمين منها. أبكي انْ مرَّ اسبوع او شهر لم اقرأ او أسمع عنها ما يديم دفق دمِها في شرايين الذاكرة.. لا يمكن لمخلوق نسيان مكامن أعشاشه، لا يمكن محو مراتعَ لعبه ونزقه وجذل

طفولته، لا يمكن حتى لو تناسى أو جاهر بالنسيان كردَّةِ فعلٍ لحادثة جرت له أو لاقى الهوان من بعض ناسها سواء السلطات أو ذوي القوى والجاه.. في الفنادق، في الأسواق، في الحدائق التي تشبه الجِّنان وتحاول سرقتَك من بيت ذاكرتِك كانت بغداد تراقبني؛ تنده عليَّ أن تعال فقد تغيرتُ كثيراً.. كثير من معالمي تبدلت. أنا الآن اكثر شباباً، اكثر حضارة مما تركني الأتراك.. تغذّيني بالصبر إنْ جزعتُ وبالهناء حين أحقق انجازاً أو أتجاوز موقفاً عسيراً.. وكان العراق يصاحبني أباً حنوناً يغدق عليَّ رجولته وينهل عليَّ بشجاعة أتمكن من خلالها اجتياز البرازخ بقلبٍ شجاع.

توقَّف قليلاً.. تردَّدَ في الدخول لمقهى الشابندر.

ندخل فنختار تختاً يجاور العارضة الزجاجية المطلة على مبنى السراي. يتأمل المكان باهتمام، ويروح يفوه:

- رحمَ اللّهُ جدّي.. ما كنتُ أدرك ما الزمن الذي كان يتعامل به ويدعوني الى التعامل معه بحسّاسية وحذر. ما كنت أعي آنذاك كلماته عن الزمن وهو يشدد على مخارج الكلمات؛ وهو يضغط بأسنانه على نهايات الحروف بحيث يخيّل لي وقتها انه سيهشم أسنانه الأمامية من فرط حماسته. كنت ارى الزمن ساعة معلقة على جدار، عتلات

تتحرّك وتتك، عقارب تدور وأرقام تمر عليها العقارب دون اهتمامٍ لتأثيرِ هذا الدوران على التغير البايلوجي للإنسان.. تفوتني بطء حركة جدّي وتعثّر خطاه بعدما كان مليئاً بالنشاط يقطع الشوارع والطرقات مثل حصان أتباهى بعدوه وقوة شكيمته. ولم افقه فعلَ الزمن ودبيبه السلبي على الإنسان.. يغيبُ الألقُ المُشرق لوجه أمي وأنا ألاحقها بنظراتي طفلاً وتحلَّ محله تجاعيد تزحف على بشرة وجهها وتتكدّس حول أجفانها... كان جدّي من مكانه على احد تخوت مقهى الشابندر يرفع بصره لساعة القشلة، ويقول: ما أمامك آلةٌ لقياس الوقت وحساب مروره. أما الزمن فغولٌ مُتخفٍّ وراء عتلاتها وتروسها. من لا يصارع هذا الغول ويصرعه مات تحت أقدامه ذليلاً.

قرأتُ حزناً ربّما لأنه ترك بغداد لزمنٍ طويل فلم يشبع من فتوَّتِها، ربما لأنّه يتذكّر أمّه ورحيلها دون ان يضع رأسه على صدرها ويبكي بكاءَ الطفل على فراقها، ربما لأنَّ جدَّه غادر الدنيا ويفتقده الآن ليقصَّ عليه ما حصل له وما جرى وكيف عاد؛ ربما.. وربما.. الاحتمالات كثيرةٌ، تترى!

لفت انتباهي تأثير جدّه عليه ولم يرد ذكرٌ لأبيه في حديثه فانبريت أسأله:

- وماذا عن ابيك؟

اشعل سيجارة، ثم رفعها لشفتيه وسحب نفساً عميقاً:

- لـو تـتكلَّم السـجائر.. قـال.. لـو تـتكلم السـجائر!.. وأطلق زفيراً مشبّعاً بالدخان.

كنت اريد استفهامه عن أي شيء ستتكلم السجائر لو اتيح لها ذلك، لكنه قال:

- تكاد ملامحُ أبي تذهب عن ذاكرتي.. ذلك الشاب اليافع الجميل، ما زال وجهه المبتسم والفرح وهو يلاعبني طفلاً يلفّ دروب الذاكرة.. ما زلت وأنا في هذا العمر الثقيل أشتاق لحضوره وأبكي لفراقه.. سيقَ أبي مع الكثير من اقرانه جندياً الى شمال تركيا؛ ومن هناك نقلوا الى ثكنات حربية في دول البلقان. لا ندري ان كانت بلغاريا أم صربيا أم اليونان أم الجبل الاسود أم سواحل بحر الادرياتيك كما كانت الاخبار تأتي ومعها نذرُ الشؤم والمصائر المجهولة. هناك غاب ولم يعُد. لم نعرف عنه شيئاً. لم يرجع من اقرانه أحد سوى اثنين؛ جاءا فلم يعرفهما حتى اهلهما جراء فقدان وزنهما جرّاء الجوع والحرمان. كانت الحرب من الهول ما لم يستطيعا مواصلة الحديث عنها. احتاجا لوقت طويل لالتقاط الانفاس وابعاد اشباح الرعب جواباً على من يسألهما ويستفسر عن اولاده او اخوانه.. اشباح يتصورانها تلاحقهم حتى وهما هنا في بغداد بين اهلهم واقاربهم.. جاءا بشهادتين

مختلفتين عن أبي ومن سيق معه. قال احدهم أن أبي قُتل قرب مدينة اسمها كليسة في جبهة البلغار برصاص رفاقه من الجنود، إذ حدث هرج ومرج ورعب من قوة المهاجمين ووحشيتهم ففرَّ جنودُنا فرار الغزلان المذعورة. وبقي الشجعان منهم يدافعون ولكن لوقت كانت فيه جموع البلغار تتوالى. راح جنودُنا يطلقون النار بلا هدى. كانت ليلة رعناء؛ طفق الرصاص الذي يطلقونه يقتل رفاقهم. وكان ابي حسبما اسرَّ لنا الجندي العائد أحد القتلى بينما جاء العائد الثاني برواية تختلف. قال انه رأى ابي عند خط شطالجة داخل الاراضي التركية وإنه كان ضمن مجموعة جنود جوعى انسحبوا من احد المعسكرات البلغارية بعد مجازر مروِّعة ارتكبَها البلغار بحقِّهم؛ لم يأكلوا كسرةَ خبز لستة ايام وكانوا يطرقون الابواب متوسلين ومتسولين الاهالي بما يسكت بطونهم، فماتوا جوعى على ارصفة الطريق... من هنا رفض جدي أن أساق جندياً كأبي: "ستموت كما مات أبوك على لا شيء".. كان يردد غاضباً.. كان تطيّر كثيراً عندما طُرِقت الباب وانبأته انفراجها عن قادر بك، المُبلِّغ وسجله الذي لا يدل الا على شؤم.

من هناك. من ذلك اليوم تغيَّرت حياتي. أخذت منحىً آخر. صارت سَفراً في سَفر.

اردتُ العـودة الى سِـفر كتابـه فقلـت محـاولاً اسـتذكار اسماء احتواها الكتاب:

- شخصـيات كـثيرة ذكرتَهـا في الكتـاب. كـان الكتاب زاخراً بهم.

- نعـم كلُّهـم كـانوا رمـوزاً، عشـتُ معهـم وعايشـتُهم. تعلّمتُ منهم الكثير. فالحياةُ كآلةِ الحاصدة، تلتهم مـا تمـر به وتجمعه في خزانتها ثم تعـزل القش وتحـتفظ بـالثمر... مـن فيكتور تعلمتُ تذوّقَ الشّعر، ومـن السيد كـراون كيفيـة التعالي على الفقر والوصول الى مصافي الغنى اعتماداً على الصبر وتحمل مشاق الايام؛ ومن كريستينا أحببتُ الموسيقى متمثلـةً بالبيـانو ومـا أسمعـتني مـن اسـطوانات كانـت فيهـا الفيولات تتحاور مع الـروح برهافـة ونفير الأبـواق تبعـث الهمّـة وتُعلي روحَ التحدّي في النفس؛ أمـا عبـد اللّه فقـد فـتح أمـامي دربَ السرد وعرَّفني عبر الكتب المُكدسة تحت سريره على كتّاب خُلّاق ذوي خيالات رائعة وروح تحمل خصال القـافزين المتسامين على السائد والمألوف، فكـانوا وأنـا أتعامـل معهـم قرائيـاً مشـاعلَ نـورٍ تفـتح دروبـاً لم أتوقّعهـا، وأفـواه تلقـنني سيمفونيات عشق اللغة ومستويات تأثيرهـا علـى البشـر. ومـن كـارل او واثينغـو اسـتلهمتُ الوفـاء الانسـاني والوقـوف الى جانبـك في زمـن الضيق والمحـن. ومـن نفسـي تعلمـتُ الحـرصَ

على التعاطي مع الذكريات وابقائها رديفاً لحركتي وتنقلي.. الذكرى وطنٌ يسافرُ معك انّى حللت، وما الذكريات الا اوطانٌ متنقِّلة.. حين تبعد عن الوطن وتنأى نأياً اجبارياً تستحيل الذكريات اوطاناً فعلية، من البلاهة التخلّي عنها ورميها من شرفة الذاكرة الى هوّة الهباء.

تذكرتُ كارمن، الصحفية التي منحته الحب وكان بإمكانها مرافقة مَن تريد ومضاجعة مَن ترغب.. سألته:

- لحظت انك لم تتكلم عما آلت اليه علاقتك بكارمن.. قطعتها في كتابك ولم ترجع للحديث عنها.

كان على شفا غضبٍ وانفعال يكاد يخرج عن سيطرته تداركه بامتصاص نفَسٍ طويل من سيجارته.. رفع رأسه. مسحت نظراته المبنى الحكومي الصامت وبرج الساعة الذي كالأصبع يُذكِّر بالزمن وعنفوانه ودهائه. حاول تغيير الموضوع بالنظر إلى صورة ملوَّنة احتواها جدار المقهى. الصورة تظهر عمارة دائرة التأمين المدوَّرة. همَّ بالتحدث عن ذوق المهندس والمعمار الذي اراد بتصميمه للبناية أن يحاكي بغداد المدوَّرة يوم صمَّمها معمارُها وشرح تفاصيلَها للخليفة أبي جعفر المنصور... لم ادعه يهرب فكرّرتُ السؤال عن مصير علاقته بكارمن... عندها قال ان بداية علاقتهما كانت بريئة وصادقة لكنها في المنتصف اتخذت منحىً آخر.

- لقد انعطفت بعد منتصف طريق علاقتنا انعطافة خطيرة. ارادتني جاسوساً ارتبطُ بالمخابرات الهنغارية النمساوية لترسلني الى العراق لعملِ شبكةِ تجسّس تخدمُ مملكتَها. وذلك ما اغاظني. كانت قد عرفت ولم تخبرني، ولم تنطق بذلك يوماً أنني اعمل نادلاً في مقهى؛ وما بهرجتي واناقتي الا نزوع ورغبة في الارتقاء اجتماعياً. وهو ما يعتقدونه استعداداً لتوظيف من يبحثون عنه.. لقد استنتجت ان استدعائي الى مركز شرطتهم السريّة واعتقالي حصلَ جرّاء رفضي.

صمتَ قليلاً ثم أكمل:

- اتعلم، وانا في بيروت قرأتُ قصيدة غريب على الخليج لبدر شاكر السياب يتساءل فيها مندهشاً عن مَن يبيع بلادَه ويخونَها. وها انا اصرف حياتي على مَحفّة الشيخوخة اكرر كلام السياب. شعرتُ بهذه الاحساس قبل اربعين، ولو كنتُ شاعراً لسبقتُ السياب في طرحِ الفكرةِ شِعراً.. لا أسوأ وأردأ من خيانة الانسان لوطنه. أنّها خيانة لنفسه. ومن يخن نفسه يغدو غدّة سرطانية في جسدِ الانسانية، يؤذي ويفتك بلا وازع من ضمير؛ بل تراه بلا ضمير.

طالعني بعينين محمَّرتين:

- هل هناك قيمةٌ لبشري فقدَ ضميره؟

لفت انتباهي تجنّبه الحديث في السياسة؛ وكتابه من الصفحة الاولى حتى النهاية يكاد يخلو من مشهد يصطاد فيه القارئ مَلمَحاً لها.. كان حين يدنو من موضوع يناقشه على الورق يمس هذا الجانب ويقتضي البحث فيه او التطرق إليه ينعطف بكتابته وكلامه بطريقة تثير الانتباه. كأن يكتب:" على أية حال ".. أو " ومهما يكن ".. أو " ومن دون اطالة ".. وبذلك ينأى، ويتناول ما هو سطحي يحتويه عالمُ التواصل الاجتماعي والحكايةُ العامة تطرُّقاً إلى السيرة وحديثاً عن المفارقة.. سألته عن ذلك فقال:

- هناك ما يجبرنا على الكتمان لأنَّ حيانَ البوحِ مؤجلٌ وإفضائه بغير وقته يجرُّ الى الويل.. افضاءٌ قد يُريك معادلةً منتظمةً فيفككُها، قد يخلق ظرفاً يؤدي الى التهلكة فتنهار المشاريع ويغدو الندم من عِداد البله والسفه والجنون... أنْ تقول دون أنْ تعي النتائج يعني ارتكابَ حماقة. أنْ تضع خطوةً في غير محلها معناه قتلُ زمنٍ أردته صديقاً فغدرت به وإنْ لم تقصد... هذا الكتاب كتبته هنا خلال العامين الماضيين.. وكتابة كهذه في ظلِّ سلطةٍ يتحرز الواعي منها لابد من النأي عمّا يثير حساسيتها، لا بدَّ من ابعادِ عينِها الراصدة... لقد جاءوا وفي نفوسِهم الشكُّ مِّما حولهم.. قالوا بالفم الملآن جئنا لنبقى. سمّوا انقلابَهم ثورةً؛ نعتوها

بالبيضاء.. قد يكونوا جاءوا ليصحِّحوا مسيرةً خاطئة وفظائعَ ارتكبوها ، لكنَّهم سيتقاتلون.. سيتَّهم احدُهم الآخر بالتآمر، ومن ثم يتحادثون بلغةِ الدم.

تطلَّع لساعة برج القشلة الصامتة وعقاربها الميتة.. أطالَ النظر، ثم عاد ليقول:

- هكذا بدأ الروس. ثائرون ومتحمسون. كان لينين يتوخّى بناء مجتمع عمّالي تنهض فيه موسكو ومقاطعات روسيا بأجمعها على مصانع تهدر وبناء لا يتوقف. تستيقظ الجبال والحقول والوديان والسهب على هدير التراكتورات والمكائن الحاصدة. أغاني المزارعين تتماوج مع بحرِ سعادتِهم بحصادٍ وافر ومنتوجٍ تتعالى نسبُهُ عاماً بعد عام. قطاف فواكه وخضر ومنتجات ألبان وطفرة كبيرة مهولة في إنتاج الثروة الحيوانية.. انطلقوا مُفعمين أملاً بسعة السماء وتباهوا بأفكار حسبوها المُثلى فعملوا على وضع الخطط والبرامج ليس لداخل روسيا فحسب بل لنشرها خارج الحدود. كانوا وهُم يفركون الأكفَّ سعادةً فكّروا بتصدير الثورة.. عيونُهم تتوهَّج.. يرون شهبَ الانتصار تومض وتتلألأ في سماء البشرية الكالحة وقتذاك.. كانت جموعُ الأممِ المضطَهَدة تنهصر تحت نير أنظمة قمعية تؤسس هيمنتها على أفكار قرون ظلامية. عهود هي مِن عِداد

التاريخ الكالح. ذلك التاريخ لا تسمع من بين ثنايا قلاعه غير الصرخات والأنات، الجياع والمرضى، الانكفاء والموت بعيون تتشكّى. جموع لو اتيح لها القول بحرية لصرَّحت بعدم رؤيتها فَتاةَ الفرح تمرُّ يوماً من أمام طرقاتهم أو تدخل مدنهم أو تزور أريافهم.. وكان ان جهدت الاجيال في البناء والاعمار، في التصنيع وإحياء الارض. أُنشِئَت الطرق وبُنيَت المطارات ودخلت السفن العملاقة البحار، وشاع في سماء البشرية هاتفاً في كل الارجاء "يا عمال العالم اتحدوا"؛ تلقَّت النساء صكَّ التحرر من رِبقةِ الرجل وهيمنته الثقيلة، وأُقيمت دور الحضانة ورياض الاطفال؛ فالأب والام في العمل وعلى الدولة التكفّل بالرعاية والتنشئة. كثُرَ اعدادُ المدارس. تعلم الابناء في كل الاعمار فالعلمُ والتعلُّم حقٌّ مكفولٌ للجميع. توزَّعت النوادي تُحقِّق سعادةً بعد العمل؛ وتشكَّلت المخيمات تلمُّ الفتية والشباب في تجمعات يتعلمون وفق خطط تنشئة علمية التعاون والتفاعل وتبادل الآراء وحمل الافكار الثورية. افكار البناء وخلق المجتمع الفعّال سعياً لسعادة تستقبلها لأجيال القادمة... كان البناءُ يتعالى والفكرُ الاشتراكي يطوف كغيمةٍ من أملٍ لخلقِ مجتمعاتٍ تتجلّى فيها المساواة ديدناً، والعمل بجدية على تجاوز الماضي المُقيت هَدفاً. وكان إنْ هفهفت في سماء الأمم

حماماتُ السلام البيضاء وارتفعت ضحكات الصغار ولوَّحت أذرعُ الفتيات بقامات رشيقة ترقص رقصة الفرح لمستقبل سيكون اكثر ازدهاراً وأعم سروراً... ولكن!

أقول وقد قرأت أفول الأمل وذواء نور التغني بالحياة:

- كأنك تريد ادانة النظام الاشتراكي. ألا ترى أن الاتحاد السوفيتي صار اتِّحاداً ذا تأثير أمَّمي. وها نحن نرى منظومته الاشتراكية مترامية ولها ثقل نوعي؛ فلماذا اللاكن هذه؟!

تردَّدَ لبعض الوقت، ثم:

- هذا ما نراه من الخارج. أمّا لو دخلنا فسنرى وبوضوح تسلّلَ المنتفعين والانتهازيين وذوي المصالح الذاتية إلى جسد الوطن الروسي. تسللوا عبر هتافات أعلى من هتافات الصادقين المؤمنين بأفكار خدمة الإنسان وتجسيد سعادته، تسللوا عبر إظهار وطنية وثورية وتكريس حرص وتوثيق عرى البناء، تسللوا عبر الانحناء تَملُّقاً للقائد، وتعظيماً له بمفردات تؤلهه مثلما طفقوا يثيرون شكَّ القائد برفقاء أنقياء يعملون معه صادقين مؤمنين بفكر آمنوا به سوياً وتعاهدوا على تجسيده عملياً؛ فالوطن يستحق منهم العمل الجاد؛ والعمل الجاد يقتضي التضحية؛ والتضحية لا تتحقق الا بنكران الذات؛ ونكران الذات بدوره يصنع حبّاً نظيفاً

يوازي حب الربيع للنبات والشجر. إنَّ الوطنَ لهوية؛ وإنَّ الهويةَ لرِفعة تشبه رايةً خفاقةً في ساحة وغى... وكان إنْ نجحت النميمة ونما شكُّ القائد. وكان إنْ تنامت موضوعة ارتباط المنافسين بقوى الخارج فانبثقت فكرةُ المؤامرة. وظِّفَت إزاء ذلك نسبةٌ كبرى من منتوج تحقيق السعادة وبناء المشاريع العملاقة لبناء جهاز أمني صارَ جلُّ عملِه ومهامّهِ تأمين سلامة القائد ومتابعة تحركات منافسيه. جهازٌ استحال بمرور الزمن منظومةً قمعية عنيفة مرَّت عبرَ التصفيات والاعدامات والنفي في غياهب السجون السرية.

توقف قليلاً يراجع ذاكرته قبل ان يواصل:

- وفي المقابل كان هتلر وجنونُه القومي وتطلعاتُه القومية.. شحذَ، وأججَّ، واشعلَ المعنويات، ودفع الالمان للشعور بالسمو؛ ثم ادخلهم حرباً مروِّعة؛ كأنه فتح باب جهنم وقال لهم هيا ارموا بأنفسكم في محرقة لا تنتهي فانتهت المانيا مقسمة.. جُزِّئَت وأُذِلَّت بمعاهدات ثقيلة تحمَّلها الالماني لأنه خرج ناقماً وكافراً بنازية جلبت له الدمار والسحق.. من هنا تراني اجد أن لا الاشتراكية قطعت طريق نشوء البيروقرطية وأبعدت فكرة الحزب الواحد المهيمن على كل المقدرات ـ ولا النزعة القومية ارتضت العيش مع الشعوب بعيداً عن الروح الشوفينية المقيتة.

هاتف ورؤيته للدين

عرفتُ هاتف غازي رجلاً عصامياً أو شخصية بوهيمية،. وبقدر ما أراه يتعامل ببرود إزاء الاشياء أراه ايضاً جادّاً في مواقف تتطلب الجد. اوعزت ذلك للدين؛ ورأيت كما خمنت أنه ربما عاش طفولته في بيئة ملتزمة دينياً فظلت مترسبة في عقله وخرجت سلوكاً يومياً في ما بعد.

في واحدٍ من الاحاديث أفصح عن تصوره ورؤيته للأديان. ابتسم بشيء من التحفّظ حين اكدت له أن اطلاعه على الاديان في الاقوام التي عاش بينها صنعت التزاماً دينيا عنده وان لم يُفصح عن ذلك؛ قائلاً: ليس الدين هو الذي يقود الانسان الى العملِ الصالح انَّما القانون.. ليس رجل الدين هو الذي يرسي العدالة وتطبيق الحق على الارض إنما رجل القانون.. الدين يُغري ويُحذر عبر رسمهِ صورة للثواب والعقاب، ورجل الدين يوعظ ويوجّه لعل الانسان يأخذ بالموعظة فيسلك طريق الخير.. خالق الأديان ورجل الدين يدركان ان هذا الانسان سرعان ما يثيره طمع الدنيا وتغويه الرغبات والشهوات فينقلب على دينه وخالق دينه " إنَّ الانسانَ ليطغى "يقول القرآن الكريم.. وعندما جاءت الاديان في ازمنة بعيدة كانت هي القانون. والقوانين لابد لها من التغير والتحول مع المسار الحياتي للبشرية.. العقل البشري يتطوَّر فيتقدم، ومع تقدِّمه لابد له من

ايجاد قوانين تتماشى ومسيرة البشر. اي لابد من تغيير أدوات الدين.. من يجعل الدين بهيكليته وبناه قبل قرون ديدنه وهداه في حياة تتطلب الحركة والتغيير انما هو فاقد لهداه، مراوح في حركته، متصمّغ بمكانه.

يصمت قليلاً.. يقرأ دهشتي مما يفضي به فيبتسم محاولاً تبديد شعوري بالخيبة على ما اقول:

- "هكذا نحن الشرقيين. جبلنا على الدين وطقوسه لكننا لم نجبل على القوانين وضرورة تطبيقها. فلو طبقنا القوانين كان الدينُ هو ما طبّقنا. لقد افادني صديقي عبد اللّه في بودابست كثيراً. كانت لديه مجموعة كتب تدخل إلى عالم الاديان البشرية. يبدو أن معرفة عادات الشعوب دينياً كانت تثير اهتمامه.. دخولي على اديان هذه الشعوب وتعرفي على الطقوس والممارسات جعلني انحو صوب اعتقاد أن كل ما يتكرس من طقوس وما يكتب من اعتقادات انما هي وليد الفكر البشري. فالإنسان مخلوق ضعيف مهما تكبَّر وتجبَّر. مخلوقٌ سرعان ما يستحيل ضئيلاً وضعيفاً يحتاج لمن يدلّه أو ينقذه حين تكون المواقف عسيرة والخروج من دائرة نيرانها مستحيلة.

ومن جديد يصمت؛ وما الصمت إلا باب للحوار يفتحها ليقول صفحة اخرى:

- الغرب يسبقنا الآن بقرنين من الحضارة.. هُم فهموا الحياة فجعلوا الدينَ قوانين.. ومن هذا الدين فهموا ان الانسان ما ان يبلغ الاربعين بقليل حتى يتغيّر وعيه. تداهمه فجأةً صعقةُ انه سيموت يوماً. هذه الصعقة لم يكن مر بها قبل ذاك العمر. الصعقة تنبئه انه سيموت يوماً. الصعقة هذه تستحيل هاجساً يقض مضجعه ويذكره كلما طغى وطمع انه سيموت.. الموت فهمه الذين في الغرب نهاية؛ لذلك اطلقوا الحرية للبشري أن يتمتع بما يرغب وفق القانون... الطفولة فتحوا لها ابواب العناية، والشباب منحوهم حرية التصرف وحرية اللقاءات والتمتع. لان لهم زمنا اذا دنا من الاربعين استحال كابوساً أو فهماً للموت على أنه حتمية. وهذا ما لم نفهمه نحن الشرقيين. الذي نفهمه هو هذا التمسك البليد بما كان يعتقده السومريون والبابليون والآشوريون وبناة الاهرام.. تمسُّكٌ بقديم لا يريدون الفكاك منه حتى وهُم يدركونَه كومةَ خرافاتٍ أو حفنةَ أفكارٍ كانت تناسب عقلية أولئك البشر في عصورٍ غارقةٍ في القدم.

كان ذلك آخر ما سمعته من هاتف غازي ما جعلني أشعر بأني أفرغتُ جلَّ ما في جعبةِ سيرة هذا الرجل الذي بدأ شاباً بسيطاً بلا مطامح وانتهى اقرب الى فيلسوف أدركَ كُنهَ الحياةِ ورسا على مرفأ سرِّ الوجود.

(١٢)

خاتمة حياة

مات هاتف غازي.

قبل أسبوعٍ من موتِه صحبني إلى غرفته. جلستُ عند كرسي صاجي لامع. عملّ قهوةً بنفسه اعتماداً على يدِه السليمة وشرعنا نرتشفها بودٍّ متبادَل... قليلاً ونهض مُتهالكاً؛ والى صندوقٍ خشبي مَطلي بطلاءٍ أزرق داكن تحرك. رفعَ غطاءَه كاشفاً حِزم ملّفات وأوراقٍ عتيقة، وأخرى جديدة تتكوّمَ داخله. راح يخرجها ويضعها أرضاً كأنّه يبحث عن ملفٍّ يهمّه؛ حتى إذا رفع واحداً وقرأ عنوانه اهتزَّ بيده مرتعشاً وتمتم كأنه يعثر على كنزٍ مفقود: اي هو هذا.. هو هذا.

أهملَ الملفّات الأخرى على الأرض وترك الصندوق مفتوحاً دون اهتمام كأنَّ ما فيه لن يَعنيه بعد الآن.

- هذا اللي ما قدرت انشره. أخاف من هذي السلطة تنتقم منّي لان في بعضها ما يمسّها بالصميم.

وضعه على المنضدة، واستدار ليجلس قبالتي:

- خُذ هذا الملف. اقرأهُ بتمعّن. واحتفظ به. وحين تسمع

بموتي انشره ولو باسمٍ مستعار. لا أريد انْ يموت ما فيه.

نظرَ لي بعينين دامعتين. ولأول مرَّةٍ أبصرُ جانبَه الخفي الضعيف، ولأولِّ مرَّةٍ تنهار دفاعات كبريائه الذي أظهره أمامي طيلةَ لقاءاتي به، ولأولِّ مرَّةٍ أجدُ ذلكَ الشاب الذي تابعته في كتابهِ مَخلوقاً صلباً، بطلاً، يتجاوز الأقدارَ ويعلو على الجراح يَظهر إزائي ضعيفاً كأنّه جندي منهار يرفع ذراعيه مُستسلِماً، ثم ينحني ليطبع قبلةَ التخاذل على بسطال القدر الذي قادَ وطنَه لكوارث تلو الكوارث وجعل من جغرافيةِ بلاده مَنبتاً لاستقطاب الطامعين الشرهين.

- تمنّيتُ أنْ يحويه كتابي (سفر السفر) كملحقٍ خارج متنه كي يطَّلع عليه ابناءُ وطني ليفقهوا ما كان به آباؤهم وأجدادُهم، وما هُم عليه الآن، وما سيكون أحفادُهم في ما بعد.

****

بعد عشرة ايام من وفاته أخذتُ إجازةً ليوم واحد. قلت لأديب جرمانوس إنَّ لي مع هاتف غازي موعداً. فسألني بلسان الدهشة: الم تقل انه توفي؟... أجبته: نعم، لكن لقائي سيكون مع أشيائه ومقتنياته.

صعدتُ الحافلة باتجاه الباب الشرقي.. ومن هناك ركبتُ اخرى نقلتني إلى عرصات الهندية. نزلت بعد عِدَّة مناطق.

ترجلتُ على هدي أنْ أحظى بقبول أهل البيت وموافقتهم على فتح غرفته.. تمنيت ان لا يكونوا افرغوا الغرفة وتخلصوا من حاجياته رمياً في القمامة أو تبرعاً للفقراء.

ضغطتُ زر الجرس وانتظرت، مُقدِّراً وقتاً سيقطعه القادم لفتح الباب والمسافة بين الباب المطل على الحديقة الواسعة والباب الرئيسية التي أقف عندها.

بعد لحظات سمعت صوتاً نسائياً يسأل... أفهمتهم بدعوى حضوري، وأعلمتهم أنني صديق له.

- جئتُ لمعرفةِ ما ترك من كتابات. فلديَّ مشروعُ وفاءٍ له.

لم تجيءِ الموافقةُ مباشرةً. فقط قالت البنتُ العشرينية التي فتحت الباب وأطلّت برأسِها أنَّ عليها اطلاع امّها.

الام حضرت، ومن بين عرضي ورغبتي امرت ابنتها الاتيان بمفتاح غرفته الموصدة.

كانت أشياؤه كما شاهدتها قبل وفاته بأسبوع.. الصندوقُ بقيَ كما هو مفتوح والملفّات على الأرض. لم تكن لديه القوة والمزاج على رفعِهما وإعادتهما الى جوف الصندوق وإغلاقه.. بعض الملابس التي كان يرتديها شاهدتها مُعلَّقة كأنّها قصائدُ ميتة تحكي سِفراً لحياة كانت هنا.. الشبشب الأسفنجي منفرج كأنه يطبع قدمين

سمحتا للمختلس بالهجوم والدخول إلى الزاوية الحادة شارعاً بسلب الروح بدءاً من أطراف أصابع القدمين صعوداً حتى هامة الرأس.. السرير بتعرّجات الفراش يرسم صورةَ قوامٍ واهنٍ كان يتمدَّد عليه، جسدٌ تلاشى مُتفتِّتاً، تلقَّفته الارض؛ وضاع.

ومثلما احتفظ بكتاب أوراق العشب وكراسة فيكتور وفاء للصداقة احتفظ بالصورتين المزججتين للشيخ العجوز والمرأة المسنّة وهما يطالعان في كتاب المعرفة. صار يحملهما معه أينما ذهب وأنّى حل تُذكِّراه بجدٍّ ووالدةٍ.. فما أنْ يدخل مكاناً ويجعله محلَ سكنٍ حتى يشرع باستخراج مقتنياته من الملابس والحاجيات: يخرج ثيابه ويعلِّقها على شمعات التعليق أو على مسامير في الجدار. يضع فرشاة الأسنان ومعجونها وقطع الصابون وأقراص دهون ترطيب البشرة.. يستخرج الصورتين فيضعهما أمامه على المنضدة.

تذكَّرته وهو يعدُّ القهوةَ لي ويقدمها بفرح ثم يجلس الى كرسيه ليكون ثالث القارئين... ينظر للصورتين ويضحك.. يضحك وينظر لي: هؤلاء أصدقائي منذ أربعين عاماً.. كانوا رفقائي أينما حللت.. كانوا طمأنينتي.. بل كانوا وطني.. والوطن يا صديقي حيث يعيش الإنسان سعيداً... تذكَّرتُه وهو يبرر عودته الى بغداد: عدتُ بعدما تحسَّن الوضع

الاقتصادي بتأثير تأميم النفط ونجاح الحكومة في امتلاك زمام تصديره وبيعه دون حاجة لشركات اجنبية تهيمن على اقتصاد البلد وتتركه جائعاً عليلاً تتناهشه وتتناهبه الصراعات السياسية الضيقة.. عُدتُ رغمَ تحذير الاصدقاء والمعارف وهم يشيرون لما حصل للبلاد على يدِ من مسكوا السلطة من جديد، وكنت اضحك ببلاهة واقول مبرراً: لقد بتُّ شيخاً. لا أعتقد سيتحسّبون مني ويحسبون لي حساب الخشية... وعُدتُ.

عندما خرجتُ خرجت بالصندوق بما يحوي من ملفات، وبالصورتين اللتين جعلتهما على منضدتي في ما بعد.

ضممتُهم أصدقاءً لي، لأنَّهم كانوا أصدقاءً له.

لم أرَ صورةً لدوردانة.. يبدو انه علَّقها مَحفوفةً باطارٍ من غارٍ على جدارِ ذاكرتهِ مفضِّلاً أنْ لا يراها أحدٌ سواه.

خرجتً، وكان بين يدي كتاب أوراق العشب عتيقاً، اسمرَّت صفحاته؛ وخُطَّت تحتَ اغلبِ سطورِهِ خطوطٌ حمراء وزرقاء وسوداء لم أميّز ان كانت خطوط فيكتور ام خطوطه هو، فقد تماهى الاثنان في شخص والت ويتمَن؛ وظني انَّهم، الثلاثة، مَن كتب الكتابَ وجسَّد فحواه فعلاً وعملاً.

****

بعد شهر من وفاته وبفضول لا ادرك سببه رحتُ أبحث عن الكتاب في المكتبات. مررتُ على مقاهي حسن عجمي والشابندر وابو حليمة والبرازيلية وحتى الأماكن التي يباع فيها الشاي وقوفاً أو على دكّات الأرصفة والمصاطب الكونكريتية. تلك الأماكن التي شاهدته فيها.. هناك تفرَّستُ في الوجوه واستفسرت من عمال المقاهي وأصحابها علّي احظ بمن باعهم الكتاب. انفتحت نفسي لمشاهدةِ بعضِهم. لكنَّ ما فجّر في الرأس هاجس الغرابة هو تطيِّر كلٍّ من التقيته واستفهمت منه.. في البدء يأتي الجواب بالإبهام والتنكُّر في أنهم لا يعرفونه أو انهم اشتروا الكتاب ولم يطالعوه؛ وبعضهم يبوح بأنه قرأ الصفحات الأولى ثم رماه إذ لا شيء يثير ويحفِّز الذائقة ويمنح متعةَ قراءةٍ يُفتَرض بالكتاب الذي يُقرأ تأجيجها.. كاتبٌ عبثيٌّ، قلقٌ، فوضوي، وصولي، منافق.. اكتشفت بتتبعي لما يقولون أنَّ سحناتِهم تشي بغير ما يقولون. عيونُهم تفشي بما لا يتوافق وما يفوهون... تغاضي، ولامبالاة، واستخفاف، وهزء بكلمات مبتورة غير أن شفاههم ترتعش وأصابعهم تروح تنقر على المنضدة أو على أفخاذهم أو يحكّون فروات رؤوسهم.

ولم يكن غير مجيد البابلي يملك شفرةَ فكٍّ مغاليق حيرتي. وجدتُ اللحظة حانت كي اسأله عن تجنب صديقه

الخوض في السياسة، وتحسّسه من ذكرِها في الكتاب. بل أن مجرى الحديث الذي يفضي لموضوع سياسي سرعان ما كان يبتره وينعطف ليدخل درباً آخر يكتشفه القارئ الحاذق بيسر ويستشف تهربه.

هز رأسه تأييداً لما قلت:

- ابتعاده واللوذ بالخمرة ليس حبّاً بها وشوقا إليها إنما لتفادي قسوةِ السلطة ومحاولتها اتِّهامه بتهمةِ التجسس وبالتالي يكون التخلّص منه سهلاً ويسيراً، ولا ادري إنْ راوده شعور بالخطأ لنشره الكتاب في هذا العهد أم لا.

- ها... هكذا؟!

- نعم.. السلطة الحالية ومنذ مجيئها في العام ١٩٦٨ التهجُّس عندها سلوك يومي، والمواطن الذي ليس تحت سيطرتها حزبياً مُنظماً يبقى داخل دائرة التوجّس، فكيف بمثلِ هاتف غازي الذي صرف عقوداً من السنين يتنقل من بلد لآخر.

أدخلني درباً فرعياً ، وراح مع كل عبارة يفوه بها يلتفت خشيةً من أحد يتعقّبنا... وبكلمات قليلة ومختصرة أكَّد:

- كلُّ نسخِ كتبه نَفذت في المكتبات بيوم واحد.. وحتى الشطري استدعي لشعبة أمن الميدان وأُخِذ منه تعهدٌ خطّي في عدم بيع أو اعادة طباعة الكتاب.. إنهم يرون في

سفراته ورحلاته وحريته التي اكتسبها من التنقل من بلد لآخر مُحفزاً ومُشجعاً للشباب على اقتفاء خطوهِ والهجرة من البلد. انهم يحسبون هجرةَ المواطن خروجاً من حلبةِ سيطرتهم.. لقد هاجرَ الكثيرُ من الشباب تاركين البلاد بعد قراءتِهم للكِتاب. لذا أرجوك لا تسأل عنه ولا تمر على ذكره فذلك يجلب لك الأذى.

بشيءٍ من الدهشة، وبوازع من ضميرٍ يتوهَّج قلت:

- انهم محقّون في رؤيتِهم.. كتاب يدعو الى التحرر من ربقةِ واقعٍ راكدٍ، فاسدٍ، ودنيء.. وهو مصيبٌ في رؤيته لامتلاك الانسان حريته وصنع تاريخه ومصيره بنفسه.

****

بعد الاربعين زرتُه. لم يستقبلني هو انَّما الشاهدةُ التي حملَت اسمه.. كانت باهتةً ينقصها شيء ما.

في اليوم التالي توجَّهتُ الى ساحة الميدان وبيدي الكتاب... طلبتُ من صانعِ الشواهد عملَ شاهدةٍ رخامية على شكلِ غلافِ كتاب سفر السفر، بعنوانه ونقوشه وخطوطه، وحفرٍ بارزٍ لتاريخِ الولادةِ والوفاة.

السماوة - الحيدرية

٢٠١٥/٧/٧

ببلوغرافيا

زيد الشهيد – العراق

بكلوريوس آداب / لغة انكليزية.. عضو اتحاد الادباء العراقيين، وعضو اتحاد الادباء والكتاب العرب.

أصدر المجاميع القصصية (مدينة الحجر) عن اتحاد ادباء العراق عام ١٩٩٤، (حكايات عن الغرف المعلقة) دار أزمنة - عمّان ٢٠٠٤، (اش ليبه دِش) عن دار تراسيم العراقية، (فضاءات التيه) دار تموز- دمشق، (فم الصحراء الناده) دار تموز، (سحر المسنجر) دار تموز، (نساء تراب) دار تموز.

في الشعر اصدر مجموعة (امي والسراويل) ٢٠٠٣، (اشجان الغرباء) ٢٠١٦

اصدر الروايات (سبت يا ثلاثاء) دار ازمنة عمّان، (افراس الاعوام) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (فراسخ لآهات تنتظر) المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، (اسم العربة) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (تراجيديا مدينة) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (جاسم وجوليا) دار امل الجديدة – دمشق

صدرت له عدة كتب في النقد والترجمة..

حاز على عديد الجوائز بالمرتبة الاولى، ومنها رواية (افراس الاعوام) عام ٢٠١١ في مسابقة دار الشؤون الثقافية – وزارة الثقافة – العراق.

يمارس النقد والترجمة

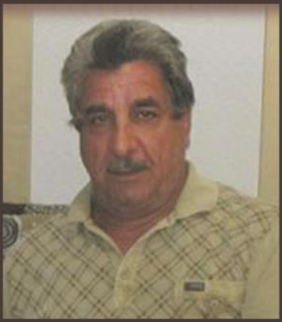

LIFE AND TRAVELLING
(NOVEL)

ZAID AL-SHAHEED

لقد شهدتُ في آخر لقاء معه وتسجيل حديثه أنَّ الرجلَ منهكٌ وغير قادر على مواصلة صراع الزمن والبقاء حيّاً سنة أخرى، أو حتى شهر آخر؛ هو الذي صارع، وقاتل، وسخر، وانتصر فما عاد للقدر بطاقة صفراء أو حمراء يشهرها بوجهه. مبارياته مع الحياة أغلبها انتهت بفوزه، وأظهرته، بناء على ما كتبَ، وما سمعت عنه، وما رواه مسكوباً من فمه، لاعباً متميزاً. تمكّن بفعل مهارات عقلية، ولياقة نفسية، وروح دعابة من الفوز في كل مباراة دخلها مع الأقدار الحاصلة والمواقف المُستَجدّة.. لم تثنه خسارة، ولم يستسلم لهزيمة. ولا تراجع حتى عن قرار أو تصميم عزم على تنفيذه إلى نهايته، ولا شعر يوماً بأنه لم ينهل من عسل الدنيا بما يكفي. كثيرا ما يشبّه نفسه بعروة ابن الورد أيام كان شاباً؛ وآخر أيامه كان يقول: أنا مالك بن الريب، ويروح يتمتم بشيء من الجزع والمرارة:

أَجَبْتُ الْهَوَى لَمَّا دَعَانِيْ بِزَفْرَةٍ
تَقَنَّعَتِ مِنْهَا أَنّ أُلَامَ رِدَائِيَا

أَقُوْلُ لِأَصْحَابِيْ ارْفَعُوْنِيْ لِأَنَّنِي
يَقُرّ بِعَيْنَيْ أَنْ سُهَيْلٌ بَدَا لِيَا

خُذَانِيْ فَجُرَانِيْ بِبُرْدِيَ إِلَيْكُمَا
فَقَدْ كُنْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ صَعْبًا قِيَادِيَا

أمل الجديدة
طباعة - نشر - توزيع